# شارع
# السردين المعلَّب

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : شارع السردين المعلَّب
تأليف : جون شتاينبك
ترجمة : هبة الله الجمَّاع
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٤٨٠٨ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 47 - 2

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

# شارع السردين المعلَّب

ترجمة هبة الله الجمّاع

جون شتاينبك

# عن المؤلف

ولد جون شتاينبك بسالیناس، كاليفورنيا، عام ١٩٠٢، حيث نما وترعرع في قرية زراعية خصبة تبعد حوالي ٢٥ ميلاً عن الساحل الباسيفيكي، وهي المنطقة التي صارت بمثابة مسرح الأحداث في طائفة من أفضل روايات شتاينبك فيما بعد.

وفي عام ١٩١٩ التحق شتاينبك بجامعة ستانفورد، حيث شرع في دراسة الأدب والكتابة، إلّا أنه لم يُوفق في دراسته وتركها أخيرًا في عام ١٩٢٥ دون أن يحصل على درجة علمية.

وعلى مدار الخمسة أعوام التالية، تنقل شتاينبك بين عدد من المهن والوظائف كي يتمكن من إعالة نفسه، حيث اشتغل كعامل، وصحفي في مدينة نيويورك، وكذلك عمل كحارس لإحدى العقارات بالقرب من بحيرة تاهو؛ وخلال تلك الفترة قام شتاينبك بتأليف أولى رواياته : « كأس من ذهب» (١٩٢٩).

وبعد زواجه وانتقاله للعيش في باسيفيك جروف، تمكن شتاينبك من نشر اثنين من أعماله : « مراعي الفردوس» (١٩٣٢) و « البحث عن إله مجهول» (١٩٣٣)، كذلك قام بتأليف عدد من القصص

القصيرة، والتي قام بتجميعها لاحقًا ونشرها تحت عنوان «الوادي الطويل» (١٩٣٨).

ثم جاء عام ١٩٣٥ ليحمل إلى المؤلف الشاب أخيرًا النجاح المنشود، سواء على الصعيد الأدبي أو المالي، وذلك مع ظهور عمله الأدبي «تورتيلا فلات».

وعلى مدار حياته الأدبية، لم يتوقف شتاينبك عند تيمة واحدة أو سياق أدبي بعينه، وإنما تنقل بين المسارات الروائية؛ وقد ركز بصورة خاصة على طبقة العمال الكادحة في كاليفورنيا، وذلك في ثلاث من أفضل رواياته الصادرة في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين : « معركة مشكوك بها» (١٩٣٦)، «فئران ورجال» (١٩٣٧) ، «عناقيد الغضب» (١٩٣٩)، وهو العمل الذي يُعدُّ في نظر الكثيرين أفضل أعمال شتاينبك على الإطلاق.

وفي بدايات الأربعينيات دخل شتاينبك عالم السينما، حيث قدّم فيلمه الوثائقي « القرية المنسية» عام ١٩٤١؛ كذلك قام بوضع كتاب متخصص حول الأحياء البحرية تحت عنوان : « بحر كورتس».

كما عمل شتاينبك كمراسل حرب لإحدى الصحف خلال الحرب العالمية الثانية، وفي تلك الفترة ألف عددًا من أعماله الإبداعية، منها روايته القصيرة المثيرة للجدل : « أفول القمر» (١٩٤٢) ، « شارع السردين المعلب» (١٩٤٥) ، «الأتوبيس الجامح» (١٩٤٧) ، « اللؤلؤة» (١٩٤٧) ، «الاحتراق الساطع» (١٩٥٠) ، «شرق عدن» (١٩٥٢).

وخلال العقود الأخيرة من حياته، والتي قضاها في مدينة نيويورك مع زوجته الثالثة، رفيقة العديد من أسفاره، أضاف شتاينبك إلى رصيده الثري طائفة أخرى من المؤلفات، من بينها : «خميس عذب» (١٩٥٤)، «يوم ما كانت هناك حرب» (١٩٥٨) ، «شتاء السخط» (١٩٦١) ، « رحلات مع شارلي للبحث عن أمريكا» (١٩٦٢) ، «أمريكا والأمريكان» (١٩٦٦)... وبعد وفاته نُشر له عدد آخر من المؤلفات مثل : «فيفا زاباتا» (١٩٧٥) ، « أعمال الملك آرثر وفرسانه النبلاء» (١٩٧٦).

وفي عام ١٩٦٢ حصل جون شتاينبك على جائزة نوبل للآداب، ثم جاء عام ١٩٦٨ ليطوي صفحة ذلك الكاتب الأمريكي الفذ ويسدل الستار على حياته الحافلة بالإبداع، فيرحل شتاينبك عن عالمنا تاركًا ورائه رصيد غني ومعين فياض من الإبداعات الأدبية.

***

# إهداء

إلى إدوارد ريكيتس

الذي يعلم لماذا، أو ينبغي له أن يكون كذلك!

# شارع السردين المعلَّب

شارع السردين المعلَّب في مونتيري، بكاليفورنيا.... إنه قصيدة، وعفونة!... ضجيج، وضوء... هو نغم.. هو عادة.. بل هو حنين و حلم.

شارع السردين المعلَّب هو كل ما تجمّع وما تبعثر من صفيح وحديد، وصدأ، وشظايا الخشب المتداعي، والأرصفة المتكسرة، وزغب العشب فوق الأرض، وركام النفايات، ومعلبات السردين ذات الصفائح المجعدة، والحانات والمطاعم، وبيوت البغاء، ودكاكين البقالة المتكدسة... إنه المعامل، والنُزل الرخيصة...

شارع السردين المعلب هو سكانه، الذين، كما قال شخص ما يومًا : « ما هم سوى حفنة من بائعات الهوى والقوَّادين والمقامرين وأبناء العاهرات»، أي أنهم، بشكل أو بآخر، هم كل البشر. ولو أنه كان قد نظر إليهم من منظور مغاير، لكان حري به أن يقول :» إنهم جموع من القديسين والملائكة والشهداء والأبرار «، أي أنهم، أيضًا، كل البشر.

في الصباح، وما إن يظفر أسطول الصيد بصيده الثمين من السردين، حتى يعود بشباكه المكتظة إلى الخليج مطلقا صافراته، إلى أن يدنو من الساحل، فتتلقف مصانع تعليب السردين الحمولة الثقيلة، ثم ما تلبث صافرات تلك المصانع بدورها أن تطلق دويها الصاخب، فيهرع رجال البلدة ونسائها من فورهم، فيرتدون ملابسهم على عجل وينطلقوا عبر شوارعها إلى حيث أعمالهم.

وبعد حين، عبر ذات الشوارع، تتهادى السيارات اللامعة تحمل السادة من الطبقات الاجتماعية العليا، من مديرين ومحاسبين وأصحاب أملاك، الذين ما إن يترجلوا منها حتى يختفون في مكاتبهم.

ومن البلدة أيضًا، يتدفق رجال ونساء، من أصول صينية وإيطالية وبولندية، في سراويلهم وستراتهم المطاطية، ومآزرهم المصنوعة من المشمع، إلى حيث ينهمكون في أعمالهم، من تنظيف للأسماك وتقطيعها ومعالجتها، وصولاً إلى مرحلة التعبئة والتعليب...

صخب يصم الآذان، يضرب أطنابه في هذا الشارع الذي يعج بالحركة ويرتج من الضوضاء والأصوات المجلجلة، والصافرات المصلصلة ، كل يدوي في أرجائه، حيث أنهار الفضة المتدفقة من الأسماك، تصبها مراكب الصيد في مصنع التعليب، الذي لا يكف لحظة عن الهدير حتى آخر سمكة يتم الانتهاء من تعليبها؛ وحينئذ تدوي الصافرات من جديد، هذه المرة لتعلن انتهاء يوم آخر من العمل الشاق، ويخرج العاملون الصينيون والإيطاليون والبولنديون، تفوح منهم رائحة العرق والإعياء، يجرون أرجلهم جرا صاعدين

نحـو التـل إلى حيـث البلـدة... ويعـود شـارع السردين المعلـب هادئـا مـن جديـد، وترجـع فيـه الحيـاة إلى طبيعتها، فيخـرج المتسـكعون الذين اضّجعـوا أسـفل شـجرة الـسرو السـوداء، إلى حيـث السـاحة الخاويـة ليتخذوا مجلسـهم فـوق الأنابيـب الصدئة، أمـا فتيات الهـوى العاملات في بيـت «دورا» فينطلقـن إلى الشـارع تلمسـا لبعض من أشـعة الشـمس إن كانـت سـاطعة؛ ومن المختـبر البيولوجـي الكائن في الجانـب الغربي، يخـرج « دوك» متخـذًا سـبيله عـبر الشـارع إلى حيـث دكان «لي شـونج» للبقالـة ليبتـاع زجاجتـين مـن الجعة.

حتـى هنـري الرسـام تجـده يمـضي سـعيًا وراء ضالته - تمامًـا ككلب يتشـمم كومـة مـن النفايـات- باحثًا عـن لوح مـن خشـب أو قطعة من معـدن ليسـتكمل بها بنـاء قاربه.

ثـم يشـتد الظلام وتـزداد حلكتـه، فيضئ مصباح الشـارع أمـام بيت «دورا» ليفـترش بنـوره، الشـبيه بنور القمـر السرمدي، شـارع السردين المعلـب؛ وتـأتي صحبة مـن الزائريـن إلى « دوك» في المختـبر البيولوجي، فيهـرع هـو نحـو دكان «لي شـونج» مـن جديـد ليشـتري خمـس مـن زجاجـات الجعة.

وبعـد، كيـف لقلـم أن يصـور تلـك القصيـدة والعفونـة والضجيـج والضـوء والنغـم والعـادة والحلـم؟!.. لعمـري،إن الأمـر لشـبيه بـأن تحـاول تجميـع كميـة مـن الكائنـات البحريـة شـديدة الهشاشـة، مـا إن تقـوم بالإمسـاك بهـا حتـى تتمـزق وتتفتـت، بحيـث يسـتحيل عليـك التقاطهـا جميعًـا، فـلا تجد أمامك حـلاً سـوى أن تدعها تجـري وتتدافع،

عـلى حافة سـكين، ثـم تقـوم برفعهـا برفـق وروية إلى زجاجة مـن مياه البحـر..... مـن يـدري؟! ربـما تلـك هـي الطريقـة المثلى لوضـع ذلك الكتـاب.. أن تـدع القصـص والحكايـا تتدفـق مـن تلقـاء نفسـها فـوق الصفحـة البيضـاء...

***

# -١-

دكان «لي شونج»... على الرغم من أنه لم يكن آية في النظافة، إلَّا أنه كان معجزة بكل المقاييس فيما يتعلق بالمؤن والبضائع الموجودة فيه؛ ففي هذا الحانوت الضيق المكدس، كان يمكن للمرء أن يجد أي شيء وكل شئ يبتغيه... ملابس، أطعمة طازجة كانت أم معبأة، خمور، تبغ، معدات صيد، آلات، زوارق، حبال للسفن، قبعات، شرائح لحم الخنزير.... بل إنك إن أردت حتى ابتياع خفين أو رداءً حريريًّا أو قنينة من الويسكي أو سيجارًا، فإنك حتمًا ستجد مبتغاك في ذلك الدكان الصغير.... فقط نوع واحد من البضاعة لن تجده أبدًا لدى «لي شونج»، لكنك لن تحتاج لأن تذهب بعيدًا كي تحصل عليه، فليس عليك سوى عبور الساحة حتى تجد نفسك وقد وصلت إلى... « بيت دورا».

عادة يفتح «لي شونج» أبواب دكانه عند الفجر، ولا يغلقها إلَّا حينما يكون آخر زبون ليلي قد أنفق آخر عشرة سنتات يملكها في دكانه، فهل كان «لي شونج» شرها إلى المال طمّاعًا؟.. لا، لم يكن كذلك، ولكن أينما أراد أي شخص إنفاق أمواله فإن دكان «لي» وما به من (كل شيء) متاح دائمًا...

والحقيقة أن مكانة «لي» في مجتمعه المحلي إنما كانت تدهشه هو ذاته أيما دهشة! فعلى مر الزمان وكر الأعوام، بات كل شخص في شارع السردين المعلب مدين للرجل ببعض من المال، ولم يكن «لي» من جانبه يلح على زبائنه أو يضغط عليهم لسداد ديونهم، ولكن في حال زادت ديون أحدهم وتضخمت حتى جاوزت الحد، فإنه كان يمتنع ببساطة عن البيع له وقضاء حوائجه، فلا يجد الزبون من سبيل أمامه سوى الإسراع في سداد ديونه بقدر المستطاع، بدلاً من أن يضطر لقطع المسافة عبر الطريق الصاعد نحو التل إلى حيث البلدة لابتياع حاجياته.

كان «لي» رجلا مستدير الوجه، دمث الخلق، يتحدث بإنجليزية راقية فخمة، دون نطق حرف (الراء) أبدًا. وحينما كانت الحروب والصراعات تشتعل بين الأحزاب والتيارات الصينية الموجودة في كاليفورنيا، وتبدأ المخاطر تحوم من حوله وتقترب منه، كان «لي» يرتحل من فوره سرًا إلى سان فرانسيسكو حيث يدخل إحدى المستشفيات هناك ويظل ماكثاً بها إلى أن تهدأ الأجواء وتعود الأمور إلى طبيعتها...؛ أمّا ما الذي كان يفعله بكل تلك الأموال التي يملكها فهو مالم يعرفه أحد أبدًا، فلربما كان في حقيقة الأمر لايملك أموالاً!، ولربما كل ثروته تتمثل في تلك الكومة من فواتير الديون غير المدفوعة، لكنه على أية حال كان يحيا في رغد ويحظى باحترام كل جيرانه.

ولم تكن الريبة والتشكك من طباع «لي» بل على العكس، كان يثق في زبائنه دائمًا، إلى أن تغدو الثقة نوعًا من البلاهة، وعندها يتغير الحال تمامًا... في بعض الأحيان، كان الرجل يرتكب شيئاً من

الحماقات في معاملاته التجارية، لكنه كان يملك قدرة هائلة دومًا على تحويل خسائره لمكاسب وزلّاته لمزايا تخدم مصالحه، وهو ما حدث تحديدًا في مسألة المبنى المعروف باسم (قصر فلوبهاوس وجريل)، وهي الصفقة التي لابد أن تبدو في نظر أي شخص خسارة فادحة، أي شخص سوى «لي شونج»..

في دكانه الضيق، كان» لي شونج « يتخذ مكانه دائمًا خلف طاولة علب السيجار، حيث ماكينة حساب الأموال على يساره، والعداد اليدوي على يمينه؛ وفي داخل صندوق العرض الزجاجي أمامه تتموضع أنواع شتى من السيجار البني وصنوف عدة من السجائر ذات العلامات التجارية المعروفة مثل (بول دورهام) و (دوكس ميكسشر) و (ذا فايف برازرز)... وخلفه على الأرفف المثبتة إلى الجدار تترصص قنينات الشراب من أحجام وأنواع متباينة، من (أولد جرين ريفر) و (أولد تاون هاوس) و (أولد كولونيل)، وصولاً إلى ذلك النوع الرخيص من الويسكي المخلوط من ماركة (أولد تينيسي) والمعروف في الجوار باسم (أولد تينيس شوز).

وفي واقع الأمر لم يكن «لي شونج» يتخذ موضعه هذا مابين زبائنه وزجاجات الويسكي دونما سبب وجيه، فكثيرًا ما حاول بعض من الخبثاء ممن يترددون على دكانه أن يصرفوا انتباهه إلى غير ذي موضع من الدكان، فكان الواحد منهم يصطحب معه بعض من أبنائه أو بنات زوجته أو أبناء إخوانه أو أحد أبناء عمومته، فيقف الفتى أو الفتاة منهم في ركن آخر من الدكان كي يشتت انتباه «لي»، إلَّا أن الرجل ما كان ليبرح مكانه خلف طاولة السجائر قط.

وكان» لي « يتخذ من قمة صندوق السجائر مايشبه الطاولة له، حيث يسند يديه البدينتين الناعمتين على الزجاج محركًا أصابعه عليه، وفي إصبعه الأوسط من يده اليسرى استقر خاتم زواجه الذهبي العريض، والذي كان بمثابة قطعة الحلي الوحيدة التي يرتديها.

كان» لي» يملك فمًا ممتلئًا وبشوشًا، وحين يتبسم كان وميض السن الذهبية يضفي على ابتسامته لمعانا دافئًا؛ ودائمًا ماكان يرتدي عوينات نصفية ينظر عبرهما إلى كل الموجودات من حوله، وفي كثير من الأحيان كان يضطر لإرجاع رأسه إلى الوراء كي يتمكن من رؤية الأشياء على مسافات بعيدة.

***

في موضعه الأبدي من دكانه، دائمًا ماتجده واقفاً يجري عمليات الجمع والطرح والخصم وحساب الفوائد ، بأصابعه البدينة الصغيرة التي لاتكف عن الحركة فوق عداده اليدوي، وعيناه البنيتان الودودتان تجوبان في نفس الوقت عبر كل ركن من دكانه، وثغره يفتر باسمًا، لامعة أسنانه، في وجه زبائنه.

في إحدى الأمسيات، بينما كان واقفاً في مكانه المعتاد، وقد افترش الأرض بعدد من صفحات الجرائد كي يبقي قدميه دافئتين، طفق «لي شونج» يفكر، وقد اعترته مشاعر متضاربة، في صفقة كان قد أبرمها عصر ذلك اليوم مع «هوراس آبيفيل» الذي يقطن في الجوار ، ثم أعاد إبرامها من جديد بعدها بسويعات قليلة.... لو أنك غادرت دكان «لي» واتخذت سبيلك عبر الأرض ذات العشب المتنامي فوقها،

ثـم سـلكت الطريـق بـين الأنابيـب الضخمـة الصدئـة خـارج مصانـع التعليـب، فسـوف تجـد نفسـك في طريـق ملـئ بالعشـب الـبري، فـإن سرت عـبره ثـم عـبرت طريـق القطـار متجـاوزا شـجرة الـسرو، ثـم صعـدت نحـو حظيرة الدجاج، فسـوف ينته بـك المطـاف في النهاية أمام مبنـى منخفـض وطويل كان يسـتخدم لفترات طويلة كمخزن لمسـحوق السـمك المجفـف، ثم اتخـذه من بعد ذلـك رجل بائس يدعـى «هوراس آبيفيـل» كسـقيفة تؤويـه وأسرتـه المكونـة مـن زوجتـين وسـتة أولاد...

عـلى مـدار سـنوات، اعتاد « هـوراس» على الاسـتدانة مـرة بعد مرة، بالتوسـلات تـارة والإقنـاع تـارة، مـن دكان «لي شـونج» ؛ وفي عـصر ذلـك اليـوم، حـضر هـوراس إلى دكان «لي»، وقد اعترت وجهـه المجهد اختلاجـات الانفعـال بمجـرد أن رأى ملامـح التجهـم والصرامـة على وجـه» لي» الـذي أخـذت أصابعـه البدينـة تتحـرك كعادتها وتـدق فوق الغطـاء المطاطـي لصنـدوق السـجائر الزجاجـي، فوضـع «هـوراس» يـده هـو الآخـر على الصنـدوق، وبـادر قائـلاً : ( أحسـب أننـي مدين لـك بمبلـغ كبـير مـن المـال)، فاسـترخت ملامـح «لي» نوعًـا ما شـاعرًا بالراحـة إزاء تلـك البدايـة المبـشرة والمغايـرة كثـيرًا لمـا اعتاد أن يسـمعه مـن الرجـل، وانفرجـت شـفتاه عـن ابتسـامة خافتة وقـد لمعت أسـنانه وهـو يومئ برأسـه في هدوء متحسـبًا لما سـوف يُقـال بعد تلـك المقدمة؛ فبلـل «هـوراس» شـفتيه الجافتـين بطرف لسـانه ثـم اسـتأنف الحديث : ( إننـي أكـره أن يظـل ذلـك الديـن قيـدًا معلقا في رقـاب أبنائي وسـيفا مُسـلطا فـوق رؤوسـهم، خاصـةً وأنني على يقـين أنك لـن تمنحهم حتى ولـو بعـض حلـوى النعنـاع بعـد اليوم )

فوافقه «لي» متمتمًا : ( إنه مبلغ كبير حقًا ذلك الذي تدين لي به).

( لابد أنك تعرف البيت الذي أسكن فيه، ذلك الكائن هناك عبر خط السكة الحديد، حيث كان مخزن مسحوق السمك المجفف )قالها «هوراس»، فأومأ» لي» من جديد، فقد كان مخزنه على أية حال، فأردف «هوراس» في جدية وحماسة : ( لو أنني منحتك منزلي فهل يوفي ذلك ديوني عندك؟ )

فأرجع «لي شونج» رأسه إلى الخلف محدقاً في «هوراس» عبر عويناته النصفية، وبسرعة البرق طفق عقله يجري حسابات الربح والخسارة لتلك التسوية، في حين ظلت يده اليمنى تتحرك فوق العداد اليدوي بجواره، وقد أخذ يوازن ما بين الحالة السيئة للمبنى الذي يتخذه «هوراس» مسكنا له، وبين قطعة الأرض المقام عليها البناء، والتي قد يرتفع ثمنها كثيرًا في حال أراد أحد مصانع تعليب السردين التوسع... ( حسنا )قالها «لي» في تؤدة..

( إذن، قم بإعداد حساباتك وسوف أوقع لك عقد بيع المنزل)

( لاداع للعقود، سوف أعطيك مخالصة بالديون مقابل المنزل )

لقد تمت الصفقة ببساطة واحترام، وقام «لي شونج» بفتح زجاجة من ذلك الويسكي الرخيص (أولد تينيسي) أو (أولد تينيس شوز) كما يحلو لهم أن يطلقوا عليه في المنطقة، احتفاءً بإتمام التسوية ؛ ثم انطلق «هوراس آبيفيل» مباشرة متخذًا طريقه صوب منزله الذي لم يعد كذلك...

وفـوق كومـة مـن مسـحوق السـمك المجفـف أطلـق الرجـل النـار على نفســه.

في تلـك الليلـة، كان جثـمان «هوراس» مسـجى فوق محفـة حيث يتم إعـداده للدفـن، في حـين جلسـت زوجتاه على السـلم المـؤدي إلى البيت وكل منهـما تطـوق الأخـرى بذراعهـا، فقـد كانـت المرأتـين صديقتـين لبعضهـما البعـض، إلى أن انتهـت مراسـم الجنـازة، فقامـت كل منهـما بضـم أبنائهـا إليهـا، ولم تعـد أي منهـما تتواصـل مـع الأخـرى مـن بعد ذلـك أبدًا.

أمـا «لي شـونج» فقـد ظـل قابعًـا كعادتـه خلف صنـدوق السـجائر، لكـن عينـاه البنيتـان كانتـا غائرتـين في حـزن صينـي هـادئ وقـور، سرمـدي. لقـد كان يـدرك تمامًـا أنـه مـا كان بيـده شـئ ليفعلـه لمنـع ماحـدث، لكنـه في قـرارة نفسـه تمنـى لو أنه قـد علم بـما ينتويـه الرجل، فلربـما اسـتطاع حينهـا أن يفعـل شـيئا. لقـد كان «لي» يملك مـن التفهم والشـفقة مـا يجعلـه عـلى قناعـة بأنـه مـا مـن أحـد لـه الحـق في أن يمنع إنسـان آخـر مـن إنهـاء حياته، لكنـه في نفـس الوقـت كان يؤمـن أنه، في بعـض الأحيـان، يمكـن لصديـق أن يتدخـل لإزالـة الأسـباب الدافعـة بصديقـه للإقـدام عـلى الانتحـار.

عـلى أيـة حـال فقـد تكفـل «لي» بتكاليـف جنـازة الرجـل، كـما قـام بإرسـال سـلة مـن المـؤن الغذائيـة إلى أسرتيـه.

الآن بـات «لي شـونج» يملـك منزل «آبيفيـل» ذو السـقف والأرض الجيدتـين، ونافذتـين، وبـاب؛ صحيـح أنـه لايـزال ملـئ بأكـوام مـن

مسحوق السمك المجفف ذو الرائحة النفاذة، إلا أن « لي» قد ارتأى أنه من الممكن استخدام المكان كمخزن لبضائعه، لكنه سرعان ما تراجع عن تلك الفكرة، فقد كان المبنى بعيدًا، كما كان من الممكن لأي من كان أن يقتحمه بسهولة ودون عناء عبر واحدة من نافذتيه...

كان «لي» شاردًا يفكر في تلك المعضلة وقد أخذ يدق بخاتمه الذهبي فوق الغطاء المطاطي للصندوق الزجاجي، حين انفتح باب الدكان ودخل «ماك»...

كان» ماك «هذا هو القائد والرجل الأول لعصبة صغيرة من الرجال جمعتهم معًا ظروف مشتركة تتمثل في كونهم بلا عائلات ولا مال ولا آمال أو طموحات سوى الحصول على الطعام والشراب... والسكينة، تلك التي يفني معظم الناس أعمارهم بحثاً عنها، فلا يجنون شيئاً سوى تدمير أنفسهم والسقوط دون أن يبلغوا غايتهم المنشودة ؛ لكن أن «ماك» ورفاقه قد استطاعوا بشكل أو بآخر تلمس طريقهم نحوها، والاستمتاع بها في رفق وتروي.

كان «ماك» أكبر رفقائه سنا، وكان هو و «هازل»، ذلك الشاب شديد البأس، و « إيدي « الذي يعمل في بار «لا إيدا »، و «هوجي» و» جونز» اللذان يعملان أحيانا في جمع الضفادع والقطط لصالح المختبر البيولوجي، جميعا يعيشون في أوقات الشتاء والطقس القارس، في تلك الأنابيب الضخمة الصدئة الكائنة بجوار دكان «لي»، أما في أوقات الصحو فكانوا يأوون إلى ظلال شجرة السرو السوداء في أعلى الساحة، حيث يضطجعون أسفل الغصون الملتفة

الوارفة، يراقبون وتيرة الحياة الدائرة في شارع السردين المعلب.

توتر» لي شونج « وتقلصت أطرافه بعض الشئ بمجرد دخول الفتى إلى الدكان، وأخذ يطوف بعينيه سريعًا في أركان دكانه ليتأكد من أن أي من» إيدي « أو» هازل « أو باقي العصبة لم ينسرب إلى الداخل بين البضائع. فبادره» ماك « بالقول مباشرة في صراحة ودون موارية : (لي، لقد نما إلى علمي أنا وباقي الرفاق أنك قد بت تملك منزل آبيفيل) فأومأ» لي» برأسه، فاسترسل الفتى : ( لقد فكرت ورفاقي في أن نعرض عليك أن ننتقل للعيش هناك، وسوف نقوم بحراسة المكان لك، ونحفظه من أي ضرر، فكما تعلم قد يتسبب الأطفال أحياناً في تحطم النوافذ أثناء اللعب، أو ربما ينشب حريق بالمنزل، إن لم يكن أحد ليحرسه )

أرجع «لي» رأسه إلى الوراء كعادته، وحدّق عبر عويناته في عيني «ماك»، وقد خفتت حركة أصابعه، حيث أخذ يفكر مليًّا في العرض المُقدم له... كانت عينا» ماك « تشيان بالود والمحبة، ومع ذلك لم يكن» لي» يشعر بالارتياح تجاه ذلك العرض، وتساءل في قرارته عن سبب ذلك الشعور!.. كان يشعر وكأنه محاصر بشكل أو بآخر ؛ لقد عرض عليه الفتى ماعرض في مودة ولطف، إلَّا أن عقله قد أخذ يثب - كقط يتخذ سبيله بين الأشواك - عبر الإحتمالات، وقد تباطأت حركة أصابعه أكثر فأكثر مع استغراقه في التفكير، وأخذت مخيلته تصور له ماقد يقع من سيناريوهات.... فتخيل نفسه وهو يرفض عرض الفتية، ثم يفاجأ بعد فترة بزجاج نوافذ المبنى وقد تحطمت جميعها، فيأتيه «ماك» مرة ثانية يعرض عليه حراسة العقار،

فيرفض هو من جديد، ويذهب الفتى خالي الوفاض، ليجد «لي» نفسه بعد حين وقد التهمت ألسنة النيران جدران المبنى وتصاعدت أدخنة الحريق حتى وصلت إليه لتزكم أنفه، وهنا يسارع « ماك» وعصبته لتقديم يد العون وإخماد النيران... لقد أسقط في يد «لي» وعلم أنه ما من حل أمامه سوى قبول العرض، ولم يعد في يده شئ الآن سوى محاولة إنقاذ ماء وجهه وإبرام الصفقة مع «ماك» بشكل يحفظ له كرامته، فاسترخت راحته فوق الغطاء المطاطي وقال أخيرًا : ( حسنًا، تريدون تأجير المنزل إذن؟) فافتر ثغر الفتى عن ابتسامة عريضة وصاح في كرم : ( هذه فكرة جيدة، بالطبع، كم تريد إذن؟) فأخذ «لي» يفكر لبرهة في المبلغ الذي سيطلبه كإيجار للمبنى، وإن كان يدرك تمامًا أنه في كل الأحوال لن يتحصّل على سنت واحد منه، إنما قد أراد فقط أن يجعل الصفقة تبدو حقيقية حفظًا لكرامته ليس إلَّا، لذا فقد قال بعد فترة من الصمت : ( خمسة دولارات أسبوعيًّا)

فأجابه «ماك»، متخذًا دوره هو الآخر في تلك التمثيلية : ( سوف أشاور رفاقي في الأمر... ألا يمكنك أن تخفض المبلغ قليلاً، إلى أربعة دولارات بدلاً من خمسة؟)

(خمسة دولارات)قالها» لي» في حزم مصطنع.

( حسنًا، سوف أطرح الأمر على أصدقائي)

وهكذا، تمت الصفقة برضا الطرفين. بالرغم من كونها تبدو كتسوية خاسرة تمامًا وفي غير صالح «لي»، إلَّا أنه لم يكن ير الأمر على هذا النحو، فعلى الأقل قد ضمن أن يبقى المبنى سليمًا دون أن

تتحطم نوافذه أو تأكل النيران جدرانه، أما بالنسبة لمبلغ الإيجار الذي كان يعلم تمامًا بأنه لن يحصل على شيء منه، فإن «لي» لم يجد غضاضة في ذلك، فقد كان مطمئنًا كل الاطمئنان أن هؤلاء الشباب وقتما يتحصلون على أموال - وكثيرًا ماكانوا يجنون بعضًا منها - فإنهم لن ينفقونها في أي مكان آخر سوى دكانه هو.

كذلك أدرك الرجل بعقليته العملية أنه بإمكانه الاستفادة من هؤلاء الشباب، فمن ناحية يمكنه أن يجعل منهم عونًا له في حالات الطوارئ، فإن حدث واقتحم أحد السكارى دكانه عليه وبدأ في إثارة المشاكل، أو إذا تجمّع عدد من الصبية وحاولوا سرقة أي شيء من بضائعه، فليس عليه حينها سوى استدعاء مستأجريه الجُدد الذين سيهبوا بكل تأكيد لحمايته والزود عن تجارته..

ومن ناحية أخرى، كان «لي» يؤمن أنه ما من أحد يمكن أن تمتد يده بالسرقة ممن يحسن إليه، ومن ثم فقد آمن شر هؤلاء بإبرامه لتلك الصفقة معهم وضمن ألّا يقوموا يومًا بسرقته. وبهذا يكون ما حققه الرجل من منافع من وراء هؤلاء الشباب، وما حفظه من بضائع كان يمكن أن تتم سرقتها، قد فاق قيمة الإيجار الذي لن يحصل عليه.

وانتقل الشباب إلى بيت آبيفيل، وقاموا بتنظيفه والتخلص من أكوام مسحوق السمك المجفف التي ظلت به لأعوام... ومنذ ذلك الحين تغير اسم المنزل ليصبح « قصر فلوبهاوس وجريل»، ولا أحد يعلم حتى الآن من الذي أطلق عليه ذلك الاسم.

أيـام كان هـؤلاء الفتيـة يحيـون في الأنابيـب الصدئـة وتحـت ظـلال شـجرة الـسرو، ماكانـوا حينها في حاجـة إلى أثـاث، وما كان ثمة متسـع في تلـك الأنابيـب لأي نـوع مـن الأثـاث والمفروشـات وغـير ذلك من ضرورات المعيشـة والتـي تميـز حضارتنـا بـل تمثـل الحـدود الفاصلـة لهـا... أمـا الآن، بعدمـا اتخـذوا مـن «قـصر فلوبهـاوس» مسـكنا لهـم، فقـد شرعوا يؤسسـونه للمعيشـة ويمـلأون جنباتـه بالأثـاث والفرش، فكـرسي هنـا، وسرير هنـاك، ومـن إحدى مخـازن الخـردوات حصلوا - بطريقـة مـا - عـلى علبة من الطـلاء الأحمر، فـما إن يتحصلوا عـلى طاولة أو يقـع بـين أيديهـم مقعد منخفـض، حتـى كانـوا يسـارعون بطلائهم، فتسـتعيد قطعـة الأثاث رونقهـا من ناحيـة، ويختفي شـكلها الأصلي من ناحيـة أخـرى، حتـى إذا تصـادف ووقعـت عينـا مالكها الأصـلي عليها بعـد فـترة فإنـه لا يسـتطيع تمييزها بأيـة حال.

وبعـد حين، صار «قـصر فلوبهاوس وجريـل» مكانًا للسـكنى المريحة لهـؤلاء الفتيـة، حيـث يجلسـون أمـام بابـه، يراقبـون سـير الحيـاة، عـبر خـط القطـار، والسـاحة، والشـارع، وحتـى النوافـذ الأماميـة للمختبر البيولوجـي الغـربي، تتناهـى إلى آذانهم أصـداء الموسـيقى المتصاعدة منه آنـاء الليـل، وتتتبـع عيونهـم «دوك» إن غـدا أو راح إلى ومـن دكان «لي» حيـث يبتـاع الجعـة، فيقـول «مـاك» : ( هـذا الفتى، دوك، إنه شـخص طيـب، علينـا أن نفعـل شـيئا من أجلـه...)

***

# -٢-

الكلمة... هي رمز.. هي بهجة... إنها تمتص البشر والموجودات والأشجار.. النباتات.. المصانع.. الصينيين..، وحينها تصبح المادة كلمة، ثم تعود الكلمة مادة من جديد، لكنها ليست كأي مادة، بل مادة تحوّرت وتشكلت، فعادت في طراز غريب عجيب. وقد امتصت الكلمة شارع السردين المعلب، فهضمته، ثم لفظته، فعاد الشارع وقد اكتسب بريق العالم الأخضر، والبحار التي تعكس زرقة السماء...

لم يكن «لي شونج» مجرد بقال صيني، بل هو أكثر من ذلك، ربما هو الشر وقد وازنه الخير وكبح جماحه، ككوكب آسيوي يمسكه «لاو تسي» (*)ليبقيه في فلكه، فتجره ماكينة المبيعات والعداد اليدوي والحسابات والأرقام بعيدًا عن مداره؛ وهكذا يبقى «لي شونج» متأرجحًا بين بضائعه وأطيافه ... إنه رجل صارم صعب المراس في

* - لاو تسي : فيلسوف صيني قديم وشخصية محورية في الديانة الطاوية، كما أنه من الشخصيات الهامة في الحضارة الصينية. ولد في ٦٠٤ ق.م على الأرجح، و ينسب إليه كتابة العمل الأهم في الطاوية ألا وهو «تاو تي تشينغ»؛ ويعتقد العديد من المؤرّخين أنه شخصية خيالية أو أنه يرمز لمزيج من عدة شخصيات مختلفة «المترجمة».

تجارته وحساباته، لكنه، حين يتعلق الأمر بذكرى أجداده وعظامهم، فإنه ما يلبث أن يتحول إلى إنسان رقيق القلب لين العريكة، فقد نبش القبور يومًا في الصين حتى عثر على عِظام جده الصفراء وجمجمته ذات الشعر الأشيب الشبيه بالحبال والذي كان لايزال ملتصقًا بها، فاستخرج «لي» العظام، ووضع الجمجمة بعناية في وسط صندوق ثم أحاطها بعظام الحوض والترقوة، وعلى الجانبين وضع الضلوع بحرص، ثم أرسل الصندوق عبر البحر الغربي كي ترقد عظام جده بسلام في مقبرة لطالما قدسها أسلافه.

وكان «ماك» وعصبته هم أيضًا يدورون في أفلاكهم... إنهم الفضيلة والنعمة والجمال وسط مفاسد مونتيري وقبحها، وعالمها المجنون الذي قد يفسد المرء فيه معدته في كفاحه للحصول على الطعام، ويدمر كل ما هو محبوب لديه في سعيه وراء الحب..

كان «ماك» ورفاقه هم حقًا الفضيلة والجمال، في عالم تحكمه الضواري ذات قرح المعدة، وتديره الثيران الهائجة، وينظفه أبناء آوى فاقدي البصر؛ وفي وسط كل ذلك كان هؤلاء الفتية يأكلون مع الضواري، ويلاطفون الثيران، ثم يجمعون الفتات ليطعموا نوارس شارع السردين المعلب.

هكذا هي مونتيري، وهكذا هم «ماك» وفتيته.... فماذا يجني المرء لو أنه امتلك العالم بما فيه، ثم أتى ملكه بمعدة متقرحة وبروستاتا متضخمة وضعف شديد في النظر؟!. لقد نجح «ماك» وأصدقائه في تجنب السقوط في شرك مونتيري المميت، وساروا حول بئر السموم

المهلـك، وأخـذوا يتلمسـون طريقهـم فـوق الحبـال كيـلا يسـقطوا في الهاويـة، في حين شـخصت إليهـم أبصـار الهالكين ممن سـقطوا في شراك مونتـيري واغترفـوا من بئر سـمها الزعـاف، ومن حناجرهـم تصاعدت الصيحـات ينعتـون الفتيـة بـالأشرار واللصـوص.. الفاشـلين... من لا خـير يرتجـى فيهـم ولا أمـل... المحتالـين... الأفاقـين ، ويوصمونهـم بأنهـم عار عـلى البلـدة متنطعـين بـين جنباتها...

والحـق أقـول، إن الـرب أبانـا، مبـدع الطبيعـة وخالـق الكـون، مـن منـح هبـة الحيـاة للذئـب والفـأر والذبابـة والعثـة وعصفـور الـدوري، ليكـن حبًـا عارمًـا عظيمًا لهـؤلاء الفتيـة الأشرار المتنطعين الذيـن هم عار عـلى البلـدة... إنهـم فضائـل الـرب أبانـا، ونعمه.

***

# -٣-

يقع دكان «لي شونج» على الجانب الأيمن من الساحة الخاوية!، ولا يعلم أحد حتى الآن لم يطلق عليها خاوية بالرغم من كونها مكدسة بالمراجل القديمة والأنابيب الصدئة وركام الأخشاب الضخمة والصفائح التي تسع الواحدة منها مايصل إلى خمسة جالونات من السوائل؛ وخلف الساحة الخاوية يمتد خط القطار و»قصر فلوبهاوس « . أما على الجانب الأيسر فيقع بيت» دورا فلود» للبغاء، وهو عبارة عن بيت للهو ، نظيف قديم الطراز، حيث يمكن للرجل احتساء كأس من الجعة بين رفاقه... إنه ليس كتلك المواخير الرخيصة الحقيرة، بل هو ناد ليلي راق، أنشأته وتشرف عليه «دورا فلود» ذات الخمسين عامًا، التي استطاعت أن تحوز، بلباقتها وأمانتها وخبرتها الواقعية، ثقة واحترام زبائنها المرموقين، وكذلك بغض وكراهية الزوجات الفاسقات المنحرفات، اللائي يكن أزواجهن الاحترام لبيت الزوجية لكنهم لايحبونه حقًا.

كانت «دورا» امرأة مهيبة ضخمة، ذات شعر برتقالي متوهج، ترتدي في سهراتها دومًا أثواب مسائية خضراء مائلة للزرقة.

لطالما أدارت «دورا» أعمالها الخاصة بأمانة وإخلاص، فلم تكن تسمح أبدًا ببيع المشروبات الروحية الرخيصة شديدة الإسكار، وماكانت تبيح، بأي شكل من الأشكال، الأصوات الصاخبة أو الأحاديث المبتذلة ببيتها...

أما البنات اللائي كن يعملن في بيتها، فكان منهن من تقدم بهن السن وزحف الوهن والعجز على أجسادهن، حتى بتن بلا جدوى حقيقية، إلا أن «دورا» لم تكن لتطردهن أو تتخل عنهن، ولم تكن لتمنع عنهن قوت يومهن في بيتها أو تحرم واحدة منهن أي من الوجبات اليومية الثلاث، على الرغم من أن بعضهن ماعاد بمقدورهن حتى إغواء ثلاثة رجال على مدار الشهر بأكمله، على حد وصفها.

وفي إحدى الأيام، في لحظة ما، قررت «دورا» إطلاق اسم «مطعم بيير فلاج» على بيتها الذي يعمل به عادة اثنتي عشر فتاة - بما فيهن العجائز منهن- وطاه يوناني، بالإضافة إلى رجل يدعى «ألفرد» يقوم بدور الحارس للمكان، لكنه في حقيقة الأمر كان يتولى عدد من المهام الأخرى الأكثر دقة وخطورة، فقد كان مسؤولاً عن فض المشاجرات التي تنشب في البيت بين الحين والآخر، ويطرد السكارى المشاغبين، كما كان يعمل في البار أحيانًا، إضافة لقيامه بتضميد الجراح وآثار الجروح الناتجة عن المشاجرات... وخلال النهار كان الرجل يمضي الساعات مع رجال الشرطة، أما في صباحات أيام الأحد فقد كان «ألفرد» يتولى مهمة تلاوة أجزاء من كتاب «العلم والصحة» على فتيات البيت المؤمنات منهن بحركة «العلم المسيحي» (*).

* - العلم المسيحي Christian Science: هي مجموعة من المعتقدات والممارسات أسستها

لقد كان سلف «ألفرد» في العمل رجلا أقل اتزانا وحنكة، وقد آل به المآل إلى نهاية شنيعة سيأتي ذكرها لاحقا؛ أما هو - أي «ألفرد»- فقد استطاع أن ينتصر على محيطه، ويروضه، حتى تمكن من الارتقاء به، وكان لديه من البصيرة ما يخوله للتمييز بين الرجال، فكان يعرف جيدًا من منهم يمكن أن يبقى ببيت «دورا» ومن منهم يجب أن يتم التخلص منه.... وفي حقيقة الأمر، كان «ألفرد» هذا كان يعلم من الأسرار والحكايا عن حياة مواطني مونتيري وبيوتهم ما يفوق أي شخص آخر.

لطالما كانت «دورا» تحيا على حافة الخطر، فقد كانت تدير أعمالاً مخالفة للقانون، أو لنقل أنها مخالفة لنصوصه الرسمية!، ولهذا كان لزامًا عليها أن تخضع له في المقابل ضعف ما يفعل الإنسان العادي، من هنا، كان محرمًا عليها أن يبقى ثمة سكارى في بيتها، أو أن تشتعل شجارات به، وما كان ليسمح بأي شكل من أشكال الابتذال

---

**وطورتها في القرن التاسع عشر امرأة تدعى ماري بيكر إدي (١٨٢١-١٩١٠) بالولايات المتحدة الأمريكية، وتحدثت عنها لأول مرة في كتابها» العلم والصحة» (١٨٧٥)،وهو يُعدُّ بالنسبة للمؤمنين بتلك المعتقدات بمثابة نص ديني مرتبط بالكتاب المقدس.**
**وقد قامت إدي بتأسيس «كنيسة المسيح الأولى، العالم» في بوسطن، حيث تؤمن تلك الكنيسة، كغيرها من الكنائس المسيحية، بالعلم الإلهي المطلق وبسلطة الكتاب المقدس، وتعتبر صلب وموت وقيامة يسوع المسيح كأساس لخلاص البشرية. ولكنها تخالف المسيحية التقليدية بإيمانها أن المسيح هو كائن سماوي روحي لكنه غير إلهي، وأيضًا باعتبارها الخليقة على أنها وجود روحي كلي. كذلك تقول بأن الخطيئة تنفي وتقاوم سيادة الله على العالم وتشوه حقيقة أن الله هو مصدر الحياة، لذلك فإن علاج الأمراض بطريقة روحية يمثل عنصراً أساسياً للخلاص من الجسد، كما أنه من الممارسات الأكثر أهمية بالنسبة لتلك الكنيسة؛ بناءً عليه يرفض معظم أتباع هذه الكنيسة التدخل الطبي في الشفاء من الأمراض. جدير بالذكر أن الكثيرين يعتبرون تلك الطائفة بمثابة بدعة غير مسيحية (المترجمة) .**

بين جدرانه، وإلّا صار بيتها معرضًا للإغلاق. في نفس الوقت، كان على «دورا» أن تدفع مقابلاً لممارستها نشاطها غير المشروع، ولم يكن أمامها من سبيل إلى ذلك سوى أن تتخذ من البر والإحسان وسيلة لدفع مايتوجب عليها دفعه وهي صاغرة... فإن أراد رجال الشرطة إقامة حفل راقص للاحتفاء بتقاعد أحدهم، وبدأوا في جمع مساهمات إقامة الحفل بقيمة دولار واحد من كل فرد، كان لزامًا على «دورا» أن تشارك هي بخمسين دولار؛ وحينما قررت غرفة التجارة تجديد حديقتها، قام كل عضو بدفع خمسة دولارات، إلا «دورا»، فقد طالبتها الغرفة بدفع مائة دولار كاملة، وقد أذعنت... وهكذا، قس على ذلك كل شئ آخر، تبرعات للصليب الأحمر، للإسعاف، للكشافة،.... إلخ. باختصار، كانت» دورا « تدفع ثمن الخطيئة في شكل قائمة من التبرعات.

إلّا أن الوضع قد اشتد، وضاق بـ» دورا « الحال خلال فترة الكساد، فبالإضافة إلى» أعمال الخير والإحسان»و» التبرعات « المعتادة!، بات على كاهل» دورا «أيضًا أن تسد رمق أطفال شارع السردين المعلب الجائعين ، وأن تساند آبائهم العاطلين، وتدعم النساء المرتعبات، فكانت تسدد أثمان فواتير البقالة هنا وهناك، لهذا وذاك، على مدار عامين كاملين، حتى باتت على شفا الإفلاس.

أما بالنسبة لفتيات» دورا « فقد كن كما هن دومًا، مبهجات، يجدن عملهن، وقد تدربن جيدًا على حسن التصرف، حتى أن الواحدة منهن كانت لا تتحدث أبدًا إلى أي رجل في الشارع، أيًّا كان، حتى وإن كان قد قضى ليلته السابقة معها.

قبل أن يتولى» ألفرد «، الحارس الحالي، مهام عمله، كان مطعم» بيير فلاج»، بيت دورا، قد شهد حادثا مأساويًا أحزن الجميع... فقد كان للبيت حارس سابق، داكن الوجه، تبدو عليه أمارات الوحدة والضجر، يدعى « ويليام». في أوقات النهار، حيث يقل العمل ويتسع وقت الفراغ، كان «ويليام» كثيرًا ما يمل من صحبة فتيات «دورا» وأحاديثهن، فيخرج إلى النوافذ حيث يطالع الحياة خارج جدران البيت، ومن النافذة كان يشاهد «ماك» وصحبته وهم جالسين فوق الأنابيب الصدئة بالساحة، يزكون أوقاتهم بتجاذب أطراف الحديث المسلي، وأقدامهم تتدلى بين العشب، مستمتعين بأشعة الشمس والفراغ، وبين الحين والآخر، يتناولون واحدة من زجاجات ذلك المشروب «أولد تينيسي» / » أولد تينيس شوز»، فيمسحون فوهتها بأكمامهم ثم يعبون منها جرعات الشراب ويمررونها فيما بينهم...

ومع مرور الأيام، بات «ويليام» يتمنى لو استطاع الانضمام لتلك الرفقة والاستمتاع بحياته ؛ وفي إحدى الأيام نزل الفتى إلى الشارع وعبر الساحة إلى حيث مجلسهم، ثم دنى منهم رويدًا، إلى أن جلس فوق إحدى الأنابيب على مقربة منهم، فتوقف الحديث وصمت الفتية تمامًا في تململ، وقد تبدى نوع من العدائية والبغض في أعينهم تجاه «ويليام»، فما كان منه إلَّا أن انسحب عائدًا أدراجه من حيث جاء، وقد اعتمل الحزن في قلبه؛ ومن النافذة رآهم وقد عادوا لما كانوا عليه، يتبادلون الأحاديث فيما بينهم بأريحية، فازداد غمًا واعترى وجهه القبيح وفمه الملتوي مزيد من الألم.

وفي اليوم التالي، قرّر ويليام تكرار المحاولة، لكنه لم يذهب خالي الوفاض تلك المرة، وإنما اصطحب معه زجاجة من الويسكي؛ وهذه المرة تجاوب « ماك» ورفاقه معه إلى حد ما، وشربوا من الزجاجة التي أتاهم بها، فهم، رغم كل شيء، لم يكونوا من الجنون بحيث يرفضوا قنينة من الويسكي، إلّا أن حديثهم معه كان مقتضبًا مبتسرًا، لم يتجاوز بضع عبارات من نوعية «حظ سعيد» و « اعتن بنفسك» وما إلى ذلك، فقط لاغير.

وبعد حين، عاد «ويليام» إلى بيت «دورا»، ومن النافذة، تناهى إلى مسامعه صوت» ماك « وهو يصيح : ( اللعنة... إنني أكره ذلك القواد )..

لقد اتضح الآن أن ذلك لم يكن صحيحًا، وان الأمر لا يتعلق مطلقًا بعمل ويليام في بيت دورا وإنما يتعلق فقط بالقبول الشخصي، إلّا أنه لم يعرف ذلك قط، ولم يدرك أن كل ما في الأمر أن الفتية لم يحبوه هو ذاته ولم يشعروا بالألفة نحوه. انفطر قلب «ويليام» تمامًا، لقد لفظه هؤلاء المتنطعون وازدروه، وترفعوا حتى عن أن ينضم إلى مجلسهم معتبرين إياه شخص أقل منهم شأنا و أحط منزلة..

لطالما كان «ويليام» انطوائيًا متشرنقاً حول ذاته، وحينما تعرض لذلك الموقف المهين، لم يجد أمامه سوى أن يعتمر قبعته وينطلق هائمًا على وجهه إلى حيث شاطئ البحر، حتى وصل إلى الفنار؛ وهناك، حيث توجد مقبرة صغيرة جميلة يمكن للمرء أن يسمع من موقعها صوت تلاطم الأمواج، وقف الفتى والأفكار السوداء تتلاطم هي

الأخرى في عقله، وقلبه يتمزق من الألم.... لا أحد يحبه... لا أحد يكترث لأمره... إنهم يطلقون عليه «حارس» - هكذا طفق يقول لنفسه- لكنه في حقيقة الأمر ليس كذلك، وإنما هو قواد، مجرد قواد قذر، أحط ما في هذا العالم. ثم إنه أخذ يفكر كيف أن له الحق في الحياة والسعادة، كأي إنسان آخر خلقه الإله، فعاد أدراجه وقد اعتمل في قلبه الغضب، إلّا أن غضبه هذا سرعان ما تلاشى بمجرد وصوله إلى بيت دورا.

كان المساء قد حل، وفي داخل البيت كانت أغنية «قمر الحصاد» تصدح نغماتها منبعثة من الفونوغراف.... وتذكر «ويليام» أول فتاة هوى عرفها في حياته، والتي استطاعت اصطياد قلبه وامتلاك مشاعره، قبل أن تتزوج وتختفي إلى الأبد؛ لقد كانت تحب تلك الأغنية كثيرًا... تلك الأغنية التي زادته حزنا فوق حزنه بمجرد سماعه لنغماتها.

وكانت «دورا» هناك، تقف في الردهة تحتسي فنجانا من الشاي، حينما دخل عليها ويليام، فنظرت إليه مليًا قبل أن تسأله : ( ما الأمر؟ هل انت مريض؟)

( لا)أجاب ويليام ( ولكن، ماذا يهم؟ إنني أشعر بأني وضيع حقير ولا أجد لاستمرار حياتي جدوى... أظن أن الوقت قد حان لأنهي حياتي)

كانت دورا قد رأت على مدار حياتها الكثير ممن يعانون من أزمات نفسية ونوبات عصبية، ولطالما كانت تسخر منهم، لذا فقد

جاء ردها على ما سمعته للتو من ويليام ساخرًا هازئا : ( حسنا، فلتفعل مايحلو لك ولكن في وقت فراغك، لكن حذار من أن تحدث أي فوضى ها هنا أو تلطخ المكان من حولك)

لقد جاء ردها اللاذع ليزيد من بؤس ويليام ويكثف مزيدًا من سحب الأحزان فوق قلبه المنفطر، فانسحب من أمام مخدومته بهدوء واتجه إلى حيث واحدة من الغرف ليطرق الباب على «إيفا فلاناجان»، الفتاة المتدينة ذات الشعر الأحمر... كانت إيفا فتاة تقية حقا، لها عدد كبير من الإخوة والأخوات، لكنها كذلك كانت سكيرة لا تكف عن معاقرة الخمر.

حينما دخل ويليام إلى الغرفة كانت إيفا جالسة تحاول طلاء أظفارها، لكنها لم تفلح وتلطخت أصابعها تمامًا. كان ويليام يعرف أن الفتاة حامل وأن دورا ما كانت لتسمح لفتاة حامل بالعمل... في تلك اللحظة كانت الفتاة تتميز غيظا بسبب تلطيخها لأصابعها، وحينما التفتت لتجد ويليام واقفا، سألته في نبرة حادة ( ماذا بك؟) فأجابها بسرعة وقد عاودته نوبة الغضب : ( لقد قررت أن أقتل نفسي )

فما إن سمعت الفتاة ذلك حتى نهرته : (إن ذلك لخطيئة قذرة حقيرة... لكنها لن تكون في حقارتك إذ تأتي لتعلن لي عن رغبتك في الموت في الوقت الذي تمكنت فيه تقريبًا أن أدبر الرحلة التي تاقت إليها نفسي طويلا إلى شرق سانت لويس...)

لم ينتظر ويليام لسماع المزيد، فخرج من غرفتها مسرعًا وقد صفق الباب خلفه، وهي بعد لاتزال ترغي وتزبد... لقد ضاق ذرعًا بالنساء ولم يعد يحتمل أكثر؛ فانطلق إلى المطبخ حيث الطاهي اليوناني هناك، علّه يجد لديه آذان مصغية...

كان الطاهي منهمكاً في عمله بالمطبخ، مرتديًا مئزره الكبير وقد شمر أكمام ردائه عن ساعديه، ووقف يقلي شرائح من لحم الخنزير في مقلاتين كبيرتين ويقلبها مرارًا كي تنضج؛ فما إن رأى ويليام حتى صاح مرحبا : (أهلا كيتس، كيف حالك؟)

( لا أعرف يا لو... أحيانا أشعر أن أفضل شئ يمكن أن أفعله هو أن أضع نهاية لحياتي)

قالها وهو يحرك إصبعه فوق حنجرته كعلامة للذبح.

وضع الطاهي الأداة التي يقلب بها اللحم فوق الموقد ثم شمر عن ذراعيه أكثر وهو يقول : ( سوف أخبرك بشئ أيها الفتى، لقد سمعت أن من يرددون مثل ذلك الكلام لا يقوموا بتنفيذه أبدًا)

صمت ويليام، ثم إنه مد يده ببطء ليلتقط الأداة التي كان الطاهي يقلب بها اللحم، فأمسك بها وهو يحدِّق في عيني الرجل اليوناني وقد طالع فيهما الاستهزاء وعدم التصديق أولًا، ثم الشك، فالاضطراب، إلى أن أطل القلق واضحًا من العينين الداكنتين للرجل وقد أدرك أن ويليام قد يفعلها حقا، بل إنه سوف يفعلها!... لقد رأى ويليام تلك التحولات جميعًا وعلم أن الطاهي قد تأكد الآن من أنه – أي ويليام – كان يعني مايقول فعلا...

وهنـا، أدرك ويليـام أن الوقـت قـد حـان، وأنـه قـد بـات عليـه أن ينهـي كل ذلـك السـخف؛ وفي لمـح البـصر ارتفعـت يـده بـالأداة الحادة ثـم هوى بهـا مسـددا طعنة نجـلاء إلى قلبـه.... لقد تم الأمر في سلاسـة مذهلة!...

وهكـذا، كان ويليـام هـو «حـارس» بيـت دورا، ثـم رحـل، وأتـى ألفـرد... ألفـرد المحبـوب مـن الجميـع، والمرحـب بـه دومًـا بـين مـاك ورفاقـه، حيـث يشـاركهم جلسـاتهم المرحـة فـوق الأنابيب وقتما شـاء، بـل إنـه أحيانـا مـاكان يزورهـم في منزلهـم في «قـصر فلوبهـاوس».

***

## -٤-

ذات مساء، عند الغسق، تحديدًا في الفترة ما بين غروب الشمس وحتى إضاءة مصباح الشارع، وقع حادث مثير في شارع السردين المعلب...

فمن ناحية التل، عبر «قصر فلوبهاوس»، وحظيرة الدجاج، ثم الساحة الخاوية، جاء رجل صيني عجوز، يعتمر قبعة مسطحة من القش ويرتدي بنطالاً ومعطفاً من الجينز الأزرق، وقد انتعل حذاءً ثقيلاً لم يحكم ربط إحدى فردتيه، فكانت تضرب الأرض بقوة محدثة صوتا مع كل خطوة يخطوها، ومن يده تتدلى سلة مغطاة من الخوص.

كان الرجل ذو وجه قاتم شاحب لونه، ذو ملامح متغضنة متشنجة، وعينان بنيتان داكنتان ،غائرتان ، لكأنهما حفرتين عميقتين تطلان على العالم من وجهه... لقد حلَّ الرجل مع حلول الغسق مجتازًا المسافة من التل، حتى عبر شارع السردين المعلب، ثم سلك طريقه عبر الفرجة الكائنة مابين المختبر البيولوجي الغربي ومصنع

«هيديوندو» لتعليب السردين، وصولاً إلى الساحل الصغير، حتى اختفى بين الدعامات المعدنية لرصيف الميناء، ولم يره أحد من تلك الساعة..... حتى الفجر!

ومع مطلع الفجر، في الفترة مابين انطفاء مصباح الشارع إلى قبيل شروق الشمس، تبدى الصيني العجوز من جديد، عائدًا أدراجه عبر الساحل، ثم إلى الشارع، وقد بدت سلته الخوصية المتدلية من يده ثقيلة مبللة قليلا، في حين أخذ حذاءه المفكوك يصفع الأرض مرة تلو الأخرى على طريق العودة حتى التل إلى حيث الشارع الثاني، قبل أن يختفي عن الأنظار ثانية عبر بوابة قائمة في سياج عال هناك، حتى حلول مساء جديد...

وقد استيقظ الناس في تلك الليلة على وقع خطواته الثقيلة، فمنهم من حسبه الرب، في حين ظن العجائز أنه الموت قد جاء يحصد روح أحدهم، أما الأطفال فقد اعتبروه مجرد عجوز صيني طريف.... لقد تكرر ذلك الأمر على مدار سنوات، إلّا أن أحدًا لم يألفه أو يعتاد عليه قط، حتى الأطفال الذين حسبوه عجوزًا ظريفاً، ماكانوا ليجرؤوا أبدًا على الاقتراب أو السخرية منه أو الصياح عليه كدأب الأطفال، فعلى الرغم من نظرتهم الطفولية الساذجة له إلّا أن سحابة الرهبة التي كانت تحوطه دومًا كانت تردعهم عن الإتيان بأي من تلك الأفعال.

صبي واحد فقط هو من جرؤ على فعل مالم يجرؤ أي من أقرانه من الصبية على التفكير فيه... صبي واحد شجاع جميل يُدعى «آندي» قد جرؤ على اعتراض طريق الصيني العجوز...

كان «آنـدي» صبيًّـا في العـاشرة مـن عمـره، جـاء مـن سـالیناس في زيـارة لمونتـيري، وقـد شـاهد الرجـل العجـوز وشـعر، كأي طفـل، بالرغبـة في مشـاغبته؛ ولكـن حتـى «آندي»، الجـرئ بطبيعته، قـد اعتراه الخـوف مـن الرجل. ظل الصبـي خلال فـترة إقامته في مونتـيري يراقب الصينـي العجـوز، ليلـة بعـد ليلـة، وفي داخلـه كان الـصراع مشـتعلاً ما بـين نزعتـه الطفوليـة في مشـاغبة الرجـل وبين رهبتـه ووجله منـه..، إلى أن تغلبـت طفولتـه المشاكسـة على خوفه . وفي إحدى المسـاءات، حسـم «آنـدي» أمـره، فانطلـق خلـف الصينـي وطفـق يغنـي بصوت عـال : ( شـينج شـونج ، رجـل صينـي يجلـس فـوق الإفريـز، إلى أن جـاء رجـل أبيـض وقطـع له ذيلـه...)

هنـا توقـف الرجـل العجوز، ثم اسـتدار نحـو «آندي» الـذي توقف بـدوره، وأخـذت عينـا الرجل القاتمتـين الغائرتين تحدقـان في الصبي، في حـين تحركـت شـفتاه الذابلتـان.... أمـا مـا حـدث بعـد ذلـك فهـو مالم يسـتطع «آندي» شرحـه ولا نسـيانه قط...

ففـي تلـك اللحظـة، اتسـعت عينـا الرجـل الصينـي، وانفرجـت، حتـى ابتلعـت كل ماحولهـا مـن موجـودات، حتـى الصبي نفسـه لم يعد موجـودًا، ثـم اسـتحالت العينـان إلى عـين واحـدة، عـين داكنـة هائلـة، ضخمـة كبوابـة كنيسـة.... وكان «آنـدي» لايـزال واقفًا هناك مشـدوهًا يحـدق في ذهـول عـبر تلك البوابـة اللامعـة الشـفافة، ومـن خلالها رأى أراض واسـعة تمتـد لأميـال لتنتهي عند سلسـلة من جبـال عجيبة، تتخذ أشـكال مـن رؤوس أبقـار وكلاب، وخيـام، ونبـات الفطـر... وعـبر

الأرض الممتدة تنتشر الأعشاب الجافة الخشنة، وهضاب صغيرة، هنا وهناك، على كل هضبة منها يقبع حيوان صغير....

كان المكان قفرًا موحشًا، وألفى آندي نفسه وحيدًا بين السهول الشاسعة، ومامن بشر غيره، فأغمض عينيه وهو يئن و ينشج في رعب ووحشة ، وحين فتح عينيه من جديد وجد نفسه كما كان، لايزال واقفا في شارع السردين المعلب، في حين استأنف الصيني العجوز مسيره المعتاد، مبتعدًا، عبر الفرجة بين المختبر البيولوجي الغربي ومصنع «هيديوندو»...

رحل الرجل وبقي» آندي «، ذلك الصبي الوحيد من بين كل الصبية، الذي جرؤ على تلك المواجهة.... لأول ولآخر مرة.

***

# -٥-

كان المختبر البيولوجي الغربي يقع عبر الشارع قبالة الساحة الخاوية، وعلى يمينه كان دكان «لي شونج»، في حين يقع بيت» دورا «على يساره. و كان نشاط ذلك المختبر يرتبط عادة بالسلع والحاجيات الغريبة والجميلة كذلك، حيث كان يتاجر في الكائنات البحرية بهية المنظر، كالإسفنج ونجوم البحر والأصداف وأزهار البحر والحلزونات الملوّنة، وقنافد البحر ذات الأشواك، وأنواع من سرطانات البحر وأسماك القريدس، وجراد البحر الشفاف؛ كذلك كان يبيع الخنافس والعناكب، والأفاعي ذات الجرس، والفئران، والنحل، و.... ولم تقتصر بضائع المختبر على تلك الكائنات فقط، بل كانت تشمل كذلك «أجنة بشرية»، سواء كاملة أم مجزأة إلى قطع تم وضعها على ألواح زجاجية؛ كما كان يوفر لطلاب المدارس بعض من أسماك القرش التي تم تفريغها من دمائها ثم ضخ كميات من سوائل صفراء وحمراء في عروقها وشرايينها، بحيث يتسنى للطالب تتبع مسار الدورة الدموية بسهولة، وكذلك الحال مع نماذج من القطط والضفادع المعالجة بنفس الكيفية.

باختصار، كان يمكن للمرء ببساطة أن يتحصل على أي كائن حي يريد من ذلك المختبر العجيب.

أما عن وصف المختبر نفسه، فهو عبارة عن مبنى منخفض يقع في مواجهة الشارع، يتألف الطابق الأرضي منه من مستودع مكدس بصنوف من الكائنات المحفوظة في أوان زجاجية تعج بها الأرفف الممتدة من الأرض وحتى السقف، بالإضافة إلى عدد من أدوات الحقن والتحنيط اللازمة لحفظ تلك الكائنات، وفي الأرض توجد بالوعة صغيرة للصرف. وإذا خرجت إلى الفناء الخلفي للطابق الأرضي، فسوف تجد صهاريج ضخمة لحفظ الكائنات البحرية الأكبر حجمًا كأسماك القرش والأخطبوط، كل منهم في صهريج منفصل.

أما في واجهة المبنى فيوجد سلم وباب يقود إلى مكتب ذو منضدة واحدة مغطاة بكومة عالية من الرسائل التي لم يتم فضها بعد، وأدراج لحفظ الملفات، إضافة إلى خزانة حديدية مفتوحة وقد تم تدعيم بابها كي لاينغلق سهوًا، ففي إحدى المرات انغلق باب الخزانة عن طريق الخطأ، ولم يكن أحد يملك أرقام فتح القفل، وكانت الخزانة تحتوي في ذلك اليوم على علبة سردين مفتوحة وقطعة من جبن الريكفورد، مما تسبب في تصاعد رائحة لاتطاق من داخلها، إلى أن أرسل صانع الأقفال توليفة الأرقام لفتحها؛ ومن تلك الواقعة تفتق ذهن «دوك» عن فكرة يمكن للمرء أن ينفذها إن أراد يومًا الانتقام من أحد البنوك، وذلك بأن يقوم باستئجار خزانة حديدية في البنك ثم يقوم بوضع سمكة سالمون كاملة وطازجة داخلها ويغلقها، ثم يختفي لمدة لا تقل عن ستة أشهر، تاركًا السمكة بالخزانة المقفلة داخل البنك!..

ومنذ تلك الواقعة، وعقب الانتهاء من مشكلة الخزانة، لم يعد يسمح بوضع الطعام بداخلها، وبدلاً من ذلك بات يتم حفظه في أدراج الملفات.

وفي خلف المكتب، تقع غرفة ممتلئة بأحواض تعج بصنوف وأشكال شتى من الحيوانات والكائنات، وكذلك عدد كبير من المجاهر والشرائح الزجاجية، وخزانات لحفظ العقاقير، وأخرى لحفظ أدوات المختبر، ومواد كيميائية، ومقاعد، وبعض الآلات الصغيرة؛ ومن تلك الغرفة كانت روائح الفورمالين ونجمات البحر المجففة واليود البحري والمنتول والكلوروفورم، والأحماض المختلفة، والحبال، والقش ، وأوراق التغليف، والجوارب الصوفية التي لم تجف بعد، والأحذية الطويلة، وروائح الجرذان الكريهة والأفاعي ذات الجرس..... تنبعث جميعًا، في مزيج عجيب يزكم الأنوف، كذلك كانت رائحة الملح البحري وأعشاب البحر تهب هي الأخرى عبر الباب الخلفي لتحتل مكانها في الهواء.

وإلى اليسار من المكتب يوجد باب يفضي إلى المكتبة، حيث تنتصب خزانات الكتب ممتدة إلى السقف، بالإضافة إلى عدد من الصناديق الممتلئة بالدفاتر والكتب في شتى المجالات، والمعاجم، والموسوعات، والمسرحيات ودواوين الشعر.

وقبالة الجدار كان فونوغرافا ضخمًا موضوع هناك، وإلى جانبه صف طويل من مئات من الأسطوانات، أما أسفل النافذة فيوجد سرير مصنوع من الخشب الأحمر ؛ وعلى الجدران وخزانات الكتب

انتشرت اللوحات المقلدة لأعمال دومييه وجراهام وتيتيان وليوناردو وبيكاسو ودالي و.... تم تثبيتها جميعًا بواسطة الدبابيس، هنا وهناك، في كل مكان على مستوى النظر بحيث يتسنى للرائي أن يطالعها وقتما شاء من أي موضع.

كذلك تحوي تلك الغرفة الصغيرة بين جنباتها عدد من الكراسي والمناضد، إضافة إلى السرير بالطبع. لقد سعت تلك الغرفة في وقت من الأوقات مايصل إلى أربعين شخص معًا.

ومن خلف المكتبة، أو غرفة الموسيقى - سمها ماشئت- يوجد المطبخ، وهو عبارة عن حجرة ضيقة ذات موقد غاز وسخان للمياه وكذلك بالوعة للصرف.

وفي حين تستخدم أدراج الملفات بالمكتب لحفظ الطعام، فإن عددًا من خزانات الكتب ذات الواجهات الزجاجية قد تم وضعها في المطبخ لأغراض حفظ الصحون والسمن والخضروات ومايلزم للطهي؛ والحقيقة أن ذلك الترتيب الغريب في وضع الأشياء لم يكن ناشئاً عن غرابة أطوار، وإنما تم ذلك بحكم الضرورة والحاجة، كيفما اتفق، ليس إلّا.

ومن سقف حجرة المطبخ، تدلت قطع من لحم الخنزير والمقانق وخيار البحر.

أما الحمام والمرحاض فإنهما يقعان خلف المطبخ مباشرة، وقد ظلّ الماء يتسرب من ماسورة المرحاض لمدة خمس سنوات كاملة إلى أن زار المختبر يومًا شخص ذكي قام بسد موضع التسرب مستخدمًا قطعة من العلكة!

كان «دوك» هـو صاحـب ذلـك المختـبر ومديـره....» دوك «، رجل ضئيـل الحجم هـو، لكـن لايغرنك مظهـره، فهو صلـب قـوي البنية إلى حـد بعيـد، وحين ينفعـل غضبًا فإنـه يمسي عنيف شـديد الشراسـة. أما عـن ملامحـه فهـي محـيرة حقا، فـلا تعرف أهـي ملامـح قديـس أم بغي، ووجهـه الملتحـي هـذا، أيحمـل عفـة المسـيح أم شـهوانية المعربديـن!... والحـق إنـه مزيـج مـن هـذا وذاك، إنـه لوجـه يعكـس حقيقـة صاحبـه كأوضـح مـا يكـون، فلكـم أنقـذ عديـد مـن الفتيـات مـن الوقـوع في المتاعـب، ولكـم ألقـى بعديـد منهـن فيها...

كانـت لـ»دوك « يـدا جـراح، وعقـل ذكـي نشـط، ونفـس مرهفـة، فكثـيرًا مـا شُـوهد إذ يمـر عـبر الشـارع، وهـو يمس طـرف قبعتـه تحية للـكلاب، فتتطلع تلـك إليه وقـد بدت عليها أمـارات الألفة والسـعادة ؛ إن» دوك « قـد يقـدم عـلى قتل أي كائـن كان إن اقتضـت الحاجة، لكنه مـا كان ليقـوى على إيـذاء المشـاعر بدافـع المتعة.

ولطالمـا عانـى دوك مـن خـوف مـرضي أرق حياتـه، إذ لم يكـن ليتحمـل بـأي صـورة مـن الصـور أن تسـقط قطـرة مـاء واحـدة فـوق رأسـه، لـذا تجـده دومًـا وقـد اعتمـر قبعـة مضـادة للـماء، شـتاءً كان أم صيفـاً، بـل إنـه قـد يخـوض وسـط المـاء حتـى صـدره دون خـوف أو انزعـاج، لكـن مـا إن تمـس رأسـه نقطـة واحـدة مـن المـاء حتـى تجـده وقـد اسـتحوذت عليـه نوبـة مـن الذعـر تلفـه مـن قمـة رأسـه حتـى أخمـص قدميـه.

عـلى مـر السـنين، تمكـن «دوك» مـن غـرس نفسـه وفـرض ذاتـه

بشارع السرديـن المعلـب، وقـد نجـح في ذلـك إلى درجـة لم يكـن هـو نفسـه يتوقعهـا. ومـع الوقـت بـات دوك يمثـل نبعًـا للفلسـفة والعلـوم والفنـون، فلكم اسـتمعت فتيـات «دورا» لألـوان من الموسـيقى والغناء في مختـبر دوك، لم يكـن قد سـمعناها من قبـل، ولكم أصغى «لي شـونج» لقصائـد «لي بـو» (*) تتـلى عـلى مسـامعه باللغـة الإنجليزية، أمـا «هنري» الرسـام فقـد سـمع عـن (كتـاب الموتـى) لأول مـرة في حياته هنـاك، في المختـبر، وقـد بـات مأخـوذا بـما سـمع لدرجـة أنه قـام فيـما بعـد بتغيير أدوات الرسـم التـي اعتـاد اسـتخدامها، وتحـول مـن اسـتخدام الغـراء وصـدأ الحديـد وريـش الدجـاج الملـون، إلى اسـتخدام أنـواع شـتى من قـشر الجـوز في لوحاتـه الأربـع التاليات.

لقـد كان دوك يمتلـك قدرة هائلة عـلى الإنصات لأي هـراء وتحويله إلى شـكل مـن أشـكال الحكمـة، كان عقلـه رحبًـا منفتحًـا بـلا حـدود تحـده، وكانـت عاطفتـه لامواربـة فيهـا. حتـى الأطفـال، إن هـو تحدث إليهـم، كان في مقـدوره أن يكلمهـم عـن أمـور عميقـة شـديدة التعقيد، فـلا يجـدون أي صعوبـة في فهمهـا وهضمها ببسـاطة.

لقـد كان عـالم «دوك» مليئـا بالأعاجيـب والإثـارة.... وكان هـو شـهوانيًا كأرنـب، لطيفًـا كالجحيـم... لم يعرفه أحـد إلّا وصـار مدينًا له بشـكل أو بآخـر، ولم يـك ليخطـر عـلى بـال إمـرئ إلّا وقـال ( عـلي أن

---

*** - لي بو : «لي باي» أو «لي تاي بو»، شاعر صيني من أشهر شعراء الصين القدماء، ولد في عام ٧٠١ وتوفي عام ٧٦٢ ميلادية. اشتهر بالقصائد الرومانسية التي تدور في معظمها حول الخمر والطبيعة، وقد كتب أكثر من ألف قصيدة.**
**ومن أشهر أعماله : أغنية العروس الحزينة - رحلة في جبل الجن - ممر سيتشوان؛ وقد ترجمت أعماله لأول مرة عام ١٨٦٢ على يد هارفي دوسان دوني. «المترجمة»**

أصنـع صنيعًـا طيبًـا مـن أجـل دوك )

## -٦-

اعتاد «دوك» أن يجمع الكائنات البحرية من «حوض المد البحري الكبير» عند حافة شبه الجزيرة... إنه مكان بديع بحق، ففي أوقات المد يفيض الحوض بالمياه وقد كللها الزبد، تدفعه الأمواج المتلاحقة دفعًا نحو الأعلى؛ حتى إذا جاء الجذر وانحسرت المياه مرتدة، عادت صفحة الحوض هادئة وبات البحر وادع رائق، كاشفًا عن أعماق خلاّبة وكائنات بحرية متنوعة، تتناحر سعيًا وراء الطعام. فتجد سرطانات البحر تندفع وسط الشعاب، ونجمات البحر تجسم فوق الحلزونات مزدوجة الأصداف وقد ألصقت ملايين الممصات بفريستها إلى أن تمزقها وتفسخ أوصالها، قبل أن تخرج معدتها لتلتهم ضحيتها بالكامل. في حين تنسل الرخويات البحرية البرتقالية والمرقطة عارية الخياشيم، عبر الصخور، وقد تماوجت زعانفها وتراقصت كأزياء الراقصات الإسبانيات؛ ومن بين الشقوق تطل أسماك الحنكليس برأسها في انتظار الفرائس....

عالم ملون بديع هو، يتبدى من خلف لجة الماء الشفيفة، حيث تعدو أسراب من كائنات السرطان الناسك فوق القاع الرملي،

كأطفال مهتاجين، حتى إذا عثر أحدها على صدفة فارغة، سارع في تهور، معرضًا نفسه للوقوع في براثن إحدى المفترسات، للدخول إلى تلك الصدفة!. وبين الحين والحين تأتي موجة من المياه فتعكر صفاء لجة الماء وتضطرب صورة القاع وتتكسر بالتماوجات والفقاقيع المائية، قبل أن تهدأ صفحة الماء وتعاود سكونها من جديد، فتطالع من أسفلها شقائق النعمان وقد تمددت كأزهار رقيقة زاهية، تغري الكائنات المتعبة من حولها بالاستكانة بين أحضانها والفوز بلحظات من الراحة بعد صراع طويل على الغذاء؛ حتى إذا ما انطلت الحيلة على واحدة من سرطانات البحر الصغيرة، أو انخدعت واحدة من الكائنات الأخرى بالمظهر البريء البهي للشعاب الخضراء والإرجوانية، فدنت واقتربت حتى ألقت بنفسها بين الشعاب، أطبقت الشقائق جوانبها عليها وغرست في اللحم البض إبرها اللاسعة تحقن بين خلايا فريستها مادة مخدرة سرعان ما توهنها، فتستكين، وتسكن، بلا حيلة، بين أحضان مصيرها النهائي، وتندفع الأحماض الهضمية لتذيب منها اللحم والعظم، فتفنى وتستحيل غذاءً لشقائق النعمان.

ومن أحد أركان القاع العجيب، ينسل ذلك الأخطبوط بخفة ونعومة، كغيمة رمادية، وكأنه حزمة من العشب البحري حينًا، وصخرة صماء حينًا، وقطعة من لحم متعفن حينًا آخر، في حين ترصد عيناه الخبيثتان الباردتان الموجودات من حوله.... إنه يقترب متسللاً بهدوء نحو إحدى سرطانات البحر المنهمكة في التقاط طعامها، ويزداد اقترابًا، رويدًا رويدًا، وعيناه الصفراوان تتقدان في

حماسة في حين تتدفق الرغبة في جسده فيستحيل ورديا حارا، ثم، وبدون سابق إنذار، يثب في خفة ورشاقة مذهلة، ووحشية ضارية، فوق ضحيته، ومنه ينبثق سائل أسود فوق سرطان البحر الذي يحاول جاهدًا الإفلات من مفترسه، فيلفى نفسه وقد غرق في عالم من اللون الأسود واختفى به وقد بدأ الأخطبوط في الإجهاز عليه.

وفوق سطح الماء كذلك، يعلن العالم البحري سيطرته على كل ما يحيطه، حيث الهواء المشبع بروائح اليود والكلس والبروتين وبيض الأسماك، وتحلل بقايا الكائنات الميتة، يملأ الأجواء حول الحوض؛ وعلى الصخور المكشوفة تلقي نجمات البحر بييضها. هاهنا، في ذلك المكان، تجد رائحة الحياة والخصب، الموت والهضم، التحلل والميلاد.... ومن عند الحاجز الصخري يندفع رذاذ الماء المالح، حيث المحيط ينتظر لحظة فيضانه ومده ليعود ويغمر الحوض البحري الكبير من جديد.

وفي ذلك الحوض البحري، كان «دوك» و « هازل» يعملان معًا على جمع الكائنات البحرية...

كان هازل يحيا في «قصر فلوبهاوس» مع «ماك» وباقي الفتية؛ وقد اكتسب الفتى اسمه هذا اعتباطًا، تمامًا مثلما كانت حياته وسنوات عمره التي عاشها كيفما اتفق، فقد أنجبت أمه سبعة أطفال في غضون ثماني سنوات، وكان «هازل» ثامنهم ، وقد كانت امرأة فقيرة لاتدخر جهدًا للحصول على ما يكفي لإطعام وكساء أبنائها وزوجها، وسلكت كل السُّبل من أجل ذلك، فمن صناعة الأزهار

الورقيـة، وزراعة نبـات الفطر بالمنـزل، إلى تربية الأرانب للاسـتفادة من لحمهـا وفرائهـا، في حـين يجلـس زوجهـا لا يبـارح مقعـده، ولا يقدم لها سـوى النصائـح والأفـكار. وكانت للمـرأة عمة ثرية ذات شـأن، يعرف الجميـع أنها تملـك وثيقة تأمـين قيّمة على الحيـاة، تدعى «هـازل»؛ وحين ولـد الطفـل، لم تتمكـن أمه مـن تحديد نوعـه ومـا إذا كان ذكـرًا أم أنثى، فأسـمته عـلى اسـم عمتـه، هـازل، قبـل أن تـدرك بعـد حين أنـه صبي، لكنهـا كانـت قـد اعتـادت على الاسـم فلـم تكلف نفسـها عنـاء تغييره.

قـضى هـازل السـنوات الأربـع الأولى من عمـره في مدرسـة ابتدائية، ثـم أربـع سـنوات أخـرى في إحـدى الإصلاحيـات، إلّا أن الصبـي لم يتعلـم شـيئاً من كلا المدرسـتين، على الرغـم من أن الإصلاحيـات تلقن أبنائهـا عـادة دروسًـا لا تنسـى في الإجـرام وتبـذر فيهـم بـذور الرذيلة، لكـن هـازل فيما يبـدو لم يكن يـولي انتباهـا لدروسـها، فخرج منهـا مثلما دخلهـا، بريئاً مـن الرذيلة والفسـاد.

ولطالمـا أحب هـازل الإصغـاء إلى الأحاديـث التي تدار أمامـه، لكنه لم يكـن يعـير انتباها للكلام ذاته بقدر ما كان شـغوفاً بـ» إيقاع « الحديث ونغمتـه، حتـى أنـه كثـيرًا مـاكان يطرح أسـئلة لا ليعـرف إجاباتهـا وإنما فقـط ليبقي على اسـتمرار الحديـث وتتابعه.

وهـا قـد صـار الفتـى في السادسـة والعشريـن مـن العمـر، وسـيم، فتـي، ذو شـعر داكـن، وروح مرحـة، ونفـس تتميـز بالوفاء. وكثـيرًا ما كان ينطلـق مـع» دوك « إلى حيـث الحـوض البحـري لينخرطا سـويًّا في جمـع صنوف وأشـكال مـن كائنات البحـر، وقـد كان الفتى يتقـن عمله

ويقـوم بـأداء مـا يُطلـب منـه عـلى وجـه الدقـة، حيـث يقـف هنـاك بين ميـاه الحـوض مثبتـا أقدامه بقـوة فـوق الصخـور الزلقة، في حين تنسـل أصابعـه بخفـة، كأذرع الأخطبـوط، لتقبض على الصيـد المطلوب ببراعة وقـوة كشـقائق النعـمان إذ تنقـض على فريسـتها.

كان الفتـى يحـب الصيـد حقـاً، وفي حـين يعتمـر دوك قبعتـه الواقيـة مـن المـاء وحذائـه المطاطـي الطويـل أثناء العمـل، كان هـازل يخوض في المـاء بأريحيـة، مرتديًـا حذائـه الريـاضي وبنطالـه من الجينـز الأزرق.

في إحـدى الأيـام، خـرج دوك وهـازل إلى الحوض ليجمعـا كمية من نجـمات البحـر، حيـث كان أحـد عمـلاء دوك يرغـب في ثلاثمائـة نجمة بحريـة، وأثنـاء انهماكهـما في مهمتهـما، قـال هـازل، وهو يـدس في جعبته المصنوعـة من الخيش نجمة بحرية جميلة مائل لونها إلى الأرجواني كان قد التقطهـا لتـوه مـن القاع : ( إنني لأتسـاءل، ترى ما الـذي يفعلونه بها؟ )

فسأله دوك بدوره : ( يفعلون بماذا؟)

( بنجـمات البحـر التـي تبيعهـا تلـك، ماالـذي سـيفعلونه بتلـك الكميـة؟ إنهـا غـير صالحـة لـلأكل)

( إنهـم يدرسـون تلـك الكائنات)قالها دوري تؤدة وصـبر، وقد تذكر أنـه سـبق وأجـاب هـازل على ذلـك السـؤال عـشرات المرات مـن قبل، ومـع ذلـك فهـو يجيبه مـع كل مـرة، حيـث لم يكن عقلـه بقادر أبـدًا على اسـتيعاب فكـرة أن أحـدًا يمكـن أن يطـرح سـؤالًا ما لأي غـرض آخر سـوى الرغبـة في معرفـة الإجابـة، فهـو عـن نفسـه لم يكـن ليتفـوه بـأي سـؤال إلّا لغـرض المعرفـة ليس إلّا.

أما هازل، الذي كان يتوق فقط لسماع الأحاديث ، فقد كان قد تمكن من تطوير أسلوب في المحادثات يجعل من كل إجابة مجال وفرصة لطرح سؤال آخر، وهكذا، يظل الحديث ممتدًا إلى ما لا نهاية..

( ولكن، ما الذي يدرسونه بالضبط في تلك الكائنات؟ إنها مجرد نجمة بحرية من ملايين النجمات...)

(إنها كائنات مركبة مثيرة للشغف)، إجابه دوك، ( كما أن تلك الطلبية تحديدًا سوف يتم إرسالها إلى الغرب الأوسط حيث الجامعة الشمال غربية)

فسأله هازل مجددًا، مستخدمًا حيلته المعتادة : ( ألا يوجد لديهم نجمات بحر هناك؟)

( بل لايوجد لديهم محيط)

(آآاه!)قالها هازل باحثا عن كلمات يطيل بها أمد الحديث ويخلق من خلالها سؤالا جديدا، وقد كان يمقت أن ينتهي النقاش على هذا النحو.

وبينما كان الفتى يبحث عن سؤال جديد يطرحه، بادره دوك هذه المرة بالسؤال، وهو ما كان هازل يكرهه بشدة، فقد اعتاد دومًا لعب دور السائل، أما أن يطرح عليه أحدهم سؤالاً فهذا معناه أن يضطر للتنقيب بين ثنايا عقله بحثا عن جواب؛ والحق أن التنقيب في عقل مثل عقل هازل لهو أشبه مايكون للتنقيب في متحف مهجور مهمل، ملئ بالحاجيات المبعثرة هنا وهناك ، فقد كان من الأشخاص الذين لاينسون شيئا على الإطلاق، لكنه كذلك لم يكن ليجهد نفسه في

محاولـة ترتيـب أفـكاره أو تنظيـم ذكرياتـه، وإنـما كان كل شـئ ملقى في عقلـه بإهمال، رأسـا عـلى عقب، تمامـا كقاع سـفينة مكـدس بالصنارات والمـراسي والحبـال والخطاطيـف ،بعضها فـوق بعض بـلا نظام...

سأله دوك : ( كيف هي أموركم في قصر فلوبهاوس؟)

مـرر هـازل أصابعـه بـين خصـلات شـعره الداكـن باحثا عـن إجابة بـين ركام الأفـكار في عقلـه، ثم قـال : ( لابأس، ذلك الشـاب «جاي»، أظنـه سـيأتي للسـكنى معنـا. إنه لايجـد للراحـة سـبيلا في بيتـه، فزوجته تضربـه دومًـا، إنهـا تنتظـر حتـى يـأوي إلى فراشـه ويـروح في النعـاس، ثـم تنقـض عليـه لتوسـعه ضربًـا، فيسـتيقظ ويهب مـن رقدته ليوسـعها ضربـا، حتـى إذا مافـرغ مـن ذلـك وعـاد إلى النـوم، أعـادت هـي الكرة وضربتـه مـن جديـد، وهكـذا لم يعـد بإمكانـه نيل أي قسـط مـن الراحة بمنزلـه، لذا فسـوف ينتقـل للإقامـة معنا)

( لقـد باتـت تعتمد أسـلوبًا جديـدًا في التعامـل معـه إذن، فقد كانت فيـما سـبق تقـدم ضـده البلاغ تلـو الآخر أمـام الشرطـة إلى أن يتـم الزج به إلى السـجن)

(أه، نعـم)، أجـاب هـازل، ( لكـن ذلـك كان فيـما مـضى، قبـل أن يقومـوا بإنشـاء مقـر الاحتجـاز الجديـد في سـالىناس؛ ففـي السـابق مـا كان جـاي يتحمـل قضـاء ثلاثـين يومًـا في السـجن القديـم، أمـا الآن بعـد إقامـة ذلـك السـجن الجديـد، ذو المذيـاع والمقاعـد المريحـة ورئيس السـجن المهـذب رقيـق الحاشـية، بات جـاي، إذا دخلـه، يأبـى الخروج ثانيـة، فقـد آلـف المـكان وأحبه بشـدة، وهـو ما جعـل امرأتـه تكف عن

تقديم الشكاوى ضده، وتلجأ لأسلوب الضرب أثناء النوم بديلا، ويا له من وضع يحطم الأعصاب.... إنك تعلم كما أعلم أنه لا يجد أي متعة في ضربها، لكنه مضطر لذلك حفاظًا على كرامته واحترامه لذاته. لكنه قد تعب وسئم ذلك الوضع ولم يعد يحتمل المزيد، لذا أظن أنه سينتقل ليحيا معنا عما قريب...)

نهض دوك، وقد بدأت الأمواج تضرب الحاجز الصخري متجاوزة إياه إلى حيث الحوض. لقد أوشك المد، وشرعت جداول صغيرة من المياه تنسرب عبر الصخور، والرياح البحرية النشطة قد أخذت تهب هي الأخرى باتجاههما، وقد تناهت إلى مسامعيهما أصوات كلاب البحر وقد علا نباحها من حولهما.

( لقد جمعنا مايكفي من نجمات البحر)، قالها دوك وهو يزيح قبعته المضادة للمياه إلى مؤخر رأسه، ثم : ( اسمع ياهازل، إنني أعلم جيدًا أنك قد اخفيت في قاع جعبتك ستة أو سبعة من المحار الصغير، وإنني لعلى يقين أيضًا من أنك، إن استوقفنا أي من مشرفي الصيد هاهنا، فسوف تقول بلا تردد أن تلك المحارات لي وأنني أنا من أمرتك بجمعها لحسابي، أليس كذلك؟)

(آاا... حسنا...)

(اسمع) قاطعه دوك بلطف : ( لو أن أحد المشرفين اكتشف تلك المحارات فسوف يفترض مباشرة أنني أجمعها لصالح أحد زبائني وأنني أستغل تصريح الصيد الخاص بي بشكل مجحف، بل قد يفترض أنني أجمع المحار لغرض الأكل)

(حسنا... اللعنة!)

(إن الأمر ليشبه كثيرًا نظرة أعضاء مجلس الكحول لي، بعقولهم المرتابة، إنهم يظنونني أشرب الخمور، بل هم يحسبون كل الناس كذلك)

(ولكن، ألاتفعل؟ ألست تعاقر الخمر؟)

( ليس كثيرًا)أجاب دوك ( إن تلك المادة التي يضيفونها إلى الخمور لها مذاق مريع)

( لكنها ليست بشعة إلى ذلك الحد، لقد شممنا رائحتها أنا وماك ذات مرة. ماهي تلك المادة بالضبط؟)

هم دوك بالإجابة على السؤال، حينما أدرك أخيرًا أنه ليس سوى طعم يلقيه هازل ليجر به مزيد من الأسئلة، فحمل جعبته المليئة بنجمات البحر على كتفه، وقد نسي كل شئ عن المحار غير القانوني المخفي في جعبة هازل، وقال : ( هيا بنا)

فتبعه الفتى، واتخذا طريقهما عائدين من الحوض البحري إلى حيث اليابسة...

(لقد عاد ذلك الرسام إلى قصر فلوبهاوس من جديد)قالها هازل

(ماذا؟)

(نعم، لقد انتهى من تصميم صورنا جميعا بريش الدجاج، وهاهو الآن يقول ان عليه أن يعيد تصميمهم من جديد باستخدام قشور الجوز. لقد قال إنه قد غير من.. أ.. من.. أدا .. أدواته!)

فضحك دوك ضحكة مكتومة وهو يتساءل : ( أمازال يبني مركبه؟)

(بالطبع، لقد أدخل عليه تغييرات جذرية، وقرر تحويله إلى قارب من نوع آخر، وأظن أنه سوف يعيد تفكيكه وبناءه من جديد... دوك... أمخبول هو؟)

وضع دوك جعبته الثقيلة على الأرض ووقف يلهث قليلا قبل أن يجيب : ( مخبول؟... أه، نعم، أظنه كذلك. إنه مخبول بنفس قدرنا نحن أيضًا، ولكن على نحو مختلف)

فوجئ هازل بكلام دوك، وقد أربكه رأيه تمامًا، فقد كان يرى نفسه دومًا كشخص شديد الوضوح والشفافية، كبركة ماء بلورية صافية، نقية، أما حياته فكان ينظر إليها وكأنها زجاج متعكر من فضيلة أسئ فهمها؛ إلّا أن عبارة دوك الأخيرة قد جاءت لتقلب موازينه وتشعره بالاضطراب والضيق، فصاح : ( ولكن... لقد أضاع الرجل سبع سنوات من عمره في بناء ذلك المركب، ولازال يبنيه، حتى أن بعض الأجزاء قد بلت تمامًا فاستبدلها بقطع من أسمنت، وكلما شارف على الانتهاء من بنائه، فإنه يعاود تفكيكه والبدء من جديد. وهكذا، على مدار سبع سنوات... إنه مخبول تمامًا..)

(أنت لا تفهم)قالها دوك وهو يجلس على الأرض وقد خلع حذائه المطاطي ( هنري يحب السفن لكنه يخشى المحيط)

(فما حاجته للمراكب إذن؟)

( هـو يحبهـا، هـذا كل مـا في الأمـر، لكـن إن هـو أنهـى صنـع مركبه فسـوف ينتظـر منـه النـاس أن ينزلـه إلى الماء، وسـيلحون عليـه في ذلك، فـإن فعـل فسـوف ينتظـرون منـه الإبحـار بـه، وهذا هـو مايخشـاه، فهو يكـره المـاء. لـذا فكـما تـرى، هـو لـن ينـه صناعـة مركبـه أبـدًا حتـى لايضطـر للخـوض في المحيـط)

فكـر هـازل مليـا فيـما يقـال لـه، علـه يسـتولد مـن ذلـك الحديـث سـؤال جديـد، لكنـه مالبـث أن تراجـع عـن ذلـك، بـل وطفـق يبحث عـن طريقـة يغـير بها دفـة الحديـث، فـما كان منـه سـوى أن ردد : (أظنه مخبـول!).... وعـلى الأرض السـوداء تحـت قدميـه كانـت مئـات مـن الخنافـس تجـري هنـا وهنـاك، فسـارع هـازل بالقـول، شـاعرًا بالامتنان لوجـود تلـك الحـشرات كمادة جديـدة لحديث جديـد : ( انظـر إلى تلك الحـشرات)

فنظر دوك إلى حيث أشار الفتى ثم قال : ( أه، إنها مثيرة للاهتمام)

(لماذا ترفع أذنابها في الهواء هكذا؟)

خلـع دوك جواربـه الصوفيـة وكومهـا ثـم دسَّـها داخـل حذائـه المطاطـي، ثـم أخـرج مـن حقيبته زوجـين من الجـوارب الجافـة وحذاءً جلديـاً، وهـو يقـول : ( لا أعلـم السـبب حقـاً، لكنـي قـد لاحظت أن ذلـك السـلوك هـو من أكثـر العـادات شـيوعًا لتلـك الكائنـات، إلَّا أنه لايوجـد في الكتـب مـا يشـير إلى ذلـك النمـط مـن السـلوك)

فسأله هازل مجددًا وهو يقلب إحدى الخنافس بطرف حذائه : (فما تفسيرك الشخصي إذن؟)

(أظنها تصلي!)

(ماذا؟!!)صاح هازل مجفلا.

فاستأنف دوك : ( إن الشئ الغريب هنا ليس كونها ترفع أذنابها في الهواء، وإنما ما يدعو للدهشة حقا هو أننا نجد ذلك الفعل عجيبًا!؛ ولنتخذ من أنفسنا مقياسا ومثلا ، ففي أحيان كثيرة نأتي بأفعال غرائبية بلا تفسير منطقي، وكثيرًا ماتكون تلك الأفعال نوع من صلاة ما، ولعل الخنافس كذلك تفعل الشئ نفسه!)

صمت هازل هنيهة، ثم قال : ( دعنا نرحل من هذا المكان الآن!)

***

# -٧-

لم يكن «قصر فلوبهاوس» ليمثل طفرة كبيرة أو تطورًا فجائيًا لساكنيه الجدد، فحينما انتقل إليه ماك وهازل وهيوجي وجونز، فإنهم لم ينظروا إليه سوى باعتباره مجرد ملاذ يحميهم من الرياح والأمطار، ويأوون إليه عندما تقفل جميع الأبواب، فحينها فقط يذهبون إلى ذلك «القصر» الذي لم يكن سوى غرفة طويلة عارية لاينفذ إليها الضوء سوى من نافذتين صغيرتين، وجدرانها عبارة عن خشب مجرد غير مطلي، ومن جنباتها تفوح روائح مسحوق السمك المجفف.

والحق أنهم لم يحبوا ذلك المسكن، إلَّا أن ماك قد أدرك أن تلك المجموعة من الفتية في حاجة إلى شئ من التنظيم في حياتهم..

وكما الجيش المدرب الذي لا يملك عتاداً ولا بنادق، فيلجأ لأدوات مصطنعة يحاكي بها الأسلحة الحقيقية كي يوهم نفسه وأعداءه أنه جيش قادر يمتلك ترسانته الحربية، قام ماك باستخدام قطعة من الطبشور ورسم بها خمسة مستطيلات كبيرة على الأرضية، يبلغ طول المستطيل منها سبعة أقدام وعرضه أربعة، ليحاكي بها

سريـرًا لـكل فرد منهـم، وعلى كل مسـتطيل خطَّ اسـم صاحـب السرير المفـترض؛ ومـع الوقـت باتت كل مسـاحة مـن تلـك المسـاحات بمثابة ملكيـة خاصـة لصاحبها لايجـوز انتهاكهـا أو تجاوزها، حتـى إن الواحد منهـم كان ليقاتـل كل مـن تسـول لـه نفسـه مـن زملائـه الاقـتراب من ملكيتـه. أمّـا باقي مسـاحة الغرفة فقـد تقـرَّر أن تكون مشـاعاً للجميع.

وقـد ظلّ ذلـك الوضـع قائـمًا طـوال الأيـام الأولى لسـكناهم «قصر فلوبهـاوس»، وقتما كان ماك وفتيته يفترشـون الأرض ويتسـلون بألعاب الـورق» الكوتشـينة «، ثم يغلبهم النعـاس فيناموا فوق الألواح الخشـبية القاسـية؛ ولـولا تقلـب الطقـس لبقـي هـؤلاء الفتيـة عـلى ذلـك الحـال دومًـا، إلَّا أن موجـة مـن الأمطـار الشـديدة غـير المسـبوقة قـد ضربـت البـلاد، وظلـت تهطـل عـلى مـدار مـا يزيـد عـن شـهر، قـد تسـببت في تغيـير ذلـك الوضـع كليـة. فمـع اسـتمرار الأمطـار وتواصلهـا، طالت فـترات مكوثهـم في البيـت، ومـع الوقـت بـدأوا يكلـون من جلوسـهم القرفصـاء عـلى الأرض الخشـبية، وأخـذ التململ والضيـق يدبـان في نفوسـهم مـن منظـر الجـدران العاريـة القبيحة.

ومـع مـرور السـاعات والأيـام، صـار ذلـك المنـزل ملجـأ حقيقيًـا ومـلاذا لهـم، فآلفوه وبـات عزيزًا عليهم، أثـيرًا إلى قلوبهم؛ كـما كان لهذا المسـكن ميـزة أخـرى قـد جعلتهـم يحبونه أكثـر فأكثـر، حيـث لم يعرف قـط مالـكا متجهـمًا غاضبًـا يدخـل عليهـم مطالبًـا بأجـرة أو خلافه، ف «لي شـونج» لم يكـن يـأتي إليهـم أو يقـرب مسـكنهم عـلى الإطلاق.

وفي إحدى المساءات، دخل هيوجي على الفتية حاملاً سرير نقال ممزق الحاشية، حتى أنه استغرق منه ساعتين كاملتين ليرتق التمزقات في أنحائه مستخدمًا خيوط الصيد. وبحلول الليل، بينما اضطجع باقي الفتية على الأرض ككل ليلة، استلقى هيوجي أخيرًا، ولأول مرة، على سرير حقيقي، مطلقا زفرة ارتياح مسموعة، ثم مالبث أن راح يغط في سبات عميق، قبلهم جميعًا.

وفي اليوم التالي، عاد ماك عبر التل وقد جلب معه عدد من اللفائف الحلزونية المعدنية الصدئة اللازمة لصناعة سرير، قد حصل عليها من إحدى عربات الخردوات الحديدية؛ ومنذ ذلك الحين نفض الفتية عنهم الخمول، وأخذوا يتسابقون لتجميل «قصر فلوبهاوس» وتحسين معيشتهم به كمسكن حقيقي.

وهكذا، لم تمض بضعة أشهر حتى غدا المنزل مكتظًا بالأثاث.... سجاجيد عتيقة تغطي الأرضية... كراس ذات مساند وأخرى بدون، في هذا الركن وذاك، حتى أن ماك قد أتاهم يومًا بمقعد طويل للاستلقاء «شيزلونج» من الخوص الملون بالأحمر الزاهي... طاولات.... ساعة عتيقة ليس بها عدة....

كذلك قام الفتية بدهان الحوائط بالكلس، حتى صارت مشرقة وقد منحت الغرفة رحابة واتساعًا، وقد تم تزيين تلك الحوائط بالعديد من الصور، أغلبها عبارة عن «تقاويم زمنية» تحمل صورًا لفتيات شقراوات جميلات يحملن في أيديهن زجاجات مشروب الكوكاكولا.

مـن جانبـه أسـهم هنـري الرسـام في تزيـين الجدران بـأن منـح الفتية لوحتـين مـن أعمالـه وقـت أن كان يسـتخدم ريـش الدجاج الملـون؛ وفي إحـدى الأركان اسـتقرت حزمـة مـن ذيـول القطـط المذهبـة، وبجانب السـاعة العتيقـة عـلى الجـدار قامـوا بتثبيت ريشـة من ريـش الطاووس.

وبعـد حـين، اسـتطاعت العصبـة أخـيرًا الحصـول عـلى موقـد كانوا يبتغونـه منذ فـترة، وكان عبارة عـن موقد عملاق مزخـرف بالفضي، ذو فـرن، ومقدمـة مزخرفـة على شـكل حديقـة من أزهـار التيوليـب مطلية بالنيـكل؛ والحقيقـة أن هذا الموقد لم يكن من السـهل أبـدًا الحصول عليه، فقـد كان أكـبر وأضخم مـن أن يتمكنـوا من سرقتـه، كـما أن الحيلة التي ابتكرهـا مـاك عـن وجـود أرملة مريضـة تعول ثمانيـة أطفـال وتحتاج إلى موقـد، لم تجـد نفعًـا مـع مالكه وأبـى أن يتنـازل عنـه للأرملـة المزعومة، إلَّا أنـه قـد وافق عـلى بيعه ولكن بقيمـة دولار ونصـف دون التنازل عن سـنت واحـد من ثمنـه، وقد حاول الشـباب على مـدار ثلاثة أيـام كاملة إقناعـه ببيعهـم إيـاه مقابـل ثمانـين سـنتا، إلَّا أنه رفـض بعناد شـديد، فما كان منهـم إلَّا أن دفعـوا الثمانـين سـنتا وكتبـوا لصالحـه كمبيالـة خطيـة بباقـي قيمـة الموقـد، وربما لاتـزال تلك الورقـة بحوزته حتـى الآن.

ولم تكـن تلـك المعاناة الوحيـدة في رحلـة اقتنائهم للموقـد، فقد كان يـزن ثلاثمائـة أرطـال، وقد اسـتنفذ ماك وهيوجـي على مدار عـشرة أيام كل السُّـبل في محـاولات إيجـاد مـن يتـولى مهمة نقلـه إلى منزلهـم، لكنهما لم يفلحـا، ولم يعـد مـن سـبيل أمامهـما سـوى أن ينقـلاه بنفسـيهما، وعلى مـدار ثلاثـة أيـام قطع الشـابان مسـافة خمسـة أميـال كاملة حتـى وصلا بـه إلى شـارع السرديـن المعلب حيث أمضيـا الليل بجانبه، إلى أن اسـتقر

أخيرًا في البيت، وبمجرد أن اتخذ الموقد موضعه في» قصر فلوبهاوس « حتى بات مركز البيت وشعلته المتألقة... كان الموقد، بأزهاره المطلية بالنيكل وضوئه الدافئ بمثابة درة المنزل ونقطة الاجتماع والانطلاق، فبمجرد إشعال نيرانه كان الدفء ينبعث في جنبات الغرفة الكبيرة، في حين أتاح لهم فرنه الرائع إمكانية تحضير الطعام...

لقد صار قصر فلوبهاوس بيتًا حقيقيًا بمجئ ذلك الموقد، حتى أن إيدي قد قام بزراعة كمية من نباتات «أزهار الصباح» لاستخدامها في تزيين بوابة البيت، في حين وضع هازل عددًا من أوعية أزهار الفوشيا من وزن الخمسة جالونات حول المدخل، مما أعطاه طابعًا مميزًا لكنه فوضوي إلى حد ما.

لقد أحب الفتية منزلهم هذا حقًا، حتى أنهم كانوا يعمدون إلى تنظيفه من حين لآخر، وفي دواخلهم باتوا يعجبون ويسخرون من هؤلاء المرتحلة الذين لا منزل لهم يأوون إليه ولايعرفون للاستقرار معنى؛ ومن حين لآخر كان الفتية يستقبلون بعض من أصدقائهم ليقيموا معهم ليوم أو اثنين بقصر فلوبهاوس، وكم كان ذلك يشعرهم بفخر شديد.

كان إيدي يعمل كمساعد تحت الاختبار في حانة «لا إيدا» وكان يتولى أحياناً مهام العمل بأكملها حينما يكون عامل الحانة الأصلي «هويتي» مريضاً، وهو أمر كثيرًا ما كان يحدث، كلما أتيحت الفرصة أمام هويتي!. وفي كل مرة كان يتولى إيدي أعمال الحانة، كانت بضع زجاجات من الخمور تختفي، وهو ما جعل من المتعذر أن يتولى تلك

المهـام كثـيرًا، ومـع ذلـك فقـد كان هويتي يفضـل دائـمًا أن يأخـذ إيدي موقعـه في غيابـه، ذلـك لأنـه كان على قناعـة تامة - وهـو مصيب في هذا - أن إيـدي لم يكـن ليسـع للاسـتيلاء عـلى تلك الوظيفة لنفسـه بشـكل مستديم.

ولم يكـن إيـدي في حاجة للاسـتيلاء عـلى كثير من زجاجـات الخمر، فقـد كان يحتفـظ بإبريـق يسـع لجالون كامـل، أسـفل البار، وعـلى فوهة الإبريـق كان قـد ثبّـت قمعًـا، وفي حـال تبقـى أي قـدر مـن الـشراب في كـؤوس الزبائـن كان إيدي يصبـه سريعًا عـبر القمع إلى الإبريـق قبل أن يغسـل الكـؤوس، وكذلـك حينما تصـدح الأغنيـات في الحانـة ويذهب الجميـع إلى الرقـص، أو حينـما تبلـغ السـهرة نهايتهـا، كان إيدي يسـارع إلى صـب جميـع ماتبقـى في الكـؤوس - والتـي عـادة مايكـون بعضهـا ممتلئـا حتـى النصـف أو أكثـر - في إبريقـه المخفي.

وبعـد انتهـاء دوامـه كان يعود بالجالـون إلى «قصر فلوبهـاوس»، وقد امتـلأ بتوليفـة عجيبـة مذهلـة مـن الخمـور، تتكون عـادة مـن مزيج من الويسـكي والجعـة والبوربـون والـروم والجـن والسـكوتش و.... ،وفي بعـض الأحيـان كان أحـد الزبائـن يطلب كأسًـا مـن البرانـدي الممزوج بنـوع آخـر، أو أن يضاف إلى كأسـه شـئ من بـذر الينسـون، أو نكهة من قشـور الليمـون، فكانـت تلـك الإضافـات البسـيطة تضفي طابعًـا مميزًا عـلى الـشراب؛ وقد اعتـاد إيدي إضافة بعـض من شراب الأنجوسـتورا القـوي إلى الإبريـق قبـل أن يغـادر الحانة بـه متجهـا إلى القصر.

وفي بعض الليالي كان يحالفه الحظ بأن يتمكن من ملء ثلاثة أرباع الإبريق، فكان يشعر بالرضا، وقد أدرك أن المرء قد يسكر من مجرد نصف كأس مثلما قد يسكر من كأس كاملة، فقط إن كان يملك مزاجًا مستعدًا للوقوع في حالة السكر. لقد كان إيدي من قاطني قصر فلوبهاوس ذوي الأفضلية والحظوة، ولذا لم يطالبه أي من شركاء السكن يومًا أن يشاركهم في تنظيف المنزل، بل إن هازل قد قام ذات مرة بغسل أربعة أزواج من جواربه.

في تلك الظهيرة، بينما كان هازل بصحبة دوك يجمعان الكائنات البحرية من الحوض الكبير، جلس الفتية في «القصر» يحتسون الخمر التي جلبها إيدي، وكان «جاي» بصحبتهم كذلك، وهو أحدث عضو في تلك العصبة. ارتشف إيدي بعضًا من الشراب من كأسه، ثم طفق يقول: ( إن المرء ليتعجب إذ يتأمل في طلبات الزبائن وعلى أي نسق تسير... خذوا عندكم مثلاً الليلة الماضية، حيث طلب عشرة زبائن على الأقل مشروب المانهاتانس، عشرة زبائن في ليلة واحدة!، بالرغم من أنه قد يمر شهر كامل دون أن يطلب أحد ذلك المشروب، ولا حتى زبونين... إن نكهة الجرانادين هي ما يمنحه ذلك المذاق....)

قلب ماك جرعة من الشراب في فمه مستطعمًا إياها ثم أعاد ملء كأسه وهو يقول في شئ من التجهم: ( نعم. إن الأشياء الصغيرة لتصنع فارقا...)ثم جال ببصره بين رفاقه ليرى وقع كلماته تلك عليهم، إلَّا أن أحدًا لم يبد اكتراث بما قال، سوى جاي، الذي أدرك فحواها، فقال: ( هذا حقيقي. هل....)

إلا أن ماك قاطعه متسائلاً : ( أين هازل اليوم؟)

فأجاب جونز : ( لقد ذهب مع دوك لجمع بعض نجمات البحر)

فأومأ ماك قائلا : ( هذا الفتى دوك، إنه شاب طيب، فهو قد يمنحك بعض من الشراب في أي وقت. وحينما أصبت بجرح ذات مرة ، كان يقوم بتغيير ضمادتي يوميًا بأخرى جديدة. إنه فتى طيب حقا ) .

فوافقه بقية الشباب بشدة على ذلك، واستأنف ماك الحديث : ( إنني لأتساءل منذ وقت طويل، ترى أي صنيع طيب يمكن أن نصنعه له؟ شئ يحبه ويسعده).

فقال هيوجي مقترحًا : ( ربما يرغب في امرأة).

(إن لديه ثلاث نساء أو أربع)أجابه جونز ( يمكنك أن تدرك بسهولة أن لديه امرأة حينما يقوم بإغلاق ستائر النوافذ الأمامية، وحينما يشغل تلك الموسيقى ذات الطابع الكنسي على فونوغرافه).

هنا نظر ماك لهيوغي معاتبًا : ( ألا لأنه لا يطارد النساء في الشوارع تظنه رجل بلا حفلات (*) ؟)

(حفلات؟! ماذا تعني برجل بلا حفلات؟!)سأله إيدي متعجبا، فأجاب ماك : ( أعني أنه لايستطيع إقامة علاقات مع النساء).

( أه، ظننتك تقصد الاحتفال وما شابه).

---

* - قالها ماك «حفلات» وكان المقصود بها «علاقات»، وذلك نظرًا للغته الركيكة وضآلة حصيلته .

خيَّم الصمت على الغرفة، وقام ماك بتبديل وضعيته على مقعده الطويل، في حين أنزل هيوجي ساقي كرسيه الأماميين على الأرض، وطفقوا يجولون بأبصارهم في الفراغ من حولهم لبرهة من الوقت، قبل أن تلتقي عيونهم مرة ثانية على وجه ماك الذي أخذ يهمهم قليلا، إلى أن قال إيدي : ( ترى، أي نوع من الاحتفالات قد يحبه دوك في رأيكم؟).

فأجابه جونز : ( وهل هناك سوى نوع واحد؟).

(الأمر الوحيد المؤكد أنه لن يحب المشروب في إبريقنا هذا)قالها ماك، فبادره هيوجي متسائلاً : ( وكيف لك أن تعرف ذلك؟ إنك لم تعرض عليه كأس منه من قبل).

( أنا متأكد مما أقول، فقد كان الفتى طالبًا جامعيًا، ثم إنني قد شاهدت يومًا إحدى السيدات الراقيات، ترتدي فراءً، وقد أتت لزيارته، ولم أرها تخرج من عنده، وظلت موسيقاه الكنسية إياها تصدح من لدنه حتى الساعة الثانية... لا، لا يمكن أن تقدم لشخص بهذا المستوى هذا النوع من الشراب الذي نعاقره)قالها ماك وهو يعاود ملء كأسه من جديد.

( لكن مذاقه يصبح جميلاً بعد الكأس الثالثة)قالها هيوجي صادقا، إلا أن ماك أجابه بلهجة قاطعة : ( لا، ليس لمن هو مثل دوك. عليك أن تقدم له مشروبًا حقيقيًا كالويسكي).

(إنه يحب الجعة)قال جونز( إنه يذهب إلى لي شونج دوما ليبتاع الجعة، بل إنه أحيانًا يخرج إليه في منتصف الليل ليحصل على بعض منها ) .

(إن من يبتاع الجعة إنما ينفق أمواله على غثاء، فهو لايحصل سوى على ٨٪ من الجعة الصافية، مقابل ٩٢٪ من الماء والألوان، إلى غير ذلك من الإضافات... إيدي، هل يمكنك أن تحضر لنا أربع أو خمس زجاجات من الويسكي من «لا إيدا» في المرة القادمة حينما يمرض هويتي؟).

(بالطبع) أجاب إيدي ( بالطبع يمكنني ذلك، لكنها ستكون الأخيرة بكل تأكيد، فقد صار جوني يتشكك فيَّ مؤخرًا، حتى أنني قد سمعته منذ فترة يقول : إنني أشم رائحة فأر اسمه إيدي، وقد كنت حينها على وشك أن أنحني لأحمل الإبريق الذي أصب فيه الخمور).

(آه!) صاح جونز ( حذار يا رجل أن تفقد وظيفتك، فلو أن شيئا ما قد أصاب هويتي فسوف تحل محله لحوالي أسبوعا إلى أن يأتوا بشخص آخر.... يبدو لي أننا إن أردنا إقامة سهرة لدوك فسوف يتعين علينا شراء الويسكي. كم يبلغ سعر جالون الويسكي يا ترى؟).

(لا أعلم)قال هيوجي ( فأنا لم أبتع من قبل أكثر من ربع لتر لنفسي، فقط لاغير، حيث يهيئ لي أن المرء إن اشترى أكثر من ذلك فسوف يتكاثر عليه من يشاركونه الشراب، أما إن هو اكتفى بربع لتر في المرة الواحدة فسوف يكون باستطاعته الاستمتاع بشرابه دون أن يحوطه الآخرون).

هنا قال ماك : ( أظن أن إقامة سهرة لدوك سوف تكلفنا أموالاً، حيث أننا إن أردنا حقًا أن نقيم حفلاً على شرفه فلابد أن يكون حفلاً جيدًا يليق به، كما سيتوجب علينا إحضار كعكة كبيرة... ترى متى يحين عيد مولده؟).

(لكننا لسنا في حاجة إلى أن يكون هناك عيد ميلاد كي نقيم حفلة) أجابه جونز.

(لا، ولكن ذلك سوف يكون لطيفًا إن نحن أقمنا له حفلاً بمناسبة يوم مولده..... أظننا في حاجة إلى عشرة أو اثنتي عشرة دولار لإقامة حفلة مشرِّفة).

فنظر الفتية إلى بعضهم البعض وهم يفكرون، ثم قال هيوجي : ( لقد سمعت أن مصنع هيديوندو في حاجة إلى عمال).

فقاطعه ماك : ( لا، إن لنا سمعتنا التي لا نريد إفسادها، فكل منا حين يتسنى له الحصول على وظيفة فإنه يبقى بها لشهر أو أكثر، ولهذا نتمكن دومًا من إيجاد وظائف حين الحاجة، أما إذا تولينا أعمالاً ليوم أو يومين فقط فسوف نخسر سمعتنا في الاستدامة بالعمل ولن نجد من يوظفنا فيما بعد).

فأيده باقي الشباب، ثم قال جونز بعد هنيهة : ( أظن أنني سوف أعمل لحوالي شهرين، نوفمبر وجزء من ديسمبر، فسوف يكون أمرًا جيدًا لو أننا تمكنا من جني بعض الأموال مع اقتراب أعياد الميلاد «الكريسماس»، فلربما استطعنا طهي ديك رومي هذا العام للاحتفال بليلة الكريسماس).

(بحق الإله، سوف يكون ذلك بمقدورنا طبعًا)قالها ماك مؤكدا (إنني أعرف مكانًا بوادي كارميل به ألف وخمسمائة ديك في سرب واحد).

فصاح هيوجي : ( الوادي... لقد جمعت كثير من الكائنات من هناك لصالح دوك؛ سلاحف وجراد البحر وضفادع، وكنت أحصل على خمس سنتات عن الضفادع).

(وأنا أيضًا)قال جاي ( فقد جمعت خمسمائة ضفدع في إحدى المرات).

فتفكر ماك قليلاً، ثم قال : ( لو أن دوك يرغب في ضفادع فإن الأمر سهل، يمكننا ببساطة أن نذهب جميعًا إلى نهر كارميل في رحلة لصيد الضفادع ، دون أن نخبر دوك عن الغرض الحقيقي من وراء ذلك، ثم نفاجئه بعدها بحفلة رائعة).

دبت الحماسة في قصر فلوبهاوس وسرت في نفوس الفتية، ثم التفت ماك إلى جاي وقال : ( إلق نظرة عبر الباب وقل لنا ما إذا كانت سيارة دوك واقفة في مكانها أمام بابه أم لا).

فوضع جاي كأسه ونظر عبر الباب، ثم قال : ( لا، ليس بعد).

(حسنًا، لابد أنه سوف يعود بين لحظة وأخرى.... والآن دعونا ندبر ما سوف نفعل وكيف ستسير الأمور...).

***

# -٨-

في أبريل من عام ١٩٣٢ انفجرت ماسورة إحدى المراجل بمصنع هيديوندو لتعليب السردين وذلك للمرة الثالثة خلال أسبوعين، فقرر مجلس الإدارة، المكون من السيد راندولف وكاتب الاختزال شراء مرجل جديد أخيرًا بدلاً من الاضطرار لإغلاق المصنع مع كل مرة يحدث فيها عطل أو مشكلة بالمرجل القديم.

ولم تمض فترة طويلة حتى وصل المرجل الجديد إلى المصنع، وتم خلع المرجل القديم وإلقائه في الساحة الخاوية بين دكان لي شونج وبيت دورا، إلى حين يتوصل السيد راندولف لكيفية الاستفادة منه وكسب بعض الأموال من ورائه.

ومع الوقت، انتزع مهندس المصنع مواسير المرجل القديم الواحدة تلو الأخرى لاستخدامها في ترقيع مايتلف من آلات وأدوات داخل المصنع.

وهكذا، حتى صار المرجل أشبه مايكون بقاطرة عتيقة دون عجلات.

وكان للمرجل باب كبير في منتصفه، وآخر منخفض للنيران؛ وبمرور الزمن اعترى المرجل الصدأ حتى صار هشًا مائلاً لونه إلى الاحمرار، وقد نبتت حوله الأعشاب التي كانت تتغذى على صدئه، وعلى جوانبه نمت نباتات الآس، وكذلك عشبة الينسون البري والتي صارت تعطر الجو من حوله.

ثم إن شخصاً ما قد قام يومًا بإلقاء بعض من جذور نبات الداتورة إزاء المرجل، فنمت وترعرعت شجرة كثيفة هناك، تتدلى أزهارها البيضاء فوق باب المرجل، وفي الليل تضوع أزهار الشجرة برائحة الحب والشبق الحلوة، وعطرها الفوَّاح.

في عام ١٩٣٥ انتقل السيد سام مالوي وزوجته للإقامة في المرجل، حيث كانت كافة مواسيره قد تم انتزاعها، وأمسى المرجل أشبه بغرفة واسعة جافة، وآمنة؛ صحيح أنك إن دخلته عبر باب النيران فسوف تضطر لأن تجثو على يديك وركبتيك وتدخله حبوا، لكن ما إن تصبح بداخله فسوف تتمكن من الوقوف منتصبًا مرة ثانية دونما حاجة للانحناء، والحق إن المرء لن يجد مكانا آخر أكثر دفئًا وجفافًا منه.

وقد قام السيد والسيدة مالوي بإدخال حاشية إلى المرجل عبر باب النار، ثم استقرا به تمامًا، وكان السيد مالوي سعيدًا راضيًا بمقر إقامته الجديد، وكذلك كانت زوجته راضية، وظلت كذلك لفترة طويلة.

وعلى التل، أسفل المرجل، كان هناك عددًا من الأنابيب الكبيرة كان مصنع هيديوندو قد تخلص منها....

وفي أواخر عام ١٩٣٧ كان موسم الصيد زاهرًا فائضًا بالخيرات إلى حد بعيد، وظفر الصيادون بكميات وافرة من الأسماك، وأخذت مصانع تعليب السردين تعمل طوال الوقت وبكامل طاقتها، حتى أنها احتاجت لعمال إضافيين لاستيعاب الأعمال المتزايدة؛ ومن هنا نشأت أزمة حادة في تسكين هؤلاء العمال، هنا عمد السيد مالوي إلى تأجير الأنابيب الضخمة حول المرجل للعمال غير المتزوجين لقاء أجر زهيد للغاية، فكان الواحد منهم يثبت قطعة من الورق المشبع بالقطران عند طرف الأنبوب لمنع تسرب المياه إلى الداخل، وعند الطرف الآخر يفرش قطعة من السجاد، فيمسي وقد تحوَّل الأنبوب إلى غرفة نوم مريحة. صحيح أن البعض منهم كان يشكو من أن صدى غطيطهم يرتجع إليهم في الأنابيب المعدنية فيوقظهم من نومهم، وصحيح أن عدداً آخر منهم، ممن اعتادوا اتخاذ وضعية التكوم عند النوم، صار عليهم إما أن يغيروا من عادات نومهم أو البحث عن مأوى آخر، إلا أنه، وبصفة عامة، قد نجح السيد مالوي في استغلال تلك الأنابيب وإنشاء عمل تجاري صغير ناجح، مما جعله سعيد بحق.

أما السيدة مالوي، فلطالما كانت راضية بحالها ساكنة إلى وضعها، إلى أن أصبح لزوجها عمله التجاري وبدأت أحواله في الازدهار، هنا أخذت أحوال الزوجة تتبدل....في البداية قامت بشراء بساط، ثم حوض للغسيل، ومصباح ذو غطاء حريري؛ وفي إحدى الأيام، دخلت السيدة مالوي إلى المرجل زاحفة كالعادة على يديها وركبتيها، ثم وقفت وهي تكاد تلتقط أنفاسها، وتقول في حماسة : (إن محلات هولمان تبيع ستائر بأسعار مخفضة، حيث تعرض طقما من الستائر

الموشاة، تحوطها أطراف زرقاء وقرنفلية، مع القضبان الخاصة بها، فقط بدولار وثمانية وتسعين سنتا).

فاعتدل السيد مالوي في جلسته فوق الحاشية، وقال : ( ستائر؟ وماحاجتنا إلى الستائر؟).

( إنني أحب الأشياء الجميلة، ولطالما وددت لو أحببتها أنت أيضًا) قالتها السيدة مالوي وقد بدأت شفتها السفلى في الارتعاش..

فصاح السيد مالوي : ( ولكن ياحبيبتي أنا كذلك أحب الستائر...).

فقاطعته زوجته بصوت متهدج وقد أوشكت على البكاء : ( إنها بدولار وثمانية وتسعين سنتا فقط. إنك تبخل عليَّ بدولار وثمانية وتسعين سنتا!) ثم إنها أجهشت بالبكاء وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط.

( إنني لا أبخل عليك بشئ ياحبيبتي، ولكن، أخبريني بالله عليك، ما الذي يمكن أن نفعله بستائر في حين أننا ليس لدينا نوافذ أصلا!).

ومع ذلك ظلت السيدة مالوي تبكي وتبكي، حتى ضمها زوجها بين ذراعيه وأخذ يحاول تهدئتها، في حين أخذت هي تردد من بين عبراتها : ( إن الرجال لايستطيعون فهم مشاعر النساء أبدًا. إنهم حتى لا يحاولون أن يضعوا أنفسهم محل المرأة ليفهموها).

فجلس زوجها سام إلى جانبها وأخذ يربت على ظهرها لوقت طويل إلى أن أغمضت عينيها وراحت في النوم.

***

# -٩-

مـا إن عـادت سـيارة دوك حتى أخـذ الفتية يراقبونه هـو وهازل وهما يتعاونـان عـلى نقـل الأكيـاس المليئـة بنجـمات البحر؛ وفي غضـون بضع دقائـق كان هـازل قـد اتخـذ طريقه عائـدًا إلى «قـصر فلوبهـاوس»، وكان بنطالـه لا يـزال مبتلا بفعل ميـاه البحر حتـى الفخذيـن، والملح الأبيض قد شـكل حلقـات في الأماكـن التي بـدأت تجف.

ومـا إن بلـغ الفتـى» القصر» حتى تهالـك في إعياء على مقعـده الهزاز، نازعًـا عن قدميه حذائـه الرياضي.

فبادره ماك : ( كيف هو حال دوك؟).

( بخـير... إنـك لن تسـتطع أن تفهـم كلمة ممـا يقول أبـدا. هل تعلم مـاذا يقول عـن الخنافـس؟... لا، لا داع لأن أخبرك).

فسأله ماك : (هل كان في مزاج حسن؟).

( بالتأكيـد، فقـد جمعنـا مائتـي أو ثلاثمائـة مـن نجمات البحـر... لقد كان في أفضـل حال).

فأخـذ مـاك يتحـدث إلى نفسـه :(تـرى، أمـن الأفضـل أن نذهـب جميعًـا؟... لا، أظـن أنـه مـن الأفضـل أن يذهـب واحـد منا فقـط، فقد يشـعر بالتوتـر إذا ماذهبنـا إليـه جميعًـا).

( ماالذي تتحدث عنه؟!) سأله هازل.

( لقـد وضعنـا خطـة) أجابه ماك ( سـوف أذهـب إليه وحـدي حتى لايضطـرب، أمـا أنتـم يـا رفـاق فابقوا هنـا وانتظـروا، لن أغيب سـوى بضـع دقائق).

ثـم خـرج مـاك متخـذًا طريقه نحـو المختـبر، عـبر حظـيرة الدجاج، ثـم خـط القطـار. حتـى وصـل إلى الأنابيـب، حيـث كان السـيد مالوي جالسًـا هنـاك أمـام مرجله..

فألقى ماك عليه التحية سريعًا : ( كيف حالك يا سام؟).

(لا بأس).

(وكيف حال السيدة مالوي؟)

(بخـير... هـل تعـرف نوعًـا مـن الصمـغ يمكنـه لصـق القـماش بالحديـد؟).

في الأحـوال العاديـة، كان مـاك ليأخـذ ذلـك السـؤال عـلى كاهلـه ويقـف مسـتغرقا في التفكـير بحثًـا عـن إجابـة، أمـا الآن فهـو ليس على اسـتعداد لأن يعطلـه أي شـئ عـن مقصـده، فقـال ببسـاطة : (لا) ثـم مـضى في سـبيله عـبر السـاحة الخاويـة مجتـازا الشـارع، إلى أن وصـل إلى المختـبر، فدلف مـن الباب. وهنـاك كان دوك جاثيا عـلى الأرض الباردة

للمختبر منهمكا في إخراج نجمات البحر من الجعبتين وفك اشتباكها، حيث من دأب نجمات البحر التعلق دومًا بأي شيء، لذا فقد اضطر على مدار ساعة كاملة أن يثابر على فك تشابكها ثم وضعها على الأرض في نظام وتنسيق. وكان دوك قد خلع قبعته أخيرا، ففي داخل المختبر ليس ثمة احتمال لأن يبلل الماء رأسه، إلا إذا انفجرت إحدى المواسير؛ في حين كانت لحيته مبللة بالعرق جراء الإنهماك في العمل.

وبمجرد أن دخل ماك إلى المختبر اعترى دوك شيئاً من العصبية، لا بسبب متاعب ما يجلبها الفتى أينما حل، ولكن لأن شيء آخر يأتي مع ويدخل في ركابه دائمًا..

(كيف حالك يا دوك؟).

(بخير) إجابه دوك وقد بدا عليه الضيق.

( هل سمعت بما حل بفيليس ماي؟ هناك في مطعم «بيير فلاج»؟ ، لقد ضربت رجلاً كان سكرانا هناك، فاخترق سن صناعي كفها وأصيبت بتضرر كبير حتى المرفق. لقد أرتني السن.. هل السن الصناعية سامة يا دوك؟).

(أظن أن كل مايخرج من الفم البشري سام!. وهل ذهبت إلى طبيب؟).

( لا، لقد تكفل بأمرها ذلك الرجل المختص بطرد السكارى ومثيري الشغب من المطعم).

( حسنًا سوف أعطها بعض السالفا) قالها دوك وهو بعد يتوقع أن تنفجر العاصفة، فقد كان يدرك جيدًا أن ماك إنما أتى لغرض ما، وقد أدرك ماك بدوره أن دوك قد فطن لذلك، فقال : ( دوك، ألا تحتاج لأي نوع من أنواع الحيوانات في الفترة الحالية؟).

هنا تنفس دوك الصعداء، ثم تساءل في حذر : ( لماذا؟).

فانطلق ماك يقول في وضوح وثقة : ( سوف أخبرك، إنني ورفاقي في حاجة ماسة إلى بعض المال، وإننا لنريد ذلك المال لغرض طيب، بل يمكنك القول أنه غرض نبيل).

( أمن أجل علاج فيليس ماي؟).

فتفكر ماك قليلاً في تلك الذريعة، ثم سرعان ما طرحها جانبًا وقال : (لا، بل هو أمر أكثر أهمية. إن إصابتها لن تقتلها على أية حال... فالعاهرات لايمتن بسهولة هكذا. إننا نريد المال لغرض مختلف؛ ولهذا فقد فكرنا أنا والشباب أنك ربما تحتاج لأي شيء، فبإمكاننا أن نأتي لك به، وبهذا يتسنى لنا الحصول على بعض من المال).

بدا العرض بسيطًا وبريئا لايحمل في طياته شيء مستتر، وأخذ دوك يفكر وهو يرتب أربع من نجمات البحر، ثم قال : ( إنني في حاجة إلى ثلاثمائة أو أربعمائة ضفدعة... إن في إمكاني أن أجمعهم بنفسي، ولكن علي أن أذهب الليلة إلى «لاجولا»، حيث سيكون هناك مدًّا كبيرًا في المياه غدًا وعليَّ أن أنتهز الفرصة وأجمع بعضًا من الأخطبوط).

( وهـل لايـزال سـعر الضفـادع كـما هـو؟ خمسـة سـنتات مقابل كل ضفدعـة؟)

( نعم، كما هو)

فقـال مـاك في سـعادة : ( حسـنا، لا تشـغل بالـك بأمـر الضفـادع يـادوك، سـوف نأتيـك بـما تحتاجـه منهـا. اطمئـن لذلـك... بإمكاننا أن نجمعهـا لـك مـن نهـر كارميـل، أنـا أعـرف المـكان جيـدًا)

( حسـنًا، سـوف أشـتري منكم كل ما سـتتمكنون من جمعـه، لكنني أحتاج إلى حـوالي ثلاثمائة)

( لاتشـغل بالـك وكـن مطمئنًـا، سـوف نأتيـك بـما تريـد، بـل قـد نجمـع مـن أجلـك سـبعمائة أو ثمانمائـة ضفدعـة)

ثـم إنـه اسـتطرد وقـد اكفهـر وجهـه قليـلاً : ( آ.. دوك... أيمكننـا اسـتعارة سـيارتك للذهـاب بهـا نحـو الـوادي حيـث نجمـع لـك الضفـادع؟)

( لا ) أجابـه دوك ( لقـد أخبرتـك أننـي سـوف أذهـب بهـا إلى «لاجـولا» الليلـة )

(أه..) قالهـا مـاك في قنـوط، ثـم : ( حسـنًا، لاتشـغل بالك، فسـوف نحـاول أن نسـتعير شـاحنة «لي شـونج» القديمة.... إذن، هـل يمكن أن تمنحنـا دفعـة من حسـابنا مقدمًا كـي نتمكن مـن شراء وقود للشـاحنة؟ فأنـا عـلى يقين أن لي شـونج لـن يمنحنـا إياه)

(لا) قالها دوك بصرامة، فقد سبق أن تعرّض لأمر مشابه، حيث قام بمنح جاي بعض من المال كي يذهب لجمع بعض السلاحف له، وكان المبلغ يكفي لأسبوعين.

فانفرجت أسارير ماك وقال : ( حسنًا، هذا حل جيد. سوف انطلق والفتية في وقت مبكر غدًا، وبمجرد عودتك من الجنوب سوف تجد أننا قد جمعنا لك كمية من الضفادع لم ترها في حياتك من قبل).

فاتجه دوك إلى المكتب وقام بتحرير إذن موجه إلى «ريد ويليامز» في محطة الوقود يطلب بموجبه منح ماك عشرة جالونات من البنزين، ثم قال : (هاهو ذا الإذن).

فافتر ثغر ماك عن ابتسامة واسعة قائلاً :( دوك.. نم قرير العين الليلة ولا تفكر في أمر الضفادع، فحين ترجع سوف تجدنا وقد جلبنا لك عددًا من الأوعية الممتلئة بها)

ثم مضى ماك مبتعدًا ودوك يراقبه في شئ من الضيق. لقد كانت معاملاته مع هؤلاء الفتية مثيرة دومًا، إلا أنها لم تكن رابحة بالنسبة له؛ وتذكر دوك يوم إبتاع من ماك خمسة عشر قطًا، وبحلول الليل جاءه أصحاب تلك القطط واستردوها منه... يومها سأله دوك وهو يستلم القطط : (لماذا كل القطط التي آتيتني بها ذكور؟)

فأجابه ماك : ( حسنا دوك، إن هذا الأمر من ابتكاري الخاص، لكني سأخبرك به لأنك صديق جيد.... إن أردت اصطياد عدد كبير من القطط بسهولة فإن كل ماعليك هو أن تنصب شبكة كبيرة،

ولكـن لاتضـع طعـمًا بهـا، وبـدلاً مـن ذلـك ضـع قطـة أنثـى وسـوف تصيـد بهـا كل القطـط الذكـور الموجـودة في البلـدة).

خـرج مـاك مـن المختـبر ثـم عـبر الشـارع، إلى أن وصـل إلى دكان لي شـونج، فدخـل عـبر الباب الـدوار، حيـث كانـت زوجـة لي عاكفة على تقطيـع قطعـة مـن لحـم الخنزير عـلى طاولـة الجـزارة، في حـين كان أحد أبنـاء عمومتـه يقـوم بتزيـين بعـض مـن نباتـات الخـس، وفـوق كومـة عاليـة مـن البرتقـال كان ثمـة هِـرٌ يغـط في نومه.

وكان لي شـونج واقفًـا في مكانـه المعتـاد خلف طاولة السـجائر وأمام أرفـف الـشراب، فـما إن دخـل مـاك إلى الـدكان حتـى أخـذت أصابـع لي تنقـر بسرعـة وعصبيـة فـوق غطـاء صنـدوق السـجائر؛ فبـادره ماك بالقـول في سرعـة : (لي... إن دوك لديـه مشـكلة، فقـد كلفـه متحـف نيويـورك بجمـع كميـة ضخمة مـن الضفادع، وهـو أمر شـديد الأهمية لـه، ليـس فقـط مـن الناحيـة الماليـة وما سـوف يجنيه مـن أربـاح، ولكن أيضًـا مـن ناحيـة التقديـر المعنـوي. ولكـن للأسـف، فـإن دوك مضطر للتوجـه جنوبًـا في أمـر هـام، لـذا سـوف أقـوم أنـا والشـباب بجمـع الضفـادع لـه، وأظـن أن مـن واجـب الأصدقـاء أن يسـاعدوا صديقهم طالمـا كان ذلـك بمقدورهـم، خاصـة لـو كان صديقًـا لطيفًـا كـدوك، أعتقـد أنـه ينفـق لديـك الكثير مـن الأمـوال، ربـما تصـل إلى ٦٠ أو ٧٠ دولارا في الشـهر)

ظـل لي شـونج صامتًـا يرمـق الفتـى، وقـد كفـت أنامله المكتنـزة عن الحركـة تقريبًـا، لكنهـا أخذت تتـماوج ببطء كذيـل هرة؛ واسـتأنف ماك

حديثه وقد بدأ يفصح عن الغرض الذي جاء من أجله : ( هلا سمحت لنا بأن نستعير شاحنتك القديمة لنرتحل بها إلى حيث نهر كارميل كي نجمع الضفادع للعزيز دوك؟)

فابتسم لي قائلاً : ( للأسف، الشاحنة قد أصابها عطل ولم تعد تعمل)

ارتبك ماك للحظة لدى سماعه ذلك، إلا أنه مالبث أن استعاد رشده، فأخرج إذن الحصول على البنزين وأشهره أمام عيني لي قائلا: ( انظر، إن دوك في حاجة إلى الضفادع فعلا، ولقد منحني ذلك الإذن من أجل تلك الغاية، ولا أستطيع أن أخذله.... إن جاي لميكانيكي بارع حقًا فإن هو تمكن من إصلاح سيارتك وعادت تعمل من جديد، فهل تسمح لنا حينها باستعارتها؟)

أرجع لي رأسه إلى الوراء كي يتمكن من تأمل ماك عبر عويناته النصفية كعادته، وأخذ يفكر لهنيهة، إن العرض جيد بالنسبة له، فالشاحنة معطلة بالفعل، وكان يعلم أن جاي بالفعل ميكانيكي بارع، كما أن إذن البنزين يُعدُّ دليلاً على صدق ماك فيما يقول.... فسأله لي : ( كم من الوقت ستستغرق رحلتكم؟)

( نصف يوم، أو ربما يوم بأكمله، على أية حال نحن لن نعود أدراجنا قبل أن نجمع الضفادع المطلوبة)

كان لي شونج قلقا، لكنه لم يكن أمامه حل آخر سوى الموافقة، فقال أخيرًا : ( حسنًا، لابأس).

فأجابـه ماك : ( عظيـم، كنت أدرك أن دوك يمكنـه الاعتماد عليك... سـوف أطلـب من جاي البـدء في إصلاح الشـاحنة فورًا)

وهـم ماك بمغـادرة الـدكان، إلا أنه توقـف ثانية وقال : ( بالمناسـبة، سـوف يدفـع لنا دوك خمسـة سـنتات عـن كل ضغدعة، ولسـوف نجمع لـه مـا بـين سـبعمائة إلى ثمانمائـة ضغدعـة، فـما رأيـك أن تعطنـي زجاجة مـن مـشروب «أولـد تينيس شـوز» عـلى أن أنقـدك ثمنها حينـما نحصل عـلى نقودنا مـن دوك؟)

( لا).

***

# -١٠-

بـدأ «فرانكـي» يـتردد على المختـبر البيولوجـي الغربي منـذ أن كان في الحاديـة عـشر مـن عمـره. في البداية أمـضى أسـبوعًا أو نحو ذلـك واقفًا خـارج الدور الأرضي مكتفيًّا بالتطلع عبر بابـه، ثم أنه تجرأ في أحد الأيام ودلـف عـبر البـاب... وبعد عـشرة أيـام كان فرانكـي داخـل المختبر...

كان الفتـى ذو عينـين كبيرتـين وواسـعتين جـدًا وشـعر أشـعث مغبر داكـن اللـون خشـن الملمـس، أما يـداه فكانتـا متسـختين تمامًا.

انحنـى الفتـى والتقـط إحـدى بقايـا قطـع الخشـب ووضعهـا في صفيحـة القمامـة، ثـم نظـر إلى دوك الـذي كان عاكفًـا عـلى لصـق عـدد مـن البطاقـات التعريفيـة عـلى بعض آنيـة حفـظ الكائنات.. لقـد احتاج فرانكـي إلى ثلاثـة أسـابيع كـي يصـل إلى ذلـك الموضـع ويعمـل داخل المختـبر، ثلاثـة أسـابيع كان يـتردد فيهـا عـلى المـكان، إلى أن خاطبه دوك ذات يـوم وسـأله : ( مـا اسـمك يـا فتـى؟)

( فرانكي)

(أين تحيا؟)

( هناك) وأشار نحو التل.

(ولماذا أراك خارج المدرسة الآن؟)

(أنا لا أذهب إلى المدرسة)

(ولما لا تذهب؟)

(إنهم لايريدونني هناك)

(إن يداك شديدتا الاتساخ، لماذا لاتغسلهما؟)

فبدا الفتى وكأنما قد جرحت مشاعره، فانطلق إلى حوض الغسيل وأخذ يفرك يداه وينظفهما بقوة، ومنذ ذلك الحين لم يكف عن فرك يداه بشدة يومًا بعد يوم..

ومن وقتها كذلك ظل يتردد على المختبر في كل يوم دون أن يتبادل أحاديث مع دوك إلا لمامًا، وقد تحقق دوك من صدق ما أخبره به فرانكي عن نفسه، حيث هاتف إدارة المدرسة بنفسه وعلم منهم أنهم لا يرحبون بوجود الفتى بها، حيث كان يعاني من صعوبات في التعلم ومشكلات في القدرة على التمييز، ومن ثم فلم يكن له مكان في المدرسة. والحق أن الفتى لم يكن بأحمق أو غبي، كذلك لم يكن يشكل خطورة من أي نوع، إلا أن أبويه، أو بالأحرى والدته، لم يكن لديها أي استعداد لتحمل نفقات تعليمه.

لم يكن فرانكي ينام بالمختبر عادة، إلا أنه كان يقضي جُلَّ يومه به، وفي بعض الأحيان كان ينسل إلى صندوق النجارة والأخشاب وينام به، لكن ذلك غالبًا ما كان يحدث حين يكون هناك خطب ما في بيته.

وفي إحدى المرات سأله دوك : ( لماذا تأتي إلى هنا؟)

فأجابه الفتى : ( لأنك لاتضربني، وأحيانا تعطني بعض المال)

(وهل يضربونك في البيت؟)

(هناك دومًا رجال في البيت، بعضهم يقوم بضربي ويأمروننني بالخروج من المنزل، وبعضهم الآخر يعطني خمسة سنتات ويطالبونني كذلك بالخروج)

(وأين أبوك إذن؟)

(مات) قالها الفتى في شئ من الغموض

(وأين أمك؟)

(مع هؤلاء الرجال في المنزل)

ومنذ ذلك الحين تولى دوك مهمة الاعتناء بالفتى وتنظيفه، فقام بتقصير شعره وتهذيبه، وكذلك بتنظيفه من القمل، ومن دكان لي شونج ابتاع للغلام بنطالاً وسترة مقلمة ، ومن وقتها أغرم الفتى بدوك وصار عبدًا له، حتى أنه في إحدى الأيام صاح قائلاً : (إنني أحبك.. أحبك)

لقد كان فرانكي يرغب حقًا في العمل بالمختبر، وصار يقوم بكنس الأرض يوميًّا، لكنه للأسف ما كان بقادر على تنظيفها بشكل تام؛ كذلك حاول أن يساعد دوك على تصنيف كمية من جراد البحر على حسب حجمه، وكان كل ماعليه فعله هو تجميع كل مجموعة

مـن نفـس الحجـم معًـا في أوانٍ منفصلـة، وقـد حـاول فرانكـي جاهـدًا أن يـؤدي تلـك المهمـة، وبـذل جهـدًا خالصًـا في سـبيل ذلـك، إلا أنه لم يوفـق، وعجـز عـن أداء تلـك المهمة، فلـم يكـن في مقـدوره التمييز بين الأحجـام المختلفـة، وكان دوك يقـول لـه : ( لا... انظـر يـا فرانكـي، ضـع كل واحـدة منهـم إلى جانـب إصبعك هكذا وقسـها عليـه، بحيث تتمكـن مـن معرفـة أي منها بطـول إصبعـك، وكل واحدة تجدهـا مماثلة لطولـه ضعهـا في نفـس المـكان مـع مثيلاتهـا، وبذلـك سـوف تنجـح في مهمتك )

فحـاول الفتـى مـن جديـد، إلا أن كل محاولاتـه بـاءت بالفشـل وبمجـرد أن اعتـلى دوك السـلم إلى الطابـق العلوي حتى انسـل فرانكي إلى صنـدوق النجـارة الكبـير وظـلّ ماكثـاً بـه لم يبارحـه طـوال فـترة ما بعـد الظهيرة.

إلا أنـه كان، بصفـة عامـة، فتـى طيـب لطيـف المعـشر، وقـد تعلـم إشـعال السـيجار لـدوك، حتـى أنـه تمنـى لـو أن دوك يدخـن طـوال الوقـت كـي يتمكـن فقـط مـن فعـل الشـئ الـذي يجيـده وإشـعالها له.

أمـا أكثـر مـا كان يسـعد قلـب فرانكـي فهـي الحفـلات التـي كان دوك يقيمهـا في الطابـق العلـوي مـن المختـبر، حيـث يتجمـع النسـاء والرجـال، فيجلسـون ويتسـامرون، ومـن الفونوغـراف الكبـير تصدح تلك الموسـيقى التي تثير في نفسـه الخيالات وتسـتدعي في عقله مشـاهد جميلـة وغامضـة؛ حينهـا كان فرانكـي يتخـذ لنفسـه ركنـاً ركينـاً خلـف أحـد المقاعـد ويظـل قابعـاً بـه متخفيـاً، ومـن موقعه هـذا يتسـنى له أن

يرى ويسمع كل مايدور حوله ويندمج فيه بكل جوارحه، فيضحك، من مكانه الخفي، حين يضحك الجمع على نكات لم يفهمها، ويقطب جبينه في جدية حين تصبح نبرة الأحاديث جادة، فتجده وقد اعتلى وجهه الاهتمام والتركيز.

ذات يوم، ارتكب فرانكي فعلاً شديد الحمق...

فقد أقام دوك ذات مرة حفلاً صغيراً في المختبر، ووقف في المطبخ منهمكاً في صب الجعة، حين ظهر فرانكي ووقف بجانبه، ثم قام بإلتقاط إحدى الكؤوس واتجه به عبر الباب نحو فتاة كانت تجلس على مقعد كبير هناك، فتناولت الفتاة الكأس وقالت في امتنان وهي تبتسم لفرانكي : ( أه!.. شكرا لك)، وكان دوك قد جاء من المطبخ، فقال لها : ( إن فرانكي لذو نفع عظيم بالنسبة لي)

ولم ينس فرانكي ذلك الحديث القصير البتة، بل يقلب ما حدث في ذهنه المرة تلو الأخرى، ويتذكر كيف أخذ الكأس، وهيئة الفتاة، وشكلها، وصوتها وهي تشكره، وإطراء دوك عليه حين قال إنه ذو نفع عظيم له.... وقد ظلت تلك الجملة تحديدًا يتردد صداها في عقل فرانكي وهو يكاد لا يصدق أن ذلك حدث فعلا.. : (آه، ياإلهي!)

وبعد ذلك الحفل بفترة، أدرك فرانكي أن دوك ينتوي إقامة حفلاً آخر كبير، فقد قام بشراء كميات كبيرة من اللحم، وكذلك الجعة، ثم إنه طلب من فرانكي أن ينظف الدور العلوي بأكمله..

هنا بدأت خطة رائعة تتكون في ذهن الغلام وتتبلور ملامحها، فأخذ يعدل فيها، ويتخيل ما ستكون عليه حين يقوم بتنفيذها،

وظـل يقلـب تفاصيلهـا في عقلـه مرة بعـد أخـرى، حتى اختمـرت تماماً وباتـت واضحـة جليـة في ذهنـه.

بـدأ الحفـل، وأخـذ الضيـوف يتوافـدون عـلى المختـبر وقـد اتخـذوا مواضعهـم في الغرفـة الأماميـة، فتيـات، ونسـاء شـابات، ورجـال...

وكان عـلى فرانكـي أن يصـبر حتى يصبح وحـده تمامًـا في المطبخ، فما إن أتيـح لـه ذلك أخـيراً حتى قـام بإغـلاق البـاب وشرع في تنفيذ خطته الموعـودة، فتنـاول صينيـة التقديم، وبـدأ في وضع الكـؤوس عليها دون أن يكـسر أي منهـا، ثـم أنـه تنـاول زجاجـات الجعـة وبـدأ في صبهـا في الكـؤوس، الواحـد تلو الآخـر، وكان يتأنى حتى يخمد زبـد الخمر الفائر قليـلاً ثم يسـتأنف المـلء، ومن الخـارج، وراء باب المطبـخ المغلق، كانت أصـداء أحاديـث القـوم ونغـمات الموسـيقى المنبعثـة مـن الفونوغـراف تتناهـى إلى مسـامعه... فما إن انتهـى من ملء الكـؤوس وصارت خطته جاهـزة للتنفيـذ، أخذ شـهيقاً عميقـاً ثم فتـح الباب، فاندفعـت أصوات الموسـيقى والدردشـة صاخبـة، فحمـل الصينيـة الثقيلـة بحملهـا بـين يديـه وخـرج عبر البـاب إلى حيـث الغرفـة المزدحمـة، وتقدم نحـو الفتاة الشـابة التـي سـبق وناولهـا كأس الجعة في الحفلـة الماضية فشـكرته ممتنة، إلى أن بلـغ موضـع جلوسـها، فتوقـف أمامهـا مبـاشرة... وهنـا، حدث كل شـئ بسرعـة، فقـد اضطربت يـداه وخانتـه عضلاته، حتـى أعصابه خذلتـه، وكأن مسـتقبلاته العصبيـة قد ماتـت تمامًا فلم تسـتجب لأوامر عقلـه بالتماسـك والثبـات وعـدم إفسـاد كل شـئ، فسـقطت الصينية بما تحويـه من كؤوس الـشراب على الفتـاة، وتجمد فرانكـي في مكانه لهنيهة، قبـل أن يفيـق إلى صوابـه، فـما كان منـه إلا أن اسـتدار موليًّـا الأدبـار.

وجـم الجمع، وسـاد صمـت مطبـق الغرفة، حتـى أنهم سـمعوا وقع أقدامـه وهـو يقطـع الـدرج هبوطًـا نحـو القبـو، ثـم صـوت خرفشـة بسـيط، إلى أن عـاد الصمـت مـن جديـد.

خـرج دوك مـن الغرفـة وهبط الـدرج بهـدوء إلى حيث القبـو، حيث كان فرانكـي قـد اختبـأ في قـاع صنـدوق النجـارة، ومن فوقـه تراكمت أكـوام الخشـب، فوقـف دوك للحظـات في القبـو وقـد وصـل مسـامعه أنـين فرانكـي وانتحابـه مـن داخـل الصنـدوق، وظـل في وقفتـه تلـك لبرهـة مـن الوقـت، ثـم آثـر أن يعـود أدراجـه في صمت.

أمـا فرانكـي فقـد كانت فكـرة واحـدة فقـط تسـيطر عليـه حينها... أنـه لا يجيـد ولا يسـتطيع فعـل أي شـئ في الحيـاة.

***

# -١١-

كان لشاحنة لي شونج الفورد من طراز T تاريخ طويل حافل ، ففي عام ١٩٢٣ كانت تلك الشاحنة عبارة عن سيارة خاصة مملوكة لدكتور دبليو. تي. ووترز، والذي ظلّ يستخدمها لخمس سنوات، إلى أن باعها وهي في حال جيدة جدا لرجل يدعى «راتل» يعمل في مجال التأمين. ولم يكن السيد راتل رجلاً يتمتع بأي وعي أو حذر، فقد كان يقود السيارة بسرعة جنونية، كما كان من عادته أن يعاقر الخمر مساء السبت من كل أسبوع ثم يقود مخمورًا؛ وهكذا تضررت السيارة بسببه كثيرًا، وأصابها التلف، وتحطمت أجزاء منها، كما التوت مقدمتها وتجعدت.

ثم حدث أن قام السيد راتل باختلاس أموال أحد عملائه وفر إلى سان جوزيه، وهناك تمكنت الشرطة من إلقاء القبض عليه، وكان بصحبته امرأة شقراء، وتم إيداعه السجن في غضون عشرة أيام، أما السيارة فقد بيعت بعدما وصلت إلى درجة بشعة من التلف، وصارت متهالكة تمامًا وقد تحطم جسمها، حتى أن مالكها الجديد لم يجد أمامه سبيلا سوى أن يقسمها إلى شطرين ويضيف إلى مقدمتها جسم شاحنة.

كذلك قام ذلك المالك الجديد، وكان يدعى « فرانسيس ألمونز» بإنتزاع زجاجها الأمامي، حيث كان يحب أن تهب نسائم الهواء العليل على وجهه.

كان ألمونز رجلاً بائساً يحيا حياة تعسة حزينة، فقد كان رزقه شحيحاً لايكفي متطلباته المعيشية؛ صحيح أن أبوه كان قد ترك له قليل من المال، إلا أنه، مع مر الشهور وتوالي السنين، وعلى الرغم من كدِّه وكفاحه في العمل وحرصه على الإنفاق برشد دون بذخ أو إهدار، قد نفذ ماله ولم يتبق منه أي شئ، حتى أنه اضطر إلى بيع شاحنته المتهالكة تلك إلى لي شونج لقاء سداد فواتير البقالة المتراكمة عليه .

والحقيقة أن تلك الشاحنة، وقت أن إنتقلت ملكيتها إلى «لي» لم تعد سوى قطعة من المعدن مكونة من أربعة عجلات ومحرك قديم بالٍ متكرر الأعطال يحتاج إلى فني سيارات محنك خبير بمهنته، مع الكثير من الإصلاحات والصيانة، ولكن لي شونج قد أبى أن يدفع سنتاً إضافياً لإصلاحها، فظلت معطلة ملقاة دون أي استخدام يذكر خلف دكان البقالة، وقد نما العشب والطحلب بين عجلاتها.

وقد كان في إمكان أي فتى من فتيان «قصر فلوبهاوس» أن يصلح تلك الشاحنة ويعيد إليها الحياة من جديد، فقد كانوا جميعًا بارعين في أعمال صيانة السيارات، ولكن جاي كان الميكانيكي الأكثر مهارة بينهم جميعًا، وكان صاحب أنامل ذهبية بحق... كان بارعاً، موهوباً، قلما وُجِد من هو في مثل موهبته في تلك الحرفة؛ فهناك من الحرفيين

مـن يمتلكـون المهـارة الكافيـة لإصـلاح أي محـرك، لكن جـاي كان من فئـة أكثـر براعـة وحنكـة، فـما إن تمـس أصابعـه الواثقـة أي محـرك حتى يعمـل كأفضل مـا ينبغي.

وكثـيرا مـا كان الفتى يتولى مهام إصـلاح الآلات الكهربائيـة الدقيقة في المختـبر، ولـو أنـه أراد، لحصـل على عمل مسـتديم في مصانـع تعليب السرديـن والتـي تحتـاج آلاتهـا العتيقـة المتهالكـة لصيانـة وإصـلاح مسـتمرين مـن أيـدي خبـيرة كالتـي يملكهـا جـاي، خاصـة وأن مُلاك تلـك المصانـع غير مسـتعدين لدفع سـنت واحـد لا يرد إليهم في شـكل أربـاح صافيـة كل عـام، وعـادة مـا تحتـل الآلات والمعـدات مرتبـة أقل أهميـة لهـم ممـا تبـدو عليـه في السـجلات الرسـمية!، لـذا فقـد كانـوا يعتمـدون اعتـماداً كليـاً عـلى آلاتهـم البالية ومـا كانـوا ليكلفوا أنفسـهم شراء آلـة جديـدة إلا فيـما نـدر.

أيقـظ مـاك رفاقـه في سـاعة مبكـرة مـن الصبـاح، ومـا إن تناولـوا قهوتهـم حتـى انطلقـوا إلى حيـث تقـع شـاحنة لي شـونج بـين العشـب، فشـمر جـاي عـن سـاعديه وبـدأ العمـل...

ركل جـاي العجلتـين الأماميتـين للشـاحنة بقدمـه، وقـد كانتـا مرفوعتـين عـن الأرض بقطعة من الخشـب، ثم قـال لرفاقه : ( ليسـتعر أحدكـم منفاخـاً ثـم قوموا بإعـادة تعبئـة تلك الإطـارات بالهـواء) ، ثم قـام بوضـع عصـا في خـزان البنزين أسـفل اللـوح الذي كان تـم وضعه في السـيارة ليحـل محـل المقاعـد، وبمعجزة ما اكتشـف أنه لا يـزال هناك حـوالي نصـف بوصة مـن البنزين في الخـزان؛ ثم جـاء دور المهـام الأكثر

عسراً ومشقة، فأخرج الأسلاك من موضعها وبدأ في إعادة ضبطها حتى أصلح الأعطال بها، ثم أعادها إلى أماكنها، ثم فتح (كاربراتير) الشاحنة لفحص مسار البنزين، كما قام بفحص المكابح وذراع التحكم للتأكد من أنها غير معطلة أو صدئة.

ثم جاء أحد الفتية بالمنفاخ، فأخذ إيدي وجونز يتعاونان على إعادة تعبئة الإطارات، في حين أخذ جاي ينظف المحرك ويفحص أجزائه، إلى أن رفع رأسه عن السيارة قائلاً : ( سوف نحتاج إلى اثنتين من البطاريات الجافة، فليذهب أحد منكم إلى لي شونج علّه يعطنا إياهما)

فانطلق ماك من فوره إلى دكان البقالة، ثم ما لبث أن عاد سريعًا ومعه الرفض القاطع من لي. فتفكر جاي قليلاً، ثم قال : ( إنني أعرف أين نجد بطاريتين وفي حالة جيدة أيضًا، لكنني لن أذهب لإحضارهما)

فسأله ماك : ( أين؟)

(في قبو منزلي. إنني أستخدمها لتشغيل جرس الباب الأمامي للمنزل، فإن تطوع أحدكم بالذهاب إلى المنزل والتسلل إلى القبو دون أن تلمحه زوجتي فسوف يجدهما أعلى الدعامة الجانبية على الجانب الأيسر. ولكن رجاءً، بحق الإله، لاتدعوا زوجتي تمسك بكم)

فأخذ الشباب يتباحثون حول من سيقوم بتلك المهمة، إلى أن وقع الإختيار على إيدي، فانطلق نحو منزل جاي، في حين أخذ الأخير يصيح : ( إذا ما أمسكت بك زوجتي فلا تذكر سيرتي البتة).

وفي تلك الأثناء لحين الإتيان بالبطاريات، إنشغل جاي باختبار الوصلات والأربطة، ووجد أن إحدى الدواسات لاتعمل بشكل سليم حيث كانت لاتصل إلى أرضية السيارة عند الضغط عليها، مما يعني أن أحد أربطتها غير سليم، كما كانت دواسة الفرامل هي الأخرى تعاني من خلل يجعل استخدامها عند الحاجة أمراً متعذراً، في حين كانت دواسة الارتداد تعمل بشكل جيد، وهو أمر حسن بالنسبة لسيارة فورد من طراز **T**، حيث تمثل دواسات الارتداد هامش الأمان للسيارة، خاصة حين تكون الفرامل معطلة فيمكن حينها استخدام دواسة الارتداد كفرامل؛ كذلك يمكن استخدام دواسة الارتداد للصعود إلى الأماكن المرتفعة بشكل إنعكاسي خلفي في حال تعطل ناقل السرعات بالسيارة. وهكذا، وجد جاي أن الشاحنة، بصفة عامة، صالحة للاستخدام.

وحين عاد إيدي بالبطاريتين دون مشاكل، شعر الفتية بالتفاؤل، فقد كانت زوجة جاي في المطبخ حين نجح إيدي في التسلل إلى القبو في هدوء - وهي أمور يجيدها بحق- وتمكن من الحصول على البطاريتين.

قام جاي بتوصيل البطاريتين لتشغيل السيارة... لقد كان هذا الفتى معجزة حقيقية في عالم ميكانيكا السيارات، بل إنه سيد المحركات والآلات جميعاً، ولو أن لركام السيارات العتيقة الخربة أن تعود للحياة وتعلو أصوات محركاتها من جديد فسوف يكون الفضل إلى حد كبير لجاي ورفاقه.

وفي براعة مذهلة أخذ جاي يختبر السيارة ويدير المحرك، إلى أن أفاقت من سباتها الطويل، وانبعث صوتها وكأنها تعلن عودتها للحياة في جلجلة ونشوة، وكأنما هي تدرك أنها قد عادت على أيدي رجل يفهمها ويحبها.

ها قد تم إصلاح الشاحنة، وصارت صالحة للتحرك، ولكن تبقت مشكلتان أمام الفتية، إحداهما قانونية والأخرى تقنية؛ فأما القانونية فقد تمثلت في أن الشاحنة لم تكن تحمل لوحة أرقام جديدة للسير على الطريق، لكن الفتية قد تحايلوا على تلك المشكلة بأن قاموا بتعليق عدد من الخرق البالية في الخلف بحيث تتدلى لتغطي اللوحة الخلفية ذات الأرقام القديمة، أما اللوحة الأمامية فقد لطخوها بكميات من الطين بحيث يتعذر قراءتها والتحقق منها. وأما المشكلة الثانية، التقنية، فهي أن الشاحنة كانت بلا مصابيح!.

وبسرعة أخذ الشباب يجهزون أنفسهم ويعدون العُدّة لرحلتهم المنشودة، ولم يصطحبوا معهم سوى بعض شبكات الضفادع ذات المقابض الطويلة، وعدد من الأكياس الخيشية لوضع الصيد بها، كما لم يثقلوا أنفسهم بأخذ كثير من الزاد والشراب – على عكس مايفعل الصيّادون القادمون من المدن عادة – حيث ارتأى ماك أن يأخذوا معهم أقل القليل، وقد استنتج، وكان محقا في ذلك، أن الطعام والشراب إنما يأتي من الريف إلى المدينة وليس العكس، وبالتالي فلا حاجة لهم لكثير من الطعام وهم ذاهبون إلى الوادي، فاستقر قرارهم على أن يكتفوا برغيفين من الخبز وما تبقى من شراب في إبريق إيدي.

وهكـذا، اسـتقل الجميـع الشـاحنة، في حـين احتـل جـاي مقعـد السـائق ومـاك إلى جانبـه، وبـدأوا في التحـرك، حيـث عـبروا بجانب لي شـونج، ثـم اجتـازوا السـاحة الخاويـة، وشـقوا طريقهـم بصعوبـة بـين الأنابيـب الضخمـة، في حـين لـوّح لهـم السـيد مالـوي مـن مجلسـه أمام المرجـل. وفي الشـارع اضطـر جاي لتهدئـة السرعـة إلى أن توقف، حيث كانـت الإطـارات الأماميـة مهترئة لدرجة لم تتحمل معها مشـقة السـير، فتمـزق نسـيجها على طـول الطريـق، لذا فعـلى الرغم من حماسـة الفتيان الشـديدة للرحلـة إلا أنهـم لم يتمكنـوا مـن الانطـلاق بها قبـل العصر.

وعنـد محطـة «ريد ويليامـز» للوقود، توقفـت الشـاحنة، وترجل ماك منهـا، حيـث قـدّم الإذن الكتابي الذي أعطـاه إياه دوك إلى «ريـد» قائلا : ( إن دوك لم يكـن لديـه فئـات صغـيرة من العملـة كي نبتاع بهـا الوقود، لـذا فقـد أرسـل معـي ذلـك الإذن لـك، وإننـي لأكـون ممتنـاً إن قمـت بتزويد الشـاحنة بخمسـة جالونـات وأعطيتني دولارًا بدلاً من الخمسـة جالونـات الأخـرى، ذلـك بناءً عـلى رغبـة دوك. إنه ذاهـب إلى الجنوب كـما تعلـم، فلديـه صفقة ليتمهـا هناك)

فافـتر ثغـر «ريـد» عن إبتسـامة ثم قـال : ( أتعلم؟، لقـد أدرك دوك أن هنـاك شـيء ما سـوف يقـع من قبيـل ماتطلبـه الآن، لـذا فقـد هاتفني ليلـة أمـس وأخبرني بما عـلي فعلـه. إنه فتـى ذكي)

(حسـناً، امـلأ خـزان البنزيـن بالعـشرة جالونـات كاملة) قالهـا ماك، ثـم عـاد وإسـتدرك : ( لا، مهـلاً، لـن يتحمل الخـزان كل تلـك الكمية

وسوف ينسكب. إذن، ضع خمسة جالونات وأعطنا الخمسة الباقية في صفيحة مختومة)

فابتسم الرجل من جديد قائلاً : ( لقد استنتج دوك ذلك أيضاً)

( حسناً. ضع العشرة جالونات كاملة في الخزان دون أن تنقص نقطة واحدة)

ثم تحركت الشاحنة من جديد، ولكن ليس عبر وسط مونتيري، فقد ارتأى جاي أن يسلكوا الشوارع الخلفية تجنباً لأي مشكلات قد تصادفهم بسبب لوحة الأرقام أو عدم وجود مصابيح بالسيارة، ولو أنهم كانوا قد اتخذوا المسار العادي لاضطروا لقطع مسافة أربعة أميال عبر الطريق الرئيس مما كان سيجعلهم عرضة للوقوع في قبضة أي من أفراد الأمن على الطريق دونما مهرب أو منجى سوى بالانعطاف إلى طريق وادي كارميل المهجور، لذلك فقد اختار جاي أن يتخذوا سبيلهم عبر شارع خلفي أدى بهم في النهاية إلى الطريق الرئيس عند منطقة «بيتر جيت» التي تقع قُبيل تل كارميل مباشرة.

وقد حاول جاي أن يصعد التل، إلا أن الشاحنة لم تكن حالتها تسمح بذلك، فالأربطة مهترئة بما لا يساعد على اتخاذ الطرق الصاعدة على الإطلاق، لذا لم يجد الفتى من سبيل أمامه سوى الاستدارة بالشاحنة والصعود ببطء بشكل عكسي ارتدادي إلى الخلف باستخدام دواسة الانعكاس، وقد نجح في ذلك فعلاً إلى حد كبير، أو كاد، صحيح أن مُبرِّد المحرك قد بدأ يغلي، إلا أن معظم

خبراء السيارات يعرفون جيدًا أن سيارات الفورد من طراز T لا تعمل بشكل جيد إلا إذا أخذ المُبرِّد في الغليان...

والحقيقة أنه ينبغي على واحد من الكُتَّاب أن يكتب موضوعًا تفصيليًّا عن الآثار الأخلاقية والمادية والجمالية للسيارة الفورد طراز T على الأمة الأمريكية، فهناك جيلين على الأقل من الأمريكان يملكون من المعلومات عن الدائرة الكهربائية للسيارة الفورد أكثر مما يملكونه عن الأعضاء الجنسية للمرأة، ويعرفون نظام ناقل السرعات بها أكثر مما يعرفون عن النظام الشمسي وحركة النجوم. حتى مفهوم الملكية الخاصة قد اختفى جزءاً أصيلاً منه مع ظهور السيارة الفورد من طراز T، فلم تعد معدات الميكانيكا ملكاً لصاحبها فقط، وبات منفاخ الإطارات يؤول لآخر شخص التقطه من على الأرض لاستعماله.

أما فكرة المنزل وفقاً للفكر الأنجلوساكسوني العتيد، فقد تداعت هي الأخرى ولم تقم لها من بعد ذلك قائمة، وكيف لا وقد حبلت أمهات معظم أطفال تلك الحقبة بأبنائهن داخل هذه السيارات، بل إن عددًا كبيرًا منهم قد وُلِد بها!.

صعدت الشاحنة عبر التل واجتازت «قمة جاك»، وكادت أن تعبر آخر وأعلى مطلع بالتل، حينما بدأ المحرك في إصدار أصوات حشرجة، ثم سكن تماماً، فاضطر جاي حينها، والذي كان يصعد بالشاحنة صعوداً ارتدادياً إلى الوراء، أن يعاود الهبوط أمامياً عبر التل على مسافة خمسين قدم، ثم انعطف نحو مدخل طريق» قمة جاك»، وسأله ماك : ( ما الأمر؟).

( أظنه الكاربراتير) قالها جاي وقد أخذ المحرك يصدر صوت صفير وبدأ هسيس البخار يعلو.

ومن المعروف أن كاربراتير السيارة الفورد طراز T ليس معقدًا في تركيبه، إلا أنه يحتاج أن تكون كافة أجزائه سليمة كي يعمل، خاصة الصمام والإبرة، حيث يجب أن يستقر سن الإبرة في الثقب المخصص له بالصمام وإلا لن يعمل الكاربراتير.

أمسك جاي بالإبرة، فاكتشف أن السن مكسوراً، فصاح في عصبية : ( بحق الجحيم، كيف حدث ذلك؟!)

(لعنة. لابد أنها لعنة) قالها ماك، ثم : ( هل في مقدورك إصلاحه؟)

( لا. ينبغي أن أحصل على إبرة أخرى )

( وكم ثمنها؟)

( دولار واحد تقريباً لو أنها جديدة، وربع دولار لو ابتعنا إياها من أحد بائعي الخردة)

فسأله ماك من جديد : ( هل معك دولار؟)

( نعم)

( حسناً. اذهب لشرائها وعُد لنا بأسرع ما يمكن. سوف ننتظر هاهنا)

( بالتأكيد ستنتظرون، فالشاحنة لن تتحرك دون إبرة جديدة)

قالها جاي وهو يتجه نحو الطريق ليستوقف سيارة تقله إلى السوق، وأخذ يشير إلى سيارة، فالثانية، فالثالثة ، إلى أن توقفت

واحـدة، ورآه الفتيـة يسـتقلها ويبتعـد، ثـم لم يـروه بعدهـا لمـدة مائـة وثمانـين يومـاً.

إن الحيـاة لحبـلى دومًـا بالمفاجـآت، ومليئـة باحتـمالات لا حـصر لهـا ولا نهايـة، وإلا فكيـف يمكـن تفسـير مـا وقـع لجـاي؟!

فقـد تعطلـت السـيارة التـي اسـتقلها قبـل بلوغهـا مونتـيري، ولأن جـاي ميكانيكـي بـارع فقـد اسـتطاع إصلاحهـا ببسـاطة ويـسر، ولأنـه قـام بإصلاحهـا فقـد أراد مالكهـا أن يكافئـه، فدعـاه إلى كأس مـن الـشراب في حانـة «جيمـي بروشـيا»، وقـد صـادف أن ذلـك اليوم تحديـداً هـو عيـد ميـلاد جيمـي... ولـولا تلـك المصادفـات جميعًـا لما وقعـت سلسـلة الأحـداث التاليـات التـي مـا كانـت لتقـود جـاي، من بـين ملايـين الاحتـمالات اللامتناهيـة، سـوى إلى سـجن سـالیناس!. فقـد حـدث أنّ اثنـين ممـن يسـاعدون جيمـي في الإعـداد لحفـل عيـد ميـلاده قـد تشـاجرا سـويًّا، فهـم صديـق جـاي الجديـد - مالـك السـيارة الـذي دعـاه إلى الـشراب- والـذي كان يجيـد فنـون المصارعـة اليابانيـة «الجـودو»، بالتدخـل ضـد أحدهمـا منـاصرة للآخـر، فـما كان منـه إلا أن انكـسر معصمـه؛ كذلـك دخلـت فتـاة شـقراء إلى الحانـة، وفي أحـد الأركان كان شرطيًـا يجلـس وقـد اعترتـه آلام بالمعـدة.... كلهـا أحـداث صغـيرة لم يكـن ثمـة رابـط فيـما بينهـا، إلا أنهـا قـد جـرت جميعًـا لتصـب في نهـر واحـد، فقـد شـاء القـدر ألا يشـارك جـاي أصدقـاءه في رحلـة صيـد الضفـادع، فوضـع في طريقـه كل ذلـك الكـم مـن البـشر والمشـكلات ليحـول بينـه وبينهـم؛ ثـم كان أن بلغـت الأحـداث ذروتهـا بـأن وقـع حريـق في إحـدى محـلات هولمـان

المتخصصة في بيع الأحذية، واندفع الجمع يتخطفون الأحذية الموجودة في واجهة المحل في حين انطلقت صافرات الحريق، وقد سمعها الجميع وهرعوا فارين من المكان، فيما عدا جاي، كان هو وحده الذي لم يسمع الإنذار، وحينما حضرت الشرطة إلى المكان لم يجدوا سواه بواجهة المحل وفي قدميه فردة من حذاء بني من ماركة «أوكسفورد» والفردة الأخرى من حذاء جلدي موشى بقطعة من الجوخ الرمادي في أعلاه.

أما عن الفتية، فلما طال بهم الانتظار وحلّ عليهم الليل وهبت الرياح الباردة من جهة المحيط، وهم بعد على الطريق بجانب الشاحنة، قاموا بإشعال بعض النيران طلباً للتدفئة، وجلس الشباب حولها وأخذوا يتطلعون نحو السماء المتبدية من بين غصون أشجار الصنوبر الممتدة فوقهم. ثم إنهم أخذوا يتناقشون حول الأسباب التي يمكن أن تكون قد تسبّبت في تأخر جاي عنهم كل هذا الوقت والعقبات المحتمل أن تكون قد صادفته وحالت بينه وبين العثور على مبتغاهم... ومع مرور الوقت واشتداد الظلام، قال ماك : (كان لابد لأحدنا أن يذهب معه)..

وعند حوالي الساعة العاشرة مساءً، نهض إيدي قائلاً : ( هناك موقع للبناء على بعد بضعة خطوات على التل. سوف أذهب لهناك وأرى ما إذا كان لديهم قطع غيار لسيارات فورد طراز **T** ).

***

# -١٢-

لطالما كانت مونتيري ذات تاريخ أدبي متألق مجيد، فلاتزال المدينة تتذكر بفخر واعتزاز كيف عاش بها الكاتب روبرت لويس ستيفنسون (*)، ولا شك أن رواية «جزيرة الكنز» إنما تعكس الطبيعة الجغرافية لميناء لوبوس ومحيطها الساحلي.

وقد مرّ العديد والعديد من رجال الأدب على «كارميل» في الوقت المعاصر، إلا أنهم لا يحملون نفس النكهة القديمة، ولا نفس العظمة والرفعة التي تمنح الأدب الرفيع معناه الحقيقي...

---

*** - روبرت لويس بلفور ستيفنسون : روائي وشاعر وكاتب اسكتلندي تخصص في أدب الرحلات. ولد في ١٣ نوفمبر ١٨٥٠وتوف في ٣ ديسمبر ١٨٩٤.**

**من أشهر أعماله :**

**جزيرة الكنز.**

**دكتور جيكل ومستر هايد.**

**حديقة أشعار الطفل.**

**المخطوف.**

**السهم الأسود.**

**وغير ذلك من أعمال عديدة**

ولهذا كله، فقد اندلع الغضب في نفوس أبناء البلدة ذات مرة بسبب حادث اعتبروه بمثابة إهانة كبرى لأحد الكُتَّاب، وهو حادث متعلق بوفاة الكاتب الساخر العظيم «جوش بيللينجز» (*) ...

ففي موقع مكتب البريد الحالي، كان يقع واد عميق تجري به المياه، ومن فوقه كان جسر صغير للمشاة، وعلى إحدى جانبي الوادي كان يقع بناء قديم رائع من الآجر، وعلى الجانب الآخر كان منزل طبيب البلدة الذي كان يتولى كافة الحالات المرضية بها، وكذلك حالات الولادة والوفاة، كما كان يعمل بالطب البيطري وعلاج الحيوانات أيضًا. ولأنه كان قد درس الطب في فرنسا، فقد اشتغل أيضًا بنوع آخر جديد من الممارسات الطبية، يتمثل في تحنيط أجساد الموتى قبل دفنهم، وقد تباينت آراء أبناء البلدة في مثل تلك الممارسة، فالطاعنين في السن رأوا فيها لفتة عاطفية، في حين اعتبرها البعض بمثابة إهدار للوقت والمال بلا طائل ولا فائدة، أما المتدينون فقد عدّوها أمرًا مخالفًا للدين حيث لا توجد أي إشارة تنص على إتيان ذلك الفعل في أي من الكتب المقدسة.

إلا أن الأسر الثرية والأكثر تمدناً قد استحسنت تلك الممارسة كثيرًا، فانتشرت في أوساطهم حتى بدا وكأنها ستصبح موضة العصر عما قريب.

في صباح إحدى الأيام، كان السيد «كارياجا» العجوز يهبط عبر التل قادماً من منزله متجهاً نحو شارع ألفارادو، وكان على وشك

---

*** - جوش بيللينجز : اسمه الحقيقي «هنري ويلر شو»، كاتب أمريكي ساخر ، و مُحاضِر، ولد في ٢١ أبريل ١٨١٨ في لينسبوروغ في الولايات المتحدة، وتُوفي في ١٤ أكتوبر ١٨٨٥ في مونتيري في الولايات المتحدة. «المترجمة».**

أن يعبر جسر المشاة حين لفت انتباهه طفل صغير وكلب يتخذان طريقهما صعوداً من الوادي العميق، وكان الطفل يحمل في يديه كبداً!، في حين يجر الكلب أمعاء بين أسنانه تتدلى بقاياها على الأرض وفي آخرها كانت المعدة لاتزال متصلة بها. فأبطأ السيد كارياجا الخطى، ثم ألقى التحية على الطفل في لطف : ( عمت صباحاً)

(عمت صباحاً ياسيدي)، رد الطفل التحية في أدب، وقد كان الأطفال في ذاك الزمان لايزالوا يتحلون بالأدب والكياسة.

(إلى أين تذهب بهذا الكبد؟)

( سوف أذهب أولاً لرؤية بعض الأصدقاء، ثم سأتوجه إلى الصيد حيث سأستخدم قطعاً منه كطُعم )

فابتسم السيد كارياجا قائلاً : (وهل سيتوجه الكلب أيضًا لصيد الأسماك؟)

( إن الكلب هو من وجد تلك الأشياء. إنها ملكه، لقد عثرنا عليها في الوادي)

فابتسم السيد كارياجا من جديد، ثم تابع مسيره وقد أخذ عقله يتفكر في الأمر.. ذلك الكبد ليس كبد بقرة، فهو صغير جدًا، كذلك ليس كبد عجل، فلونه شديد الحمرة أكثر من اللازم، كما أنه ليس كبد خروف...

وعند الزاوية التقى السيد «كارياجا» بالسيد «رايان»، فسأل الأول الثاني : ( هل تُوفي أحد في مونتيري ليلة أمس؟)

( على حد علمي، لا، لم يمت أحد أمس)

(وهل قُتل أحدهم؟)

( لا )

ثم أنهما سارا معًا، فأخبره السيد كارياجا بقصة الولد الصغير والكلب.

وفي الحانة، ذلك المبنى المشيد من الطوب الآجر، احتشد عدد من أبناء البلدة يتبادلون الأحاديث الصباحية، وهناك حكى السيد كارياجا القصة من جديد، وما إن انتهى حتى دلف شرطي من الباب إلى داخل الحانة، فسأله كارياجا عما إذا كان أحدًا قد تُوفي في البلدة ليلة أمس، وقد جاءه الجواب هذه المرة : ( لم يمت أحد من أبناء مونتيري، ولكن جوش بيللينجز قد تُوفي في فندق ديل مونت)

ساد الصمت كل من في الحانة، وقد جالت في أذهانهم جميعاً نفس الفكرة...

لقد كان جوش بيللينجز كاتبًا عظيمًا، وقد شرف مونتيري بأن يقضي آخر ساعات حياته بها، إلا أنه قد أُهين إهانة فظيعة..

ومن دون نقاش، تم تشكيل مايشبه وفدًا من الحاضرين، وبسرعة توجه الرجال المتجهمون نحو الوادي، ثم عبروا الجسر إلى حيث منزل الطبيب، فأخذوا يقرعون بابه بعنف أيقظه فزعًا وانتزعه انتزاعًا من أعماق سباته، وكان قد انهمك في العمل طوال الليلة السابقة وحتى ساعة متأخرة ؛ فهرع الرجل إلى الباب، مشعثاً، وهو

بعـد لايـزال في منامتـه، وفتـح البـاب ليجد الجمـع في مواجهتـه، فبادره السـيد كارياجـا مقطبًـا جبينـه في غضـب واضـح : ( هل قمـت بتحنيط جثـمان جـوش بيللينجز؟)

(نعم، نعم... لماذا؟!)

( وماذا فعلت بأحشائه؟)

( ألقيت بها في الوادي، كما أفعل دومًا)

فأجـبره القـوم عـلى ارتـداء ملابسـه بسرعـة وأخـذوه إلى حيـث الشـاطئ كـي يلحقـوا بالغـلام قبـل أن يسـتخدم الكبـد والأمعـاء في الصيـد، وقـد كانـوا يخشـون أن يكـون الطفـل قـد سـبقهم إلى عـرض البحـر وفـات الأوان، ولكـن لحسـن الحـظ كان الطفـل عـلى وشـك أن يبحـر بالمركـب حين وصل الجمـع، وكانـت الأمعاء على الرمـال، حيث تركهـا الكلـب.

ثـم إن الرجـال قـد أجـبروا الطبيـب إجبـاراً عـلى تجميـع الأحشـاء كلهـا وغسـلها، في خشـوع واحـترام، وتنظيفها مـن ذرات الرمـال التي علقـت بثناياهـا، بقـدر الإمـكان. كذلـك كان عليـه أن يتحمـل تكلفـة الصنـدوق المصنـوع مـن الرصـاص والـذي تم وضع الأحشـاء بـه، ثم وضعـه بـدوره داخـل تابـوت جـوش بيللينجز.

لقـد كانـت مونتيري مدينـة تُجِـل الأدب ورجاله، وما كانت لتسـمح أبـدا بأن يهـان أحد منهـم بها.

***

# -١٣-

نـام مـاك والفتيـة في أماكنهـم فوق جـذوع أشـجار الصنوبـر، وقبل بـزوغ الفجـر بوقت قليـل عاد إيـدي، بعدما كلفـه الأمر قطع مسـافات طويلـة حتـى تمكـن من العثـور على سـيارة فـورد مـن طـراز T، وحينما وجدهـا أخـذ يفكـر فيما إذا كان مـن الحكمة انتـزاع الإبـرة المطلوبة فقط أم أنهـا ربـما لا تتطابـق مع محرك سـيارتهم، وهكذا اسـتقر بـه الرأي على أخـذ الكاربراتـبر بأكمله.

وحينـما عـاد، وجـد الفتيـة جميعًـا يغطـون في نومهـم، فاضطجـع هو الآخـر بجانبهـم تحـت ظـلال الصنوبـر. لقـد كانـت السـيارات الفورد مـن الطـراز T تتمتـع بميـزة هامـة، تتمثـل في أن أجزاءهـا ليسـت فقط قابلـة للتغيـير، لكنهـا أيضًـا لايمكن التعـرف عليها إن هـي انتُزعت من سـيارة ووضعـت في أخرى.

كان مرتفـع كارميـل يطل على مشـهد بديـع، حيث الخليـج المتقوس، والأمـواج تلقي بزَبَدهـا على الرمال، والأجـواء الحميميـة الدافئة للبلدة عند سـفح التل...

استيقظ ماك في الفجر، فنهض وأصلح من وضع بنطاله، ثم أخذ يجول ببصره فيما حوله ويتطلع نحو الخليج، ومن موضعه كان يرى عددًا من الصيادين، وكذلك إحدى ناقلات النفط تقف قبالة الساحل. أما من خلفه فكانت الأرانب تمرح في الدغل القريب... إلى أن بدأت الشمس في الظهور لتزيح بأشعتها برودة الليل ولسعة الصقيع، فما إن مس شعاع الشمس الأول وجه ماك حتى سرت قشعريرة الدفء بين أوصاله.

أفاق الفتية من نومهم، فجلسوا يقتاتون بشئ من الخبز الذي جلبوه معهم، في حين عكف إيدي على تثبيت الكاربراتير الجديد بالشاحنة، وما إن انتهى من تركيبه حتى شرعوا في دفعها وصولاً إلى الطريق، ثم بدأوا في تشغيل المحرك إلى أن دار أخيرًا معلنا استعداد السيارة للتحرك من جديد؛ فصعدوا التل من جديد، بنفس الطريقة الانعكاسية إلى الخلف، وكان إيدي قد تولى القيادة هذه المرة ، ثم إنهم انعطفوا واتخذوا طريقهم قُدماً نحو وجهتهم صوب وادي كارميل، حيث ينمو نبات الخرشوف الأخضر المائل للرمادي، ويترعرع الصفصاف على ضفاف النهر.

انعطف الفتية بالسيارة يسارًا نحو الأعلى، إلى حيث الوادي، وكان الحظ الباسم ينتظرهم هناك، حيث كان ديكًا أحمرَ قد ضلّ طريقه بعيدًا عن مزرعته، يعبر الطريق حين صدمه إيدي، فالتقطه هازل، الذي كان يجلس في مؤخرة الشاحنة، وقد أخذ ريشه يتطاير مع الريح من بين يدي الفتى حتى وصل بعضه إلى ميناء لوبوس، وبعضه الآخر قد حملته النسائم إلى البحر.

أخيراً وصلوا إلى نهر كارميل الجميل الصغير، لم يكن نهرًا طويلاً، لكنه كان يملك نفس الخصائص التي يتميز بها أي نهر آخر، حيث كان يتخذ مجراه عبر الجبال، ويتجمع في مناطق معينة مكوناً نبعاً صغيرًا، وينسكب عبر السدود، وينسرب من بين الحواجز الصخرية ومن حولها، ثم ينساب في هدوء ودعة عبر شجيرات الجميز إلى أن يصب في برك من المياه حيث تنمو أسماك السلمون المرقطة، ويفيض على الضفاف حيث يحيا جراد البحر.

في الشتاء، يغدو ذلك النهر العذب سيلاً جارفاً، أما في الصيف فهو مكان مثالي يمرح به الأطفال ويخوض فيه صيادو الأسماك يسعون وراء صيدهم، وتتقافز الضفادع على ضفافه، وتنمو نباتات السرخس بجانبه.

وفي المساءات والصباحات، تفد إليه الظباء والثعالب لتنهل من مائه حتى تروي عطشها، ومن حين لآخر يأتي واحد من أسود الجبل كذلك كي يشرب ويرتوي..

وعبر الوادي الصغير تندفق المياه لتروي الأرض الخصبة، فتنمو الخضروات والبساتين والأشجار المثمرات، ويتردد صدح طيور السماني وهديل الحمائم عبر جنباته عند الغسق، وتأتي حيوانات الراكون تتحسس الخطى بحثا عن الضفادع.... وهكذا، ينطبق على نهر كارميل كل صفة وخصيصة يمكن أن تجدها في أي نهر آخر.

وعلى بُعد بضعة أميال أعلى الوادي، يعترض مجرى النهر صخرة شاهقة حادة تتدلى على جوانبها النباتات والسراخس، وعند سفحها

تتكـون بِركـة عميقـة مائـل لونهـا للاخـضرار يقـع عـلى جانبها شـاطئ رمـلي صغير يصلـح للجلـوس وإعـداد الطعام.

بلـغ مـاك وفتيتـه وجهتهم المنشـودة في ابتهـاج، وقد كانـت مثالية إلى أبعـد الحـدود، فلابـد أن الضفـادع متاحـة بكثـرة هاهنـا، كما أنـه مكان ملائـم جـداً للراحـة والاسـترخاء والإحسـاس بالسـعادة. ومما زاد شـعورهم بالابتهـاج أنهـم، إذ كانـوا في طريقهـم إلى النهـر، قـد ظفـروا بعـدة غنائـم، كان الديـك الأحمـر الكبـير أولهـا، لكنـه لم يكـن آخرهـا، فقـد حصلـوا أيضًـا عـلى جـوال صغـير مـن الجـزر كان قـد سـقط مـن إحـدى شـاحنات نقـل الخـضروات وكذلـك حـازوا على نصـف دزينة مـن البصـل، لكـن دون أن تسـقط مـن الشـاحنة!. وكان بحـوزة مـاك كيـس مـن القهـوة في جعبتـه، كـما كان إبريـق الخمر لايـزال ممتـلأً حتى نصفـه، إضافـة إلى صفيحـة كبـيرة فارغـة مفتوح أعلاها، تسـع لخمسـة جالونـات، يمكـن اسـتخدامها لطهـي الطعـام. وكان الفتيـة قـد جلبوا معهـم أيضًـا بعض مـن الملـح والفلفـل والتوابل ومـا إلى ذلـك، فلطالما اعتـبروا مـن يخـرج في رحلـة خلويـة دون أن يحمـل معه شـئ مـن الملح والتوابـل وبعـض مـن القهـوة، هـو إنسـان أحمـق بلا شـك.

وبـدون حاجة إلى تفكـير، قام الفتيـة بتجميع أربعة أحجار مسـتديرة الشـكل مـن عـلى الشـاطئ، مصطنعـين لأنفسـهم موقـداً بدائيـاً صغيراً لطهـي الديـك، الـذي كانـوا قد قامـوا لتوهـم بتنظيفـه وتقطيعـه تمهيداً لطهيـه في الصفيحـة الفارغـة التـي بحوزتهـم والتي قامـوا بملئهـا بالماء وأضافـوا إليهـا قطـع البصـل المقـشر، ثـم قاموا بإشـعال جـذوة صغيرة مـن النار بـين الأحجـار الأربعة مسـتخدمين أغصـان الصفصـاف الميتة

الجافة، ثم إنهم وضعوا الديك في الإناء - الصفيحة - ووضعوها بدورها فوق النيران، ثم جلسوا ينتظرون نضجه، وقد قدروا- نظرًا لحجمه وقوة عظامه - أنه سوف يستغرق منهم وقتًا ليس بقليل حتى ينضج تماماً ويصبح شهياً.

وما إن أخذت المياة في الغليان حتى تصاعدت الروائح الشهية للحم الديك وهو بعد في بداية مرحلة الطهي.

أثناء تحلقهم حول الإناء في انتظار الطعام الشهي، بادر ماك بالكلام، قائلاً: ( إن أفضل الأوقات لجمع الضفادع هو الليل، لذا فإني أرى أن نستلقي قليلاً حتى يحل الظلام)

فوافقه الشباب، وبدأوا يتخذون مجالسهم في الظلال، إلى أن تمدد الواحد تلو الآخر، فغشاهم النعاس، وناموا.

وكان ماك محقًا، فالضفادع لاتخرج إلى الفضاء المكشوف طوال ساعات النهار، وإنما تظل مختبئة تحت السراخس وتختلس النظر عبر الفجوات من بين الصخور وأسفلها، لذا فلا يوجد وقت أكثر ملائمة لاصطيادها سوى في الليل على ضوء المصابيح والكشّافات.

نام الفتية وقد أدركوا أنهم سيكون في انتظارهم ليلة ليلاء حافلة بالعمل، فيما عدا هازل، الذي ظل متيقظًا كي يزكي النار تحت إناء طهي الديك كلما خفتت.

ولم تكن تلك المنطقة تشهد أصيلاً ذهبيًا مشرقا، فما إن ارتفعت الشمس عليها في حوالي الساعة الثانية مساءً، حتى امتد ظلاً باهتًا

واهنًا منها على الشاطئ ليس إلا، ومع هبوب النسائم القادمة من البحر، كان حفيف أوراق شجر الجميز يتردد في الفراغ، في حين تنسل ثعابين الماء عبر الصخور إلى المياه فتسبح في البركة، رافعةً رؤوسها كمناظير الغواصات ؛ أما البعوض الذي يتجنب دومًا أشعة الشمس فقد أخذ يئز فوق صفحة الماء، والذباب والدعاسيق والنحل و..... كلٌ انطلق إلى حيث مخبأه.

وما إن حلّت ظلال المساء، وصدحت طيور السماني، استيقظ الفتية من نومهم، (قد تصاعدت رائحة الديك المطهي لتثر شهيتهم، وكان هازل قد قام بقطف إحدى أوراق الغار من واحدة من الأشجار بجانب النهر وأسقطها في صفيحة الطهي لإضفاء مزيد من النكهة الشهية على الطعام، وكذلك قام بتقطيع بعض من الجزر في الحساء. كما لم ينس الفتى إعداد بعض من القهوة، حيث قام بتجميع عدد آخر من الأحجار الصغيرة وأشعل في قلبها ناراً بسيطة هادئة، ثم وضع إناء القهوة فوق ذلك الموقد الحجري المصطنع، بحيث تفصل بين الإناء وبين النار مسافة لا بأس بها لمنع فوران القهوة وفي نفس الوقت لينضج البن بشكل جيد.

أفاق ماك، ثم نهض على قدميه وهو يتمطى، ثم مضى مترنحاً من أثر النعاس إلى حيث بركة الماء، فغسل وجهه، وتغرغر بقليل من الماء، ثم بصق، و أخذ يحك قدميه، وأصلح من وضع حزام بنطاله، ثم مشّط شعره المندى بأصابعه، ورشف جرعة من الشراب وتجشأ، ثم جلس قبالة النار الموقدة، قائلا : ( يالها من رائحة شهية).

وأخذ باقي الفتية ينهضون الواحد تلو الآخر، ففعلوا مثلما فعل ماك، ثم جاءوا بدورهم ليتحلقوا حول النار والإناء، وطفقوا يثنون على هازل بمجرد أن التقطت أنوفهم رائحة الطعام الشهي، فأخرج الفتى سكين الجيب الخاص به وغرزه في الديك قائلا : ( لن يكون لحمه طريًّا، فهو يحتاج لنحو أسبوعين من الطهي كي يلين لحمه وأنسجته.... كم تقدر عمره يا ماك؟)

فأجاب ماك : ( إنني أبلغ من العمر الثامنة والأربعين ولست في قوته!)

فتساءل إيدي : (إذن، يقدر العمر الطبيعي لدجاجة في حال لم يتم ذبحها أو لم تصب بمرض؟)

فأجابه جونز : (لا أظن أن أحدًا يمكنه أن يعرف ذلك)

لقد كان وقتاً لطيفًا ذلك الذي قضوه في هذا المكان، وكانت جلسة ممتعة، حيث دار إبريق الخمور ليزيد من متعتهم ويُسري الدفء في عروقهم.

ثم قال جونز : ( أنا لا أقصد أي شكوى أو إعتراض... لكنني كنت أفكر فقط، ماذا إن قمت ياإيدي بوضع مايتسنى لك الحصول عليه من مشروبات في إبريقين أو ثلاثة؟ بمعنى، ماذا إن وضعت الويسكي في إبريق، والخمر في إبريق، والجعة في إبريق ثالث؟...)

ساد صمت شابه التوتر نوعًا ما عقب ذلك القول، فسارع جونز إلى القول : ( إنني لا أقصد شيئًا، فأنا أحب ماتجلبه لنا على هذا النحو...) ثم إنه أخذ يسهب في الحديث محاولاً تبرير ماقاله تواً، وقد

أدرك أنـه قـد ارتكـب حماقة نوعـاً ما : ( إن مـا أعنيه هـو أن ذلك المزيج الـذي تأتينـا بـه لا يمكـن تحديـد عاقبة شربـه؛ فحينـما تشرب كثيرًا من الويسـكي مثـلاً فـإن نتائجه تكـون معروفة، فالشـخص العدائي سـوف يتـورط في مشـاجرة مـا بعـد بضعـة كـؤوس، والحزيـن سـوف ينخـرط في البـكاء... أمـا ذلـك المزيـج... فـلا تعرف إن كان سـيجعلك تتسـلق أشـجار الصنوبر أم تلقي بنفسـك إلى اليم وتسـبح حتى سـانتا كروز!... إن ذلـك لأمـر مثير! )، وقد قـال جملته الأخـيرة تلك في صـوت واهن.

(بالحديـث عن السـباحة) صـاح ماك في محاولـة منه لنزع فتيـل التوتر الـذي سـاد الأجواء بسـبب ماقيـل، وكذلك لكـي يُخرس جونـز : ( ما الـذي حـل بذلـك الرجـل « ماكينـلي مـوران»؟ هـل تتذكرونـه؟ ذلـك السـباح الـذي يجيد خـوض الميـاه العميقة؟)

( أه. نعـم، أنـا أتذكـره) أجابـه هيوجـي ( لقـد اعتدنـا عـلى التسـكع معًـا لفـترة مـن الزمـن. كل مـا في الأمـر أنـه لم يتمكن مـن الحصول على عمـل، فأدمـن الخمـر وانكـب عليـه يعاقره ليل نهـار، وإنه لأمـر مهلك حقًـا أن يغـرق المـرء في السُـكْر والأحزان معًـا، وهو ما أفضى بـه في نهاية المطـاف أن بـاع بذلتـه وخوذتـه وحذائـه، وأخـذ يغـرق نفسـه في مزيـد مـن السُـكْر، إلى أن غـادر البلـدة، ولا أعلـم إلى أيـن ذهـب. إن حاله قد باتـت سـيئة حقًـا ولم يعـد يصلـح لشـئ البتـة بعد أن غـاص في المـاء إثر ذلـك الرجـل الإيطـالي الذي سـقط مـن سـفينة « الإخـوة الاثني عشر» مـع المرسـاة؛ لقـد قفـز ماكينلي خلفـه إلى المـاء، فانفجـرت طبلتـي أذنيه للأسـف، في حـين لم يصـب الإيطـالي بـأي أذى... من بعد تلـك الحادثة لم يعـد ماكينـلي صالحًـا لعمل أي شـئ)

فارتشف ماك قليل من الشراب، ثم قال : ( لقد ازدهرت أحواله المالية خلال فترة حظر الخمور، فقد كان يحصل على خمسة وعشرين دولارًا يومياً من الحكومة مقابل أن يغوص إلى أعماق البحر بحثًا عن صناديق الخمور، وفي الوقت نفسه كان يحصل على ثلاثة دولارات من «لووي» تاجر الخمور مقابل كل صندوق خمر يتغافل عنه، لكنه كان قد اتفق مع لووي على العثور على صندوق واحد يومياً كي يبقي على رضا الحكومة فلا تفكر في تعيين غواصين آخرين، وقد وافقه الرجل .... لقد تمكن ماكينلي في تلك الفترة من كسب كثير من المال)

فَرَد هيوجي : ( نعم، لكنه مثله مثل أي شخص آخر، ما إن يتحصل على بعض المال حتى يبدأ بالتفكير في الزواج. وقد تزوج بالفعل، لثلاث مرات، قبل أن ينفد كل ماكان يملك من المال)

هنا تساءل إيدي : ( ترى، ماالذي حل بجاي وجعله يتخلف عنا؟) وكانت تلك هي المرة الأولى التي يأتون فيها على ذكره منذ عدة ساعات

فأجابه ماك : ( نفس الأمر!... إن المرء لايستطيع أن يثق في رجل متزوج أبدًا، فمهما كان يكره زوجته، فإنه يعود إليها حتماً. خذ جاي مثلاً، إنه يظل يشكو زوجته التي تضربه دومًا، لكنني أراهن أنه لايطيق فراقها ولو لثلاثة أيام، فما إن يبتعد عنها حتى يتراءى له أنه هو المخطئ في حقها، فيعود أدراجه إليها محاولاً استرضائها والتكفير عما يرى أنه اقترفه في حقها)..

ثـم بعـد حين، جـاء وقت الطعـام، فانهمـك الفتية في تنـاول طعامهم الشـهي، وانقضـوا عليـه في نهـم، وأخـذوا يقطعـون مـن لحـم الديـك الناضـج ويقضمونـه بأسـنانهم في شره، فاصلـين اللحـم عـن العظـم، وإلى جانـب لحـم الديـك كانـوا يتناولـون قطع الجـزر المسـلوق، بأعواد رفيعـة اصطنعوهـا مـن جـذوع الصفصـاف، ثـم إنهـم أخـذوا يمررون القِـدر فيـما بينهـم ليشربـوا مـرق الديك، حتـى شـبعوا تماماً، وقـد أخذ المسـاء يطـوي صفحة اليـوم ويلف السـماء بعتمتـه، فيمتـزج ببقايا ضوء النهار..

وبعـد لحظـات دارت أكـواب القهـوة عـلى الفتيـة المجتمعـون حول النـار، وقـد اسـترخوا في دفء وشـبع، والصمـت يحيـط بهـم... إلى أن قطعـه مـاك صائحـاً: ( اللعنـة! لكـم أكـره الشـخص الكـذوب!)

فدُهـش الفتيـة ولم يفهمـوا مـا مناسـبة ذلـك القـول، وسـأله إيـدي متعجبًـا: ( ومـن هـذا الـذي كـذب عليـك؟!)

(أه ! إننـي قـد أتغـاضى عمـن يكـذب كـي يمـرر موقفًـا، أو ليزكـي حديثـا مـا، أمـا أن يكـذب الإنسـان على نفسـه، فهذا مـالا أتحملـه أبدًا)

( ومن الذي فعل ذلك؟) سأله إيدي من جديد

( أنـا) أجـاب ماك ( وربـما أنتم كذلك.. انظـروا إلى حالنـا الآن، لقد ادّعينـا أننـا نريـد إقامـة حفلـة ممتعـة لـدوك، ثـم جئنـا إلى هنـا، فـما كان منـا إلا أن اسـتمتعنا نحـن أيـما اسـتمتاع، فأكلنـا وشربنا وتسـامرنا ، ثم سـنرجع بعدهـا لنحصل مـن دوك على المـال... إننا خمسـة فتيـة، أي أننا سـنشرب خمسـة أضعـاف مـاكان سـيشربه هـو، فـأي تكريم ذلـك وأي

متعة تلك التي قدمناها له؟ وهل أردنا صدقاً أن ندخل السرور على قلبه؟.. أخشى ما أخشاه أن نكون قد أردنا إمتاع أنفسنا نحن فادّعينا رغبتنا في إسعاده... يالنا من جماعة خسيسة، إن دوك لايستحق منا ذلك أبدًا، إنه لأفضل من رأيت وعرفت في حياتي، وإنني لا أريد أبدًا أن أكون من هؤلاء الذين يبيحون لأنفسهم استغلال كرمه وسمو أخلاقه. إنكم بلا شك تعلمون تلك القصة، يوم ذهبت إليه وألححت عليه في طلب دولار واحد، وقمت بتأليف كذبة شيطانية في سبيل ذلك كي أتحايل عليه وأحصل على ما أريد، لكنني لم أتمكن من التمادي في كذبتي وقد أدركت أنه قد فطن إليها، فقطعت حديثي وقلت له : دوك، لقد كذبت عليك كذبة شنيعة، إن كل ما قلته وحكيته لك هو محض كذب ؛ فما كان منه إلا أن وضع يده في جيبه ثم أخرج دولارًا ودسه في يدي قائلاً : ماك، إن الشخص الذي يضطر لاختراع كل تلك الكذبة من أجل الحصول على دولار لهو بالتأكيد في حاجة ماسة إليه فعلاً... فأخذت الدولار وانصرفت، لكنني لم أنفقه قط، بل أعدته إليه في اليوم التالي مباشرة)

فصمت الفتية، ثم قال هازل بعد حين : ( لا أحد يعشق الحفلات مثلما يعشقها دوك، ولسوف نقيم له واحدة ممتعة... ترى كم يبلغ سعر اللحم البقري اليوم؟)

(لا أدري) أجابه ماك ( لكنني أفضل أن أمنحه شئ لنفسه لا أن أعطه ما سوف نستفيد نحن بأغلبه)

هنا اقترح هيوجي: (ماذا عن شراء هدية له؟، ما رأيكم أن نبتاع له زجاجة من الويسكي ونقدمها له ثم ننصرف فورًا تاركين إياه يفعل بها ما يشاء؟)

فتفكر ماك قليلا، ثم قال وقد بدأت الفكرة تروق له : ( أصبت. سوف نقدم له زجاجة من الويسكي ثم نرحل مباشرة ولن نشاركه إياها)

(بالعكس، أنت تعرف جيدًا ماسيحدث حينها) صاح إيدي معترضًا ( سوف يَشْتَم هنري وأمثاله رائحة الويسكي عن بُعد، فينقضوا عليه ليشاركونه الشراب، وبدلاً من أن يشاركه خمسة سوف يقاسمه فيها عشرون رجلا!. لقد أخبرني دوك يومًا أن هؤلاء في مقدورهم أن يشموا رائحة اللحم البقري وهو يقوم بقليه في مختبره بشارع السردين المعلب وهم بعد قابعين في «بوينت سور»، فلا جدوى إذن من هدية يقاسمه فيها كل هؤلاء. أظن أنه سيكون من الأجدى والأفضل أن تقيم نحن حفلاً له على شرفه)

فأخذ ماك يقلب ما قاله إيدي في رأسه، ثم قال : ( ربما أنت على حق... ولكن، ماذا إن أهديناه شيئاً آخر غير الويسكي؟ ماذا إن أحضرنا له مثلاً دبوسين للأكمام يحملان الحروف الأولى من اسمه؟)

(هراء) قالها هازل ( دوك لا يهوى مثل تلك الأشياء)

كان الليل قد خيّم على كل شئ، وقد تبدت النجوم بيضاء، لامعات، ترصع صفحة السماء السوداء، فأخذ هازل يزكي النار لتمنحهم بعض من الضوء على الشاطئ المظلم؛ وعبر التل، كان ثعلبًا

يعوي عواءً حادًا، وقد ترامت روائح الأزهار البرية تحملها الرياح عبر التلال، وخرير الماء المنبثق من البركة منسربًا عبر الصخور يشق صوته صمت الليل، وسكونه الذي غلف كل شئ، حتى الفتية. وشرد ماك بذهنه مستغرقا فيما قاله هازل.... إلى أن سمعوا جميعاً وقع أقدام ثقيلة تدنو منهم، فالتفتوا على حين غرة ليجدوا أمامهم رجلاً ضخم الجثة داكن البشرة، يقترب من مجلسهم رويدًا وعلى ذراعه بندقية، وبجانبه أحد كلاب الصيد...

(ماذا تفعلون هنا؟) سألهم الرجل

فأجاب ماك : ( لاشئ، لانفعل شيئا)

( تلك الأرض ممنوع فيها الصيد بكافة أشكاله، وكذلك محظور إقامة أي معسكرات تخييم. والآن، اجمعوا أغراضكم واطفئوا تلك النيران وارحلوا عن هنا فورًا)

فنهض ماك وقال للرجل في شئ من الخضوع : ( لم نكن نعلم ذلك ياسيدي، ولم نر أي علامة تفيد بحظر التخييم ها هنا)

( بل يوجد إشارات تحذيرية في كل مكان، ولايمكن ألا تكونوا قد رأيتموها)

(أستميحك عذرًا ياسيدي، رجاءً، لقد اقترفنا خطأ ونحن آسفون لذلك)... ثم صمت قليلا وهو يتأمل الرجل، ثم أردف : ( أظن أنك رجلا عسكريا ياسيدي، أليس كذلك؟ فأنا أميز العسكريين حين أراهم. فالرجل العسكري مرفوع الكتفين دومًا على نحو أعلى

من الرجل العادي... لقد خدمت لفترة في الجيش وأعرف ذلك جيداً)

فاعتدل الرجل في وقفته ورفع كتفيه لاشعوريًا، دون أن يلحظ أحد ذلك، ثم قال في صرامة : ( أنا لا أسمح بإشعال نيران هاهنا)

( حسنًا، نحن آسفون) قال ماك ( سوف نخرج حالا ياسيدي. نحن نعمل لصالح عدد من العلماء ونسعى لجمع بعض الضفادع لصالحهم، حيث يعملون في مجال أبحاث السرطان، ونحن نساعدهم عن طريق توفير ضفادع لأبحاثهم)

فتردد الرجل قليلاً، ثم قال : ( وماذا يفعلون بالضفادع؟)

(إنهم يستخدمونها في تجاربهم، حيث يقوموا بإصابة الضفادع بالسرطان ثم يعكفون على دراستهم واختبار العلاجات عليهم . ولعلهم يتوصلون إلى علاج فعّال لو أنهم حصلوا على الضفادع، لكن طالما أنك لاتريدنا هنا ياسيدي فسوف نرحل فورًا، وما كنا لنأت إلى هنا لو كنا نعلم ذلك)

ثم بدا وكأن ماك قد لاحظ كلب الصيد المصاحب للرجل تباً، فصاح في حماسة : ( يالها من كلبة جميلة، إنها تشبه الكلبة «نولا»، تلك التي فازت في مسابقات ولاية فرجينيا العام الماضي. هل هي من فرجينيا أيضًا ياسيدي؟)

فتردد الرجل ثانيةً قليلاً، ثم قال كاذباً : ( نعم... إنها عرجاء، فقد عضتها حشرة القرادة في كتفها)

فبدا على ماك شئ من الجزع، فقال : ( هل تمانع في أن أفحصها ياسيدي؟.. تعالي، تعالي إليّ يا فتاة، اقتربي!)

فنظرت الكلبة إلى صاحبها، ثم دنت من ماك الذي قال لهازل ( قم بإزكاء النيران قليلاً كي أتمكن من الرؤية)

فقال الرجل وقد انحنى قليلا من فوق كتف ماك ليتفحص معه الجرح : ( إن العضة في موضع مرتفع من الكتف بحيث لا تستطيع لعقها)

ضغط ماك قليلاً على مكان العضة، فخرج بعض من الصديد، ثم قال : ( لقد كان لديّ كلب أصيب بإصابة كهذه وكانت شديدة لدرجة أنها قد أودت بحياته... هل وضعت كلبتك جراءً منذ وقت قريب؟)

(نعم. وضعت ستة جِراء... إنني أضع لها بعض من اليود مكان الإصابة)

(لا... هذا لا يجدي نفعاً، هل لديك بعض من الملح الإنجليزي في بيتك؟)

(نعم، لديّ زجاجة كبيرة منه)

(حسنًا... سوف تقوم بعمل كمَّادة ساخنة من الملح الإنجليزى وتضعها هنا على موضع الإصابة. إن كلبتك واهنة بسبب الولادة والرِّضاع، وياله من توقيت سيئ لتمرض فيه. إنك معرض لفقد جرائها أيضًا)

كانت الكلبة في تلك الأثناء تحدق في عيني ماك بعمق، ثم إنها أخذت تلعق يده؛ هنا استطرد ماك : ( سأقول لك شيئاً ياسيدي،

سوف أعتني بكلبتك بنفسي وسأجري لها كمَّادات الملح الإنجليزي حتى تطيب. هذا هو الحل الأنسب)

فربت الرجل على رأس كلبته، ثم قال : ( لديَّ بالقرب من بيتي بركة مليئة بالضفادع، لدرجة أنني لا أستطيع النوم بسبب نقيقها. لماذا لا تصيد ما تبغي منهم من تلك البركة؟ إنهم لايكفون عن النقيق طوال الليل ولسوف أكون سعيدًا بالتخلص منها)

( هذا لطف عظيم منك ياسيدي) هتف ماك ( وإنني على يقين من أن الباحثين الذين نعمل لصالحهم سوف يشكرونك على ذلك؛ أما أنا فيهمني حالياً أن أصنع كمَّادات الملح للكلبة)

ثم إنه نظر إلى رفاقه وقال لهم : ( اطفئوا تلك النيران وتأكدوا من عدم وجود أي شرارة لها في أي موضع، ولا تنسوا تنظيف المكان. سوف أذهب أنا مع الكابتن الآن للعناية ب « نولا» تلك، ثم لحقوا بنا بمجرد الانتهاء من تنظيف كل شئ) ثم مضى ماك مع الرجل..

هنا قال هازل وهو يهيل بعضًا من الرمال فوق النار بقدمه لإطفائها : ( أراهن على أن ماك بمقدوره أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، فقط لو أنه أراد ذلك)

فأجابه جونز : ( وماذا سيفعل برئاسة الولايات المتحدة؟ إنها تخلو تماماً من أية متعة!)

***

# -١٤-

الصباح... لكم هو وقت ساحر، تلك الساعات المبكرة، في شارع السردين المعلب، بعدما يكون الليل قد لملم عباءته ورحل، وحلّ محله ذلك النور الخجول العذب، الذي يفترش السموات قبيل شروق الشمس استعداداً لاستقبالها... في تلك اللحظات يبدو شارع السردين المعلب وكأنه يتأرجح خارج حدود الزمن، سابحًا في بحار من الضوء الفضي، حيث يُطفِئ الشارع مصابيحه، ويتلألأ العشب الندي على أرضه بلونه الأخضر البهي، وتلتمع صفائح مصانع التعليب وحديدها المتجعد بلون لؤلؤي صاف كسبائك من البلاتين. وفي تلك الساعة المبكرة لا تجد ثمة سيارات تسير في نهر الشارع، حتى الدكاكين والمنشآت التجارية جميعاً، تكون موصدة أبوابها لم تفتح بعد، فلا يبق في الشارع سوى سكون وسكينة تغلفان الحياة به بدثار من صمت مطبق، حتى ليمكن للمرء أن يسمع صوت اندفاع الأمواج وتكسرها على الشاطئ، عبر تلك المسافة، بوضوح تام.

إنها فترة من السِلم المطلق، وسويعات هربت من بين مخالب الزمن، ولحظات قصيرة من السكون البكر، لا مكان فيها سوى

للطبيعة وأبنائها الفطريين، حيث القطط تثب فوق السياج وتنسل عبره باحثة عن بعض من رؤوس الأسماك، وقطعان من كلاب الصباح تسير في خيلاء، تبحث في تمرس عن المكان الأمثل لتبول فيه!، ومن الأعالي، ناحية البحر، تُقبِل طيور النورس، ضاربة الهواء بأجنحتها إلى أن تحط فوق أسطح مصانع تعليب السردين في انتظار ما سيُلقى من نفاياتها.

ومن بين الصخور القائمة بالقرب من « محطة هوبكينز البحرية» يأتي زئير سباع البحر قويًا هادرًا. وفي الحدائق الخلفية، تثابر السناجب الأمريكية على حفر تربة الصباح الرطبة إلى أن تصل إلى جذور الأزهار، فتجرها جراً إلى حيث جحورها.

في هذا الوقت من الصباح الوليد ، لايمكن لشئ أن يجرؤ على إختراق تلك الملحمة الطبيعية الساكنة سوى نفر قليل جدا من البشر، تجدهم يطأون الشارع بين الفينة والفينة، فلايزيدونه سوى وحشة فوق وحشته، وإنعزال فوق انعزال!... فهاهي إحدى فتيات دورا تعود إلى البيت، قادمة من منزل واحد من هؤلاء الزبائن الذين بلغوا من الثروة، أو المرض، ما يتعذر معه أن يأتوا بأنفسهم إلى بيت دورا ؛ فتعبر الشارع وهي تجر قدميها من الإنهاك، وقد سالت زينتها على وجهها وتلطخت... وهاهو «لي شونج» يخرج حاملاً صفائح قمامته ليضعها عند حاجز الطريق... ومن ناحية البحر يُقبِل الرجل الصيني الغامض إياه، ويسلك طريقه المعهود عبر الشارع، وفردة حذائه تصفع الأرض كعادتها..

وأمـام مصانـع التعليـب يجلـس الحـراس يطالعـون الموجـودات من حولهـم بأعـين نصـف مفتوحـة قـد غشـاها ضـوء الصباح.

ومـن شرفـة بيـت دورا يطـل حـارس البيـت في منامتـه، وهـو يتمطـى ويتثـاءب، ويحـك بطنـه... ومـن داخـل الأنابيـب الضخمـة التـي قـام السـيد مالـوي بتأجيرهـا، يتعـالى غطيـط المسـتأجرين، وهـم بعـد في سـباتهم ينعمـون، وأصـداء غطيطهـم تـتردد عـبر الأنابيب نحو الآفـاق.... إنهـا ملحمـة متكاملـة تـدور رحاهـا في تلـك الفـترة الدُرّية واللحظـات الفاصلـة مابـين مملكتـي الليـل والنهـار، حيـث يتوقـف الزمـن ليتأمـل نفسـه ويعيـد حسـاباته...

ذات مـرة، في واحدة من تلك السـويعات اللازمنية، خرج إلى شـارع السردين المعلـب إثنـين مـن الجنـود بصحبتهـما إثنتـين مـن الفتيـات، عـبروا جميعهـم الطريـق في أنـاة و دعـة، قادمـين مـن بـار «لا إيـدا» وقد لفَّهُـم التعـب وأسـكرتهم السـعادة؛ كانـت الفتاتـين بدينتـين، ذوات نهـود ناهضـة كبـيرة، وشـعر أشـقر مبعثـر إلى حـد مـا، ترتديـان أثواب سـهرة مـن الحريـر الصناعـي المزيـن بالرسـومات، وقـد بـدا الثوبـان حينهـا متجعدان وقـد إلتصقا بمنحنيات جسـديهما، وكانـت كل واحدة منهـن تعتمـر قبعـة أحـد الجنديين، حيـث أرجعـت إحداهـن القبعة إلى الخلـف أمـا الأخـرى فقـد أمالتهـا إلى الأمـام لتغطـي نصـف وجههـا تقريبًـا. كانـت المرأتـين ذوات شـفاه مكتنـزة وأنـوف كبـيرة مفلطحـة، وكان يبـدو عليهـن الإنهاك التـام؛ أما الجنديـان فكانا يعتمـران بدورهما قبعتـي الفتاتـين، إحداهمـا صفـراء مكللـة بزهـور الأقحـوان والأخرى بيضـاء نصفية موشـاة بـأوراق السـلوفان الأزرق، أما ملابسـهما فكانت

مضطربة مبعثرة تماما، مفتوحة الأزرار، وعلى كتفيها تدلى حزامي بنطاليها ، ومن عنقيها تدلت ربطتي عنق مفكوكتين قليلاً...

كان الأربعة يسيرون مترنحين في سُكْر ونشوة، وقد تشابكت أيديهم، فأخذوا يطوحونها في إيقاع متتال. وكان أحد الجنديين يحمل كيسا ورقيا كبيرا ملئ بعبوات الجعة المثلجة، وقد مشوا جميعاً الهوينى في ضوء الصباح المتلألئ، وكأن الزمن بأكمله ملك لهم، وقد أخذ السرور يهدهدهم والسعادة تداعب مخيلاتهم، وذكرى سهرتهم الصاخبة تزيدهم نشوة، فيتبادلون النظرات و يتبسمون في رقة وجزل ، كأطفال مشاغبين قد هدهم التعب، ويطوحون بأيديهم أكثر فأكثر؛ وما إن مروا من أمام بيت دورا حتى لوحوا إلى الحارس الذي كان لايزال واقفا في الشرفة يحك بطنه، صائحين في حماسة : ( هاااي). وحينما وصلت إلى مسامعهم أصوات غطيط النائمين في الأنابيب أخذوا يتضاحكون في مرح.

ولما بلغوا دكان لي شونج، وقفوا مترنحين أمام نافذة العرض المكتظة بصنوف شتى من الأدوات والملابس والأطعمة، تتزاحم جميعاً بين جنبات النافذة لجذب الانتباه، فأخذوا يجولون بأعينهم بين تلك الفوضى المعروضة أمامهم، ثم انطلقوا من جديد يلوحون بأيديهم ويجرجرون أرجلهم، حتى نهاية شارع السردين المعلب، فانعطفوا إلى حيث خط القطار، فعبرت الفتاتان السور، وطفقتا تخطوان فوق القضبان الحديدية في تمايل، وعلى جانبيهما كان الجنديين يسيران معهن وقد أحاط كل واحد منهما خصر رفيقته الممتلئ بذراعه كي لا تسقط، وسار أربعتهم على طول القضبان إلى أن اجتازوا موقع بناء السفن،

ثـم انعطفـوا نحـو محطـة هوبكنـز البحرية التـي تشـابه الحدائـق العامة، وفي مقابلهـا يقـع شـاطئ صغير بين سلسـلة مـن الصخور، وقـد ترامت أمـواج الصبـاح على الشـاطئ في وداعـة والريـح تحمل همسـها المتهادي الناعـم، في ذلـك الوقت مـن الصبـاح. ومن ناحيـة الصخور المكشـوفة أتـى النسـيم محمـلا بروائح الطحالـب البحريـة المنعش.

ومـا إن وصـل الأربعـة إلى حافـة الشـاطئ حتـى بزغـت الشـمس مرسـلة أشـعتها المتألقـة عـبر الخليـج الصغـير لتحيـل الموجـودات إلى اللـون الذهبـي الأليـق؛ فجلسـت الفتاتـان فـوق الرمال، وقد أسـدلت كل واحـدة منهـن طـرف ثوبها على ركبتيهـا، في حين أخذ أحـد الجنديين يفتـح عبوات الجعـة ويناولهـم إياها، ثم جلـس الرجلان على الشـاطئ، وقـد أراح كل واحـد منهما رأسـه بـين أحضـان رفيقته وطفـق يتطلع إلى وجههـا ويتبـادلان النظـرات العذبـة والابتسـامات الحانية.

ومـن موضـع بقـرب محطـة هوبكنـز، انطلـق نبـاح حـاد، فقـد رآهم حـارس المكان متجهـم الوجه، فجاءهـم مسرعاً وفي أعقابه كلب أسـود متجهـم بـدوره، وقـد أخذ يـصرخ في غضـب وهو يشـير ناحيتهـم، إلا أنهـم ظلوا في جلسـتهم ولم يحركوا سـاكناً، حتى بلـغ موضعهم، فصاح، وكلبـه ينبـح عاليـاً : ( ألا تعلمـون أنـه لايمكنكـم الجلـوس هاهنـا؟ اخرجـوا حـالاً. هـذه ملكيـة خاصة، إنهـا أرض «تـوم وورك» )

إلا أن الجنديـان قـد بـدا وكأنهما لم يسـمعاه البتة، وظلا في اسـتلقائهما يتبـادلان الابتسـامات مـع فتاتيهـما، في حـين أخـذت كل واحـدة منهن تداعـب شـعر رفيقهـا وتمسـده بلطـف، ثـم، في بـطء، خفـض أحـد

الجنديين رأسه إلى أن أراح خده على فخذي فتاته، وقال مبتسماً في هدوء موجهاً كلامه إلى الحارس : ( فلتذهب إلى الجحيم )

ثم عاد يتطلع إلى وجه فتاته، وقد أخذ شعرها الأشقر يتوهج في ضوء الشمس الذهبي، في حين داعبت أناملها إحدى أذنيه، ثم غرقوا جميعاً في نشوة عارمة أذهلتهم عن كل ما حولهم، حتى أنهم لم يشعروا بالحارس الغاضب وهو ينسحب من أمامهم عائداً أدراجه إلى حيث كان.

***

# -١٥-

حينما وصل الفتية إلى المنزل الريفي للرجل صاحب الكلبة المريضة ، كان ماك في المطبخ منهمكا في معالجة الكلبة، حيث أراحها على جانبها وبدأ يمس موضع الإصابة بخرقة مشبعة بالملح الإنجليزي، وبين أرجلها كانت جرائها الكبيرة البدينة تتدافع وتدفع بعضها بعضاً نحو أثدائها طلبًا للبن، في حين كانت هي تتطلع إلى ماك، وكأنها تريد أن تقول له: أترى؟ هذا ما أحاول أن أخبره إياه، لكنه لا يفهم!

ثم دخل الكابتن إلى المطبخ حاملاً مصباحًا، وطفق يتابع مايفعله ماك قائلاً : ( إنني سعيد بتعلم عمل تلك الكمّادات)

هنا قال له ماك : ( آ.. إنني لا أقصد أن أملي عليك ما ينبغي فعله، ولكن.. تلك الجراء قد صارت كبيرة وحان وقت فطامها. إن كلبتك لم يعد يتبق لديها كثير من اللبن، وهم يكادوا يمزقون أثدائها بأسنانهم)

(نعم، أعلم) أجابه الرجل، ثم أكمل : ( وأظن أنه كان عليّ أن أقوم بإغراقهم جميعاً في البحيرة وأكتفي بواحد فقط، لكنني كنت منشغلا في عملي، في حين أن الناس ماعادوا يهتمون كثيرًا بكلاب الصيد واقتنائها، مثلما كان الحال في السابق)

(أعلم) أجاب ماك بدوره ( مع أنه لايوجد أفضل من كلاب الصيد والقنص، لكنني لا أعلم ما الذي أصاب الناس وكيف باتوا يفكرون... آ... أظنك لم تكن تعني ما قلته حقاً حين تحدثت عن إغراقك لتلك الجراء، أليس كذلك؟)

(في الحقيقة، مذ أن انخرطت زوجتي في العمل السياسي، وأنا قد بت على شفا الجنون. لقد تم انتخابها في المجلس المحلي، فانغمست في أعمالها تمامًا، وحتى في أوقات العطلة التشريعية للمجلس، فإنها تجوب الولايات لتلقي الخطب وتدلي بالأحاديث؛ وحتى حينما تمكث في البيت، فإنها تمضي وقتها بأكمله في البحث والدراسة وصياغة مشاريع القوانين)

(أه. لابد أن كلبتك تشعر بالوحدة إذن... عمومًا، لو كان لدي جرو كهذا..) قالها ماك وهو يمسك بأحد الجراء ( لجعلت منه كلب قنص متمرس في غضون ثلاث سنوات)

(هل تريد واحدًا منهم؟)

فنظر ماك نحو الكابتن وهتف في حماسة : ( أتعني أنك توافق على منحي واحد منهم؟... أه. ياإلهي... نعم، بالطبع أريد)

( انتـق لنفسـك واحـدًا إذن، فـما عـاد أحد يُقَـدِّر قيمـة كلاب الصيد تلـك الأيام)

في تلـك الأثنـاء كان الفتيـة قد تجمعـوا في المطبـخ وأخـذوا يتطلعون فيـما حولهم، وقد حصلـوا على انطباعـات سريعة حول الرجـل وحياته، وقـد بـدا جليـاً أن ربـة هـذا المنـزل غائبـة. فصفائـح الطعـام المفتوحـة، وبقايـا البيـض المقـلي الملتصقة بـأواني القلي ، وفتـات الطعام عـلى طاولة المطبـخ، وعلبـة الذخائـر المفتوحة والملقـاة بإهمال فوق سـلة الخبز، كلها أمـور تـشي بوضـوح أن ليـس ثمـة امـرأة في هذا المنـزل؛ ولكـن في ذات الوقـت، كان يبـدو من السـتائر البيضاء والمناشـف الصغـيرة المعلقة على المشـجب، والأوراق المفروشـة فـوق أرفـف الصحـون، أن هـذا البيـت لامـرأة دون شـك، وأنهـا كانـت موجـودة، لكنهـا الآن غائبة منـذ فترة، وقـد سُرّوا لذلـك لا شـعورياً، حيـث أن امـرأة مـن النـوع الـذي يهتـم بفـرش ورق عـلى أرفـف الصحـون وتعليـق مناشـف صغـيرة بتلـك الكيفيـة، هـي حتـمًا إمـرأة لـن تحـب أو تثـق في جماعـة مثـل جماعتهـم، ولسـوف تـرى فيهـم أخطـر تهديـد عـلى بيتهـا لامحالـة، فتلـك صحبـة تقـدم الألفـة والراحـة والرفقـة الهانئـة لمـن ينضـم إليهـم، في مواجهـة النظـام والنظافـة واللياقـة.... لقـد سَرَّهـم حقـاً ألا تكـون حاضرة.

كان الكابتـن يشـعر أن هـؤلاء الفتيـة إنـما يقدمون لـه معروفـاً عظيماً بوجودهـم، لـذا فقـد أراد ألا يبارحـوا منزلـه وأن يبقـوا به أطـول وقت ممكـن، فقـال لهـم في تـردد : ( ياشـباب، مـا رأيكم أن تحتسـوا شـيئاً من الـشراب يدفئكم قبـل الانطـلاق لجمـع الضفادع؟)

فنظر الفتية إلى ماك الذي أخذ يفكر قليلاً وقد قطَّب جبينه، ثم قال : ( لقد وضعنا قاعدة لأنفسنا تقضي بألا نقرب الخمر حينما نكون في مهمة علمية) ثم إنه استدرك سريعاً وقد بدا وكأنه قد ارتأى أن ما قاله لم يكن ملائمًا : ( ولكن نظراً للطفك وحسن ضيافتك فإني عن نفسي لا أر مانعًا من أن أحتسي كأسًا صغيرًا من الشراب، أما بالنسبة لرفاقي فهم أحرار فيما يريدون)

فوافق الفتية على الفور ولم يجدوا مايمنع من احتساء قدر يسير من الشراب مع الرجل وماك، فالتقط الرجل كشافاً ثم انطلق نحو القبو، وفي لحظات قليلة كانت قد وصلت إلى مسامعهم من ناحية الأسفل أصوات إزاحة الصناديق وألواح الخشب، ثم عاد إليهم الرجل بعد هنيهة حاملاً برميلاً صغيرًا من خشب البلوط يسع لخمسة جالونات، وقام بوضعه على المنضدة أمامهم، وقال : ( خلال فترة حظر الخمور تمكنت من الظفر ببعض من الويسكي المصنوع من الحنطة، فقمت بإخفائه عن الأعين. والآن، بعد كل تلك الفترة أريد أن أرى كيف بات مذاقه، إنه مُعَتَّق الآن..... لقد كنت قد نسيت أمره تمامًا، فكما ترون.. إن زوجتي...)

ولم يكمل الرجل عبارته، وقد كان المعنى مفهومًا واضحاً لهم على أية حال.

ثم إنه انتزع سدادة البرميل العتيقة من طرفه، وقام بإحضار بعض الكؤوس من فوق أحد الأرفف، ثم بدأ يصب الشراب المعتق لضيوفه؛ ولكم كانت مهمة صعبة أن يصب الخمر من برميل

يسع خمسة جالونات في كؤوس صغيرة، وهكذا، صار في يد كل فتى من الفتية كأساً مترعاً بالشراب القاني اللون الصافي، ثم صب لنفسه كأساً، ثم : ( في صحتكم)، فقرعوا الكؤوس ثم أدنوها نحو شفاههم يرتشفون منها جرعة تلو الأخرى، إلى أن فرغت كؤوسهم حتى الثمالة منها، فأخذوا يتلمظون ويقلبون بقايا مذاق الشراب في أفواههم، ويلعقون شفاههم في تلذذ، وفي أعينهم لاحت نظرة ذاهلة عن العالم، وكأنهم قد ارتحلوا إلى عوالم أخرى، بعيدة.... ثم أخذ ماك يحدق في كأسه الفارغ، وكأنما خُطَّت بقاعه رسالة مقدسة، ثم رفع عينيه، و : ( كيف للمرء أن يصف مثل هذا؟!.... إن ذلك الشراب لا ينبغي له أن يُعَبَّأ في زجاجات مثله مثل باقي الخمور..) ثم إنه أخذ شهيقا عميقا، وأردف : ( لا أظن أنني في حياتي كلها قد ذقت شرابا لذيذا كهذا من قبل)

فنظر إليهم الكابتن وقد بدا عليه الرضا والسرور، ثم أشار بطرف عينه إلى البرميل وقال :( إنه من النوع الجيد... هل لكم في كأس أخرى؟)

فتطلع ماك إلى كأسه من جديد وقال : ( نعم، لا مانع من أن نشرب كأس آخر صغير... أليس من الأفضل أن تصب ذلك الشراب في أقداح بدلاً من أن تهدر محتويات البرميل وأنت تصبها في تلك الكؤوس الصغيرة؟!)

ومرت ساعتين كاملتين، قبل أن يتذكر الفتية أخيراً السبب الذي من أجله جاءوا إلى هذا المكان...

كان عرض بركة الضفادع يبلغ خمسون قدماً، وطولها سبعون، في حين يصل عمقها إلى أربعة أقدام، يغذيها بالماء جدول صغير تتسرب منه مياه النهر لتملأها؛ ومن البركة تلك تتفرع عدد من الجداول الأصغر إلى حيث الحدائق المجاورة. وعلى حوافها ينمو العشب الطري الناعم. أما في البركة نفسها، فكانت آلاف من الضفادع تحيا وتتكاثر، تشق أصوات حركتها وتقافزها المستمر سكون الظلام وتهتك حجابه، ونقيقها يتواصل طوال الليل بلا انقطاع، وكأنها تغني للقمر والنجوم والعشب و....

وفي عتمة تلك الليلة اتخذ الفتية سبيلهم، برفقة الكابتن، عبر الظلام، نحو البركة؛ وكان الكابتن قد جلب معه إبريقاً صغيرًا ملأه بالويسكي، وفي يد كل واحد من الجماعة قدحه الخاص. كذلك كان الرجل قد عثر في بيته على عدد من الكشافات الضوئية يبددون بها بعض من عتمة الليل في طريقهم نحو البركة، في حين حمل كل من هيوجي وجونز الجعبات الخيشية التي سيضعوا بها صيدهم المنشود.

وبينما هم يتسللون في هدوء نحو البركة، تناهى وقع أقدامهم إلى الضفادع فسكنت تماماً بعدما كانت البركة تموج بالحركة وتصطخب بالنقيق، فافترش ماك وفتيته ومعهم مضيفهم الأرض ليحتسوا جرعة أخرى من الشراب، وأخذوا يفكرون في خطة محكمة لتحقيق بغيتهم والظفر بصيدهم..... وقد كانت خطة جريئة وغريبة بحق!

فعلى مر آلاف السنين، تشارك الإنسان والضفادع نفس العالم، وكثيرًا ما كان الإنسان يصيد الضفادع وفقاً لنمط محدد أخذ

يتطور عبر الزمن، تتمثل ملامحه الأساسية في قيام الصياد بالتسلل ببطء، دون إحداث صوت - كما يتوهم بالطبع - ويدنو رويداً من الضفدعة، ثم ينقض عليها بشبكته أو قوسه أو رمحه أو بندقيته، على حين غرة. وأيا كانت أداة الصيد، فإن ذلك النمط يفترض بالأساس أن الضفادع ستبقى ساكنة في مكانها إلى أن يتم صيدها، لكن الواقع يقول أمرا آخر، ففي اللحظة الأخيرة، حين تهوى الشبكة لتقتنص الضفدعة، أو يشق الرمح عباب الهواء نحوها، أو تنطلق الرصاصة صوبها، تتخذ الضفدعة رد فعل أسرع، وفي لمح البصر تثب فتغوص إلى أعماق الماء، وتمكث هناك حتى يبتعد الصياد، وهكذا....

ظلت العلاقة بين الإنسان و الضفادع تجري على هذا النحو غالباً، ولامانع من أن تنكسر القاعدة من حين إلى آخر حين تكون الشبكة أو الرمح أو الرصاصة أسرع من رد فعل الضفدعة، أو بالأحرى حين تكون الضفدعة أبطأ من المعتاد، عندئذ ينتهي الأمر بالضفدعة وقد صارت صيدًا ثمينًا في يد قناصها؛ وفي كل الأحوال تبدو العلاقة بين الكائنين عادلة لم تخرج يوماً عن إطار الطبيعة وقوانينها، وكأنهما قد عقدا معًا صفقة أبدية لايجوز لأحدهما الخروج عليها أو الإخلال بها.

فماذا عن خطة ماك؟ وكيف كان للضفادع أن تتوقع أنه سيخرق كل الاتفاقيات بأسلوبه الثوري الجديد، وأن تتنبأ بالهول القادم فوق رؤوسها؟!...

فجأة انبعثت أضواء الكشافات في كل مكان لتحيل ليل البركة نهاراً، وفجأة أخذ الفتية يصرخون في هياج، وأقدامهم تجوث هنا

وهنـاك، فوثبـت الضفـادع جميعهـا في هلـع إلى البركـة وأخـذت تسـبح غـير مصدقـة ما يحدث، فـإذا بالفتية يثبـون وراءها ويخوضـون بأقدامهم الثقيلـة وتحركاتهم المجنونة غـمار البركة، محيلين الطبيعـة فيها إلى جحيم، فانطلقـت الضفادع في هيسـتيريا تسـبح نحـو القاع، إلى أن احتشـدت به جميعـاً، فقـط لتتبعهـا الأقـدام إلى هنـاك، فتنطلـق المخلوقـات المسـكينة مـن جديـد لا تلـوي عـلى شـئ، وقـد فقـدت صوابهـا تمامًا مـن الرعب والصدمـة، فأخذ البعض منهم يتخبط في الأقدام وينسـل من بينها داخل البركـة، وكانـت تلـك الحفنـة مـن الضفادع هـي التـي نجت بأنفسـها.

أمـا الغالبيـة العظمـى منهـا فقـد قـررت أن تهجـر البركـة إلى الأبـد وتبحـث لنفسـها عـن موطـن جديد لايقـع فيه مثـل ذلك الجنـون الذي هتـك اتفاقـات التعايـش بينهـا وبـين البـشر في تلـك المنطقـة إلى الأبـد؛ فاتخـذت ضفـادع البركة سـبيلها نحـو الخـارج، في موجـات وجماعات، ولم تكـن تـدري أنهـا بذلـك إنـما قد سـيقت نحـو حتفهـا، فـما إن بلغت حافـة البركة وأخـذت تثب هاربة في عشـوائية وفوضى، ذكـورا و إناث، كبـار وصغـار، خـضراء وبنية، حتـى كانت أضـواء المصابيـح وقبضات الرجـال والرعـب ثـم الرعـب، في انتظارهـا، وكأنهـا ثمار طابـت وحان وقـت قطافهـا.. فقـد خـرج الفتيـة مـن البركـة بعدمـا نجـح مخططهـم وبسرعـة الـبرق أخـذوا يقتنصون الضفـادع كمـن يقطفون ثـمار الكرز، ويجمعونهـا كمـن يجمعـون البطاطـس، فيلقـون بها عشرات، بل خمسـين فخمسـين، في الأكيـاس الخيشـية، حتـى امتـلأت عـن آخرهـا وغصت بكميـات لا تحـصى من الضفـادع المنهكة، المذعـورة ، الملتاعة لمـا آل إليه مصير ها .

لقد تمكنت بعض من الضفادع من الهرب، كما نجا بعضها الآخر داخل البركة، ولكن، وعبر التاريخ برمته، لم تحدث مثل تلك الإبادة الجماعية للضفادع من قبل.

كان الصيد يزن أرطالاً، ولم يكن من الممكن إحصاء أعداد الضفادع التي تم صيدها، لكنها غالباً كانت تتراوح مابين ستمائة إلى سبعمائة ضفدع.

قام ماك بربط أكياس الخيش بإحكام، وكان الماء لايزال يقطر من ثياب الفتية وأطرافهم، ثم جلسوا جميعاً فوق العشب من جديد لاحتساء بعض من الشراب قبل العودة إلى منزل الكابتن سريعاً حتى لايصابوا بنوبة زكام بسبب الهواء البارد.

ولم يكن مضيفهم، في الغالب، قد مر بتجربة ممتعة في حياته كلها كتلك التي خاضها مع الفتية في تلك الليلة، وقد شعر أنه قد بات مدينًا لهم بالكثير، حتى أنه لم يبالِ حينما أمسكت النيران في حواف الستائر في وقت لاحق من الليل، واضطر الفتية لإطفائها مستخدمين المناشف الصغيرة المعلقة، حينها قال لهم الرجل ألا يشغلوا أنفسهم بما وقع وألا يعتذروا عنه، حتى بدا الأمر وكأنه يشعر أنه لمن الشرف له أن يضرموا النيران في منزله بأكمله إن هم أرادوا ذلك.

( إن زوجتي امرأة رائعة، رائعة جدًا، لدرجة أنها كان ينبغي أن تكون رجلاً، ولو أنها كانت كذلك لما تزوجتها) قالها الرجل ثم أخذ يضحك كثيراً جداً، وظل يكرر عبارته تلك لثلاث أو أربع مرات وكأنه يحفظها كي يكررها على مسامع كل من يصادفهم فيما بعد.

ثـم إنـه قام بمـلء أحـد الأباريـق بالويسـكي وقدَّمـه إلى مـاك، فلقد أحـب الرجـل صحبـة هـؤلاء الفتيـة، حتى أنـه تمنى لـو يرحل مـن هذا المنـزل ليحيـا معهـم في»قـصر فلوبهـاوس «، وفي قرارتـه كان يؤمـن بأن زوجتـه كانـت لتحبهـم كثـيراً لـو أنها قـد عرفتهم.

أخـيراً مـضى الرجل لينـام على الأرض بـين الجراء الصغـيرة، في حين جلـس مـاك والفتيـة يصبون لأنفسـهم بعـض مـن الويسـكي ويرمقون الرجـل عـن كثـب، ثـم قـال مـاك : ( لقـد أعطـاني ذلـك الإبريـق مـن الويسـكي، أليـس كذلـك؟ أنتـم سـمعتموه مثلي؟)

( نعم، لقد فعل) أجابه إيدي ( لقد سمعته وهو يعطيك إياه)

(كما أنه قد سمح لي بأخذ أحد الجراء، صحيح؟)

(بالتأكيـد، لقـد سـمعناه جميعًـا يأذن لـك باختيـار أحدهم لنفسـك، ولكـن لمـاذا تسـأل تلك الأسـئلة؟)

( أنـا لم أغـرق في نوبـة مـن السُـكْر مـن قبـل، ولا أنـوي ذلـك، أمـا هـو، وقـد بـات في تلك الحالة، فسـوف يصحو غـدًا وهو في حال بائسـة ومـزاج معتل شـديد السـوء، وسـوف يحملنا تبعـات كل تلـك الفوضى حولنـا. سـوف يكـون كل ذلـك خطأنـا نحـن... علينـا أن نغـادر ذلك المـكان فـوراً، فـلا أريـد أن أبقـى هنا حينـما يفيـق) قالها مـاك وهو يجول ببـصره عـلى السـتائر المحترقـة والأرض الملطخـة بالويسـكي وفضلات الجـراء ،وبقايـا دهـن لحـم الخنزيـر اللزجـة فـوق مقدمـة الموقـد، ثـم إنـه تقـدم نحـو الجِـراء، وأخـذ يتفحصهـا بعنايـة ويتحسـس أجسـادها ويضغـط عـلى عظامهـا وينظـر في عيونهـا، ثـم انتقى واحـداً منهـا، كلبة

صغيرة مرقطة ذات أنف لامع وعيون صفراء داكنة جميلة : ( تعالي أيتها الحسناء، هيا)

ثم قاموا بإطفاء المصباح الزيتي خشية وقوع حريق آخر؛ ولم يكن الفجر قد بزغ بعد حينما غادروا المنزل.

(أظن أنني لم أقم في حياتي كلها برحلة ممتعة كتلك) هتف ماك وهم يبتعدون ( إلا أنني أفكر حالياً فيما سوف تفعله زوجته حينما تعود إلى المنزل وترى الفوضى الضاربة أطنابها هناك. إن جسدي ليقشعر لمجرد تخيل ردة فعلها)

ثم إن الجرو أصدر صوت زمجرة وتململ بين ذراعي ماك، فقام بوضعه تحت معطفه، واستطرد : ( إن مضيفنا لرجل لطيف حقاً، هذا بالطبع حينما تجعله يشعر بالارتياح تجاهك)

ثم إنه أسرع الخطى قليلاً نحو المكان الذي تركوا فيه الشاحنة الفورد، وقال : ( يا شباب، علينا ألا ننس أننا إنما نفعل كل ذلك من أجل دوك، والحقيقة أنه يتراءى لي مما تسير عليه الأمور أن هذا الفتى مجدود الحظ إلى حد بعيد)

***

# -١٦-

لم يشهد بيت دورا وفتياته موسما أكثر ازدحامًا بالزبائن وازدهارًا في العمل، أكثر من شهر مارس، موسم الصيد الكبير. ولم تكن أسباب الازدهار هذه المرة تنحصر فقط في بلايين الأسماك الفضية التي تأتي بها الشباك، وما يعنيه ذلك من أموال غزيرة، تُنفَق بلا حساب في بيت دورا، ولكن كان هناك سبب آخر طارئ قد جد على المنطقة، يتمثل في تلك الكتيبة العسكرية الجديدة التي إنتقلت إلى «بريسيديو»، وجنودها الذين كان من دأبهم ارتياد أماكن المتعة قبل أن يعودوا إلى ثكناتهم وعملهم العسكري.

ومع ذلك، وفي ذروة موسم تدفق الأموال هذا، وجدت دورا نفسها عاجزة عن اغتراف المكاسب كما ينبغي لها، فقد كانت في ذلك الوقت تحديداً تعاني نقصًا في العمالة!، وشحًا في فتيات المتعة؛ فإيفا فلاناجان قد مضت في رحلتها المنشودة نحو «سانت لويس» كما كانت تتمنى، وفيليس ماي قد كُسِرت ساقها وهي تغادر القطار المفتوح في «سانتا كروز»، أما إيلزي دابل بوتوم فقد كرست وقتها للصلوات الكنسية التاسوعية حتى لم تعد

تصلح لأي شيء آخر.

وكان العاملين على أسطول الصيد، المثقلة جيوبهم بالأموال، يأتون كل يوم خلال ساعات مابعد الظهيرة، فهم يمكثون طوال الليل على ظهر سفن الصيد في عرض البحر ولا يملكون متسعًا من وقت كي يروحوا عن أنفسهم سوى في ساعات الأصيل.

أما في المساء فكان جنود الكتيبة الجديدة يتوافدون إلى البيت ليتحلقوا حول جهاز تشغيل الموسيقى ويشربون الكوكاكولا، ويتفرسون في أجساد البنات، من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، ثم ينتقي كل منهم فتاته لليلة.

ولم تكن متاعب دورا لتقتصر فقط على قلة عدد البنات لديها، بل كانت تعاني من مشاكل أخرى تتعلق بضرائب الدخل. والحقيقة أن هذا الأمر تحديدًا كان يمثل معضلة حقيقية ولغزًا عجيبًا بالنسبة لها، فالسلطات تعتبر أعمالها غير مشروعة، لكنها لاتجد غضاضة في فرض ضرائب على دخلها من تلك الأعمال!

أضف إلى تلك المصاعب جميعها، التدفق المتواصل للزبائن الدائمين الذين يترددون بانتظام، على مدار سنوات، على بيت دورا، من عمال ومزارعين وعمال السكة الحديد، الذين يدخلون من الباب الأمامي علانية، ورجال الدولة ورواد الأعمال البارزين الذين ينسلون داخلين عبر الباب الخلفي، حيث تخصص لهم دورا غرفا خاصة لراحتهم... وكان على دورا في ذلك الموسم المكتظ، وفي خضم

كل تلك المشاكل التي تعانيها، أن تخدم جميع هؤلاء الزبائن، معًا، وتسهر على راحتهم وإرضائهم..... لكم كان شهرًا رهيبًا مروعًا، مكتظًا بالأعمال، مزدحمًا بالمشاكل.

ثم جاء وباء الإنفلونزا ليزيد الأمور سوءًا فوق سوء، وتعقيدا على تعقيد؛ فقد اجتاح الوباء البلدة على حين غرة بدءًا من منتصف مارس، فأصيبت به السيدة «تالبوت» أولاً ثم التقطت ابنتها العدوى منها، ثم ز» توم وورك «، وكذلك» بنيامين بيبودي « وزوجته، ثم السيدة» ماريا أنطونيا فيلد «، وأسرة « جروس « بأكملها...

وكان الوضع كفيل بأن يصيب أطباء مونتيري قاطبة بالجنون، وقد كان عددهم بالكاد يكفي لاستيعاب المرضى العاديين والتعامل مع مصابي الحوادث، وما كان ينقصهم أبدًا ذلك العبء الجديد الذي أُلقي على عواتقهم مع تفشي الوباء بتلك الصورة.

أما شارع السردين المعلب، ذلك الذي اعتاد أن ينجب أبناءً أكثر قوة وصلابة من باقي أبناء البلدة، فلم ينل نصيبه من الوباء المتفشي إلا متأخرًا، وحينما وصله المرض، كان الأثر فادحاً، فأغلقت المدارس أبوابها، ولم يخلُ بيت على طول الشارع وعرضه من طفل محموم أو بالغ سقيم.

صحيح أن الوباء لم يكن مميتاً هذه المرة مثلما كان في عام ١٩١٧، إلا أنه قد تسبب في إصابة الأطفال بالإلتهاب الخشائي (*) ؛ لكن

* - الإلتهاب الخشائي: ويطلق عليه كذلك إلتهاب النتوء الحلمي، هو من أمراض إلتهاب العظام ويصيب «الناتئ الخشائي» - وهو جزء من عظم الصدغ يقع خلف الأذن - ويعد أحد مسببات وفيات الأطفال. «المترجمة»

الأطباء كانوا منهمكين حتى الأذنين في أعمالهم ، وعلاوة على ذلك، لم يكن شارع السردين المعلب وسكانه ليمثلوا مكسباً ماليًا لهم، ولم يكن فقدان زبائنه ليمثل خسارة كبيرة.

ولم يكن دوك حاصلا على إجازة طبية ما ، لذا لم يكن له الحق في ممارسة الطب، ومع ذلك فقد توافد عليه سكان الشارع يلتمسون استشاراته ونصائحه فيما يعانونه، فوجد نفسه، من دون أن يدري، ينتقل من بيت إلى بيت، ليقيس درجة حرارة هذا، ويعطي الدواء لذاك، ويوزع البطاطين والأغطية، بل والطعام كذلك، فتتطلع إليه الأمهات بأعين ملتهبة وهن على فراش المرض، ويشكرنه ممتنات، وقد وضعن فيه ثقتهن وألقين على كاهله مهمة إنقاذ أبنائهن من الوباء.

وحينما كان يجد أن حالة أحد المرضى قد خرجت عن السيطرة، كان يسارع بالاتصال بأحد أطباء البلدة طالبًا العون، وأحياناً كان الطبيب يستجيب للنداء إذا علم أن الحالة خطيرة بالفعل. أما بالنسبة للأسر فقد كانت كل الحالات خطيرة في نظرهم...

وفي ظل تلك الظروف العصيبة لم يكن دوك ينل من النوم إلا النذر اليسير، وكان يحيا تقريباً على الجعة والسردين المعلب ليس إلا؛ وفي إحدى المرات ذهب إلى دكان لي شونج ليبتاع شيئا من الجعة، فقابلته دورا هناك، حيث كانت تشتري مُقَلِّم للأظافر، فما إن رأته حتى صاحت : ( إنك تبدو منهكا تماماً)

(نعم، أنا كذلك فعلاً... فلم أنل أي قسط من النوم منذ نحو أسبوع)

( أعلم.. لقد سمعت أن الوضع جد سيئ... وضع سيئ في توقيت

سئ )

( حسنًا، على الأقل لم نفقد أي شخص بعد جراء الوباء اللعين، ولكن للأسف هناك أطفال في حالة خطرة، وقد أصيب أطفال أسرة «رانسيل» جميعهم بالالتهاب الخشائي)

فسألته دورا : ( هل ثمة ما أستطيع فعله؟)

( بالطبع، إن الناس لمرتعبين حقاً، وقد استحوذ عليهم اليأس والهلع فباتوا خائفين من الموت، يشعرون بالذعر من فكرة أن يُتَرَكوا لواجهوا مصيرهم وحدهم. وإنه لفي مقدورك، أنت و بعض بناتك، الذهاب إلى بعض من هؤلاء المساكين والبقاء إلى جانبهم قليلا)

والحقيقة أن دورا بقدر ما كانت لعوب ناعمة، فقد كانت أيضًا، حينما تستدعي الظروف، صلبة قوية، صارمة، تعلم جيدًا مايتوجب عليها فعله؛ فما إن عادت إلى البيت حتى أخذت تعد كل شئ لما تنتوي فعله. صحيح أن التوقيت كان سيئًا، لكنها فعلت ما ارتأته صواباً، فأمرت طاهيها اليوناني بإعداد قدرًا كبيرًا يسع لعشرة جالونات من الحساء، وجندت فتياتها لخدمة المرضى والسهر على راحتهم، فقمن بتقسيم أوقاتهن وتوزيع أدوارهن، حيث كن يؤدين أعمالهن المعتادة في إمتاع زبائن البيت، ويتناوبن في ورديات على بيوت المرضى لرعايتهم، حاملات معهن قدور الحساء الساخن.

وكان دوك حاضرًا دومًا في خدمة كل من يحتاجه، وكثيراً ما كانت دورا تستشيره في بعض التفاصيل الخاصة برعاية المرضى ثم تلقي بالتعليمات التي أملاها، على فتياتها.

ولم يتوقف العمل لحظة في بيت دورا، بل كان في ازدهار مستمر، حيث صوت الموسيقى ينبعث بلا توقف، ورجال الصيد، والجنود، و.... ، يتوافدون بلا انقطاع، والفتيات يؤدين أعمالهن على أكمل وجه، ثم يتوجهن بآنية الحساء إلى مهامهن الأخرى لتمريض الصغار والكبار، ولكم كان النعاس والإعياء يغلبهن أثناء سهرهن بجانب الأطفال المرضى، فلا يدرين إلا وقد أطبقت جفونهن وسقطت رؤوسهن على صدورهن ورحن في نوم منهك وهن بعد جالسات في مواضعهن على الكراسي بجانب أسِرّة الأطفال.

ومع الوقت لم تعد فتيات دورا يضعن زينتهن ويصبغن وجوههن بالأحمر والأبيض أثناء العمل، كذلك وجدت دورا أن بإمكانها الاستفادة من الفتيات العجائز اللائي يقمن لديها وأنه يمكن أن يصبح لهن دور ما أخيراً.

لقد كان هذا الموسم بحق أكثر الأيام التي مرت على بيت دورا ازدحامًا بالعمل، وحينما انقضى أخيراً، تنفس الجميع الصعداء بارتياح.

***

# -١٧-

بالرغم من كثرة أصدقائه، والمودة التي كانت تحوطه من الجميع، إلا أن دوك كان رجلاً إنعزاليًّا وحيدا. ولعل ماك كان أكثر من لاحظوا ذلك الأمر. وحتى في الحفلات والتجمعات، كان دوك يبدو وحيدًا دومًا.. وحينما كانت أنوار الطابق الثاني من المختبر تضاء، و تُسدَل الستائر، وتصدح الموسيقى، كان ماك يتطلع إلى المختبر وقد أدرك أن لدى الرجل فتاة ما، إلا أن شعورًا موحشًا كان ينتابه حينها، فقد كان يعلم في قرارة نفسه أن دوك وحيد!، حتى وهو في رفقة حميمية مع فتاة، يظل وحيدًا منعزلاً.

وكان دوك «دودة ليلية» بامتياز، حيث تجد أضواء مختبره مضاءة طوال الليل، ومع ذلك فقد كان يظل متيقظا طوال ساعات النهار أيضًا، حيث كانت الموسيقى لا تنقطع من لدنه ليلا أو نهارًا. وفي بعض الأحيان، حينما يطفئ الرجل أضواء مختبره، ويبدو أنه على وشك النوم أخيراً، كانت الموسيقى الكنسية تصدح من الفونوغراف، وتملأ الأصوات الطفولية لجوقة كنيسة سيستين الأجواء بتراتيلها الرنانة.

وكان من طبيعة عمل دوك أن يسعى لجمع صنوف وأشكال شتى من الحيوانات والكائنات المائية، فكان يتحرى دومًا أوقات المد والجذر كي يتخير الوقت الأنسب لجمع مايلزمه منها. وقد كان محنكا في عمله، يعرف جيدًا أين ومتى يجد بغيته وقتما أرادها، وكأنما صارت صخور البحر وشواطئه متجرًا أبديًّا له يحفظ جوانبه وثناياه عن ظهر قلب، فهنا يجد ما يلزمه من أخطبوط، وهناك يتواجد الدود الشريطي البحري، وفي ذاك الموضع تحيا النباتات البحرية.... وهكذا. لقد تعلم كيف وأين يجد ماينشد، لكنه ما كان بمقدوره أن يحصل على كل ما يريد دوما لحظة حاجته إليه، فقوانين الطبيعة تحكم كل شئ، وهي تحتجز كنوزها فلا تتيحها إلا لمامًا، لذا فقد كان على دوك أن يعرف ليس فقط مواقيت المد والجذر، وإنما أماكنه وإحداثياته كذلك، حتى إذا تسنى له تحديد أفضل أماكن انحسار المياه وتوقيتها، جمع أدوات الصيد وآنيات الحفظ والزجاجات في سيارته وانطلق إلى حيث الشاطئ الرملي، أو سلسلة الصخور، حيثما يقع ما يحتاج لجمعه من كائنات.

وقد حدث أن دوك قد تلقى تكليفا بجمع بعض من الأخطبوط صغير الحجم، وكان أقرب مكان يمكن أن تتواجد فيه تلك الكائنات يقع على بُعد خمسة أميال عند «لا جولا» بين لوس أنجلوس وسان دييجو، وكان يتعين عليه أن يصل إلى هناك في وقت الجذر حيث تنحسر المياه بما يسمح له باصطياد الأخطبوط.

والحق أنها عملية صعبة، فاخطبوط البحر الصغير يحيا دومًا بين الصخور المدفونة في الرمال، وعادة ما تفضل تلك الكائنات، خاصة

حديثة السن منها، اللجوء إلى القاع حيث تنتشر العديد من الكهوف والفجوات والطين، بما يُهيئ لها بيئة مواتية للاختباء.

إلا أن مفاجأة طيبة كانت تنتظر دوك على الصخور المحيطة، حيث كانت ملايين من كائنات «الخيتون» (*) التي كثيرًا ما يحتاج إلى كميات منها، تتجمع على تلك الصخور.

وكان الجذر سيبدأ في تلك المنطقة من الساعة ١٧ , ٥ من بعد ظهر يوم الخميس، وقد أدرك دوك أنه إذا شد الرحال من مونتيري في صباح الأربعاء فسوف يتمكن من الوصول إلى منطقة صيده في نفس وقت الجذر تقريباً؛ والحقيقة أن الرجل كان في حاجة إلى صحبة معه، ولكن شاء القدر أن يكون الجميع إما مشغولين أو غير متواجدين في تلك الفترة، فماك وفتيته قد ذهبوا إلى وادي كارميل كي يصيدوا له الضفادع، وكانت ثلاثة من النساء اللائي يعرفهن ويستمتع بصحبتهن، منشغلات في أعمالهن وليس في مقدور أي منهن الإنطلاق في رحلة كهذه في منتصف الأسبوع، كذلك كان هنري الرسام منشغلا حتى أذنيه في أمر جديد، فقد قامت محلات هولمان بتعيين «متزلج سارية» كنوع من الدعاية لها؛ فعلى سارية طويلة فوق سطح المتجر، قاموا بتثبيت منصة مستديرة، وعليها أخذ المتزلج يدور ويدور بلا هوادة، لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، وقد كان يبغي تحقيق رقماً قياسياً جديدًا أعلى من آخر رقم تمكن من تحقيقه، ١٢٧ ساعة، لذا فكان عليه أن يواصل الدوران.

---

* - الخيتون : كائن من فصيلة الرخويات البحرية.

«المترجمة »

وعلى الجهة الأخرى من الشارع، قبالة المتجر، كان هنري قد اتخذ مُستَقَرًّا له هناك، فقد استحوذ عليه المشهد وأُخِذَ تمامًا بما رأى، فأخذ يفكر في رسم لوحة تجريدية للمشهد الدائر أمامه، على أن يطلق عليها اسم : حلم متزلج السارية، وهكذا أقام هنري في مكانه هذا لا يبارحه، على مقعد عند محطة وقود ريد ويليامز، يتابع حركة المنصة والمتزلج دون أن يطرف له جفن، مبررًا شغفه هذا بأن ذلك الذي يدور أمامه يحوي مضامين فلسفية لم يدركها غيره.

وهكذا بات واضحًا أن على دوك أن يرتحل وحده إلى «لا جولا».

وفي الساعات الأولى من صباح الأربعاء، حزم دوك حقائبه وأخذ بحوزته ما يلزمه لرحلته، فوضع حاجياته الشخصية في حقيبة صغيرة، والآنيات والمحاقن في حقيبة أخرى، ثم هذب شعره وشذب لحيته، وتحقق مما إذا كان قد أخذ معه أقلامه وعدسته المكبرة. ثم أنه أخذ يضع أطباقه وزجاجاته والمواد التي سيحتاج إليها، في مؤخر سيارته، ولم ينس إصطحاب بطانية وحذاءا مطاطيا معه؛ وبعدما تحقق من أنه لم ينس شيئاً، خرج من المختبر وصفق الباب خلفه، لكنه لم يغلقه بالمفاتيح، وعند الساعة التاسعة صباحاً كان في طريقه إلى لا جولا.

كان دوك من نوعية البشر الذين يستغرقون وقتا أطول من غيرهم في الوصول إلى وجهاتهم، فهو لا يقود سيارته عند سرعة عالية، وكثيراً ما يتوقف لتناول شيئاً من الهمبورجر أثناء الطريق، لذا، ففي تلك الرحلة، وهو بعد في مونتيري لم يغادرها، شعر دوك بالجوع، فتوقف أمام محل هيرمان ليتناول شطيرة من الهمبورجر وكوب من الجعة.

وفيما هو يتناول طعامه وشرابه، تذكر حديثه مع الشاعر «بليز يديل» يوم أن قال له الأخير : ( إنك تحب الجعة كثيرًا. أراهن أنه سوف يأتي يوم وتطلب مشروب الحليب المخفوق «الميلك شيك» ممزوجاً بالجعة).... كانت تلك مجرد محادثة طريفة، لكنها ظلت عالقة في ذهن دوك منذ ذلك الحين، وظل يتساءل كيف يكون مذاق الجعة بالحليب هذا؟! صحيح أن الفكرة كانت تثير اشمئزازه، لكنه لم يستطع إبعادها عن ذهنه، فكانت تراوده كلما تناول كأساً من الجعة.... ترى، هل تتسبب في تخثر اللبن؟ هل يضاف إليها السُكَّر؟... إنها أشبه ما تكون بأن يتحدث أحدهم عن «آيس كريم القريدس»!، بمجرد أن تسمع بها تبقى عالقة في ذاكرتك فلاتستطيع نسيانها أبدًا.

أنهى دوك وجبته، ثم توجه نحو الخزينة ودفع حسابه، متحاشياً النظر لماكينات اللبن المخفوق التي تلتمع قبالة الجدار الخلفي، ثم مضى وهو يقول في قرارته أنه لو قرّر أحدهم يومًا طلب اللبن المخفوق بالجعة فعليه أن يفعل ذلك في مكان لايعرفه فيه أحد... ومع ذلك، فلو أن من يطلب ذلك المشروب رجل ذو لحية فمن المحتمل أن يستدعي الناس الشرطة لتلقي القبض عليه، فالرجل الملتحي هو موضع ريبة على الدوام؛ وإن المرء لايستطيع أن يقول ببساطة أنه ملتح لأنه يحب أن يكون كذلك، فالناس لا تحب من يتحرى الصدق في كلامه، بل إنه من الأفضل والأسلم أن تكذب عليهم وتخادعهم عن أن تقول الحقيقة. وليقل الملتحي حين يُسأَل عن لحيته أنه مصاب بجرح يمنعه من حلاقة ذقنه، فهذا خير له وأنفع، وبهذا لن يطاله شك أو أذى.

وتذكر دوك أيام شبابه الأولى، حينما كان طالبًا في جامعة شيكاغو، حين كان محبًا للعمل الشاق والمتاعب، فقرر يومًا أن يرتحل في نزهة طويلة على الأقدام، فأخذ حقيبته ومضى سيراً عبر إنديانا وكنتاكي وكارولينا الشمالية وجورجيا، إلى أن وصل إلى فلوريدا؛ فسار بين المزارعين، والرعاة، والصيادين، وفي كل مكان كان يبلغه كان الناس يسألونه عن سبب ارتحاله في الأرياف، ولأنه كان يُقَدِّر قيمة الحقيقة ويتحرى الصدق في قوله دوما، فكان يجيب في صراحة بأنه كان يشعر بالتوتر فأراد أن يُرَوِّح عن نفسه ويتخفف من ضغوطه في الهواء الطلق، إضافة إلى رغبته في رؤية الريف وتلمس نسائم الأرض والتمتع بمنظر الخضرة والعشب والأشجار... لقد أراد أن «يتذوق» طعم الريف، وليس من سبيل إلى ذلك سوى التجول سيرًا على الأقدام.

ولكن للأسف، ما إن فاه بالحقيقة حتى لم يعد أحد يتقبله، وأخذ كل من سمعوه يهزون رؤوسهم أو يضحكون هازئين منه، بل منهم من قطب جبينه وقد بدا لهم الأمر برمته كذباً، حتى أن بعضهم قد قام بطرده من أماكنهم، وأبلغوه أنه من الخير له ألا يبقى بالقرب منهم أو يدنو من مزارعهم، خشية منه على بناتهم وأبقارهم وخنازيرهم و...

وهكذا كف دوك عن قول الحقيقة وتحري الصدق ودروب الصراحة، وأخذ يزعم لمن يسأله أنه قد خرج في تلك الرحلة كرِهَان مع أصدقائه على مائة من الدولارات، وعندئذ تقبله الآخرون، وقبلوه بينهم مرحبين به وبوجوده، وأخذوا يدعونه لتناول الطعام

معهم، واستقبلوه في بيوتهم ووفروا له فراشًا، بل وأعدوا له بعض من المؤن ليأخذها معه على الطريق أثناء استئنافه لرحلته، متمنين له الحظ السعيد، وقد اعتبروه شخصًا جيدًا وصديقًا لطيفاً.

وبرغم كل شيء، لايزال دوك يحب الحقيقة ويُقَدِّر الصدق، لكنه قد تعلم أن الحقيقة قد تكون خطرة أحيانًا، تورد صاحبها موارد التهلكة.

لم يتوقف دوك في ساليناس كي يتناول طعامًا، بل تجاوزها إلى «جونزاليس»، في مدينة كينج، حيث توقف قليلاً هناك، ثم توقف ثانية في» باسو روبلز «، ثم» سانتا ماريا « حيث تناول شطيرتين من الهمبورجر هناك نظرًا لطول المسافة حتى محطة التوقف التالية في» سانتا باربرا «.

وفي» سانتا باربرا « تناول دوك قدرًا من الحساء والخس وسلاطة اللوبيا، مع لحم محمر وبطاطس مهروسة، والجبن الريكفورد، وفطائر الأناناس، وفنجان من القهوة، ثم قام بالتزود ببعض الوقود من محطة كائنة هناك، حيث دخل إلى الحمام ريثما يفحص عمال المحطة زيت سيارته وإطاراتها، فقام بغسل وجهه وتمشيط لحيته.

وحينما عاد إلى السيارة وجد بجوارها عدد من المرتحلة على الطريق ينتظرونه، علّه يقوم بتوصيلهم في طريقه... (هل أنت متجه إلى الجنوب ياسيدي؟)

وكان دوك معتادًا على السفر والترحال على الطرق السريعة، وكان يعلم جيداً أن عليه أن يتوخى الحذر في انتقائه لمن يختارهم لمرافقته من بين هؤلاء، كذلك كان يعرف أنه من الأفضل له أن ينتقي

الأكثر خبرة من بينهم بأصول الترحال على الطريق، فهؤلاء دائمًا ما يلتزمون الصمت طوال الرحلة، أما المستجدين منهم فإنهم كثيرًا ما يتصنعون المرح والظرف، ولايكفوا عن الثرثرة طوال الوقت كنوع من رد الجميل؛ كذلك من الأفضل أن يدَّعي صاحب السيارة أن وجهته ليست ببعيدة، حتى إذا ضاق ذرعاً بمرافقه الذي انتقاه، تيسر له أن يتخلص من رفقته سريعاً.

وهكذا أخذ دوك يتفحص المتحلقين حول سيارته وبجانبها كي يختار منهم واحدًا، حتى وقع اختياره على أحدهم، وكان رجلاً نحيل الوجه يرتدي زيًّا أزرق، ذو عينين داكنتين، وعلى جانبي فمه ارتسمت خطوط عميقة؛ وكان الرجل ينظر إلى دوك بدوره في شئ من عدم الارتياح، لكنه قال له : ( أذاهب إلى الجنوب ياسيدي؟)

( نعم) أجابه دوك ( إلى مسافة قريبة من هنا)

(هل تمانع في أن تُقِلَّني معك؟)

(اركب)

ثم انطلق الاثنان حتى وصلا إلى « فينتورا»، وهي على مسافة قصيرة من نقطة انطلاقهما، فتوقف دوك وترجل لشراء بعض من الجعة، وسأل الرجل الذي لم يكن قد تفوه ببنت شفة منذ أن صعد إلى السيارة : ( هل تريد بعض من الجعة؟)

(لا) أجابه الرجل، ثم : ( وإنني لا أجد غضاضة في أن أقول لك أنه لمن الخطورة أن يقود المرء وهو تحت تأثير الخمور. أنا لا

يحـق لي بالطبـع التدخـل في تصرفاتـك الشـخصية، لكنك تقود سـيارة، والسـيارات من الممكن أن تصبح سـلاحاً خطراً في يد السـائق المخمور)

فذُهِـل دوك ممـا سـمعه تـواً، وارتـج عليه للحظـات، ثم سرعـان ما تمالـك نفسـه وقـال في هـدوء : ( اخـرج من السـيارة)

(ماذا؟! )

(سـأعد مـن واحـد وحتى عـشرة، فـإن لم تخرج من سـيارتي فسـوف أقـوم بلكمك في أنفك وأوسـعك ضربـاً... واحد... اثنـان... ثلاثة...)

فسـارع الرجـل بالترجـل عـن السـيارة، وبمجـرد أن وطـأت قدماه الأرض حتـى صـاح : ( سـوف أبحث عـن أحد أفراد الشرطـة وأطالبه بإلقـاء القبـض عليك)

فـما كان مـن دوك إلا أن فتـح صنـدوق معـدات السـيارة وأخرج منه أحـد مفاتيـح الربط المعدنيـة الضخمة ملوحـاً به في وجـه الرجل، الذي مـا إن رأى المفتاح حتـى ولّى الأدبار.

فأعـاد دوك المفتـاح إلى الصنـدوق ثم مشـى في عصبيـة، وكان لايزال غاضبـاً، وتوجـه نحـو منصـة البيـع بالمتجـر، فابتسـمت لـه النادلـة، وكانـت امـرأة شـقراء جميلـة تبـدو عليهـا أعـراض الإصابـة بتضخـم الغـدة الدرقيـة، وقالـت : ( بـماذا أخدمـك يـا سـيدي؟)

( أريد جعة بالحليب المخفوق!)

( ماذا؟!.... هل تمزح؟)

هنـا أدرك دوك أنـه إنـما يواجـه مشـكلة جديـدة، لكنه قد بـات يعلم جيـداً أن قـول الحقيقـة لـن يفيـده في شـيء، فقـرر التخلص من المشـكلة كيفـما اعتـاد منـذ زمـن : ( إنني أعـاني من مشـكلة في المثانـة، حيث قال لي الأطبـاء أننـي مصـاب بمـرض يدعـى « بيبالوكاتورسـوني كتومي» و أمـروني بـأن أحتسي جعة الحليـب المخفـوق كعلاج)

هنـا ابتسـمت الفتـاة من جديد وقالـت : ( آه. لقد حسـبتك تمزح... حسـناً، أخـبرني بكيفيـة تحضـير ذلـك المـشروب وسـوف أعـده لـك.. أسـتميحك عـذراً، فلـم أكـن أعلم أنـك مريض)

(إننـي مريـض جـدًا، ومُعَـرَّض لأن يشـتد عـلي المـرض... ضعـي بعـض مـن الحليـب وأضيفي إليـه نصـف زجاجة مـن الجعـة، وأعطني النصـف الآخـر في كأس، ولاتضعـي أي سـكر في المـشروب)

ففَعَلَـت كـما طلـب، ثـم قدمـت إليـه المـشروب، فتذوقـه في حـذر، فوجـد مذاقـه ليـس سـيئاً جـدا، بـل كان يشـابه طعـم الجعـة والحليـب غـير الطازجـين)

فبادرته الشقراء قائلة : ( ( يبدو أن مذاقه شنيعاً)

(ليـس سـيئاً لمـن اعتاد عليـه... إننـي أتناولـه منذ حوالي سـبعة عشر عاماً!)

***

# -١٨-

استأنف دوك رحلته، حيث صعد إلى السيارة وبدأ يقود ببطء كعادته. وكان قد تأخر به الوقت حين بلغ «فينتورا»، مما اضطره لأن يتعجل في محطته التالية في» كاربانتريا « واكتفى بتناول شطيرة من الجبن، ودخول الحمام فقط. كذلك كان قد اعتزم تناول عشاءً جيداً في لوس أنجلوس والتي بلغها بحلول الظلام، فتوقف عند أحد مطاعم الدجاج التي كان قد سمع بها من قبل، ثم ترجل من سيارته ودخل إلى المطعم. وهناك، طلب دجاجا مقليا وبطاطس مقطعة وقطعة من الجبن الريكفورد، وكذلك بسكويت بالعسل و فطيرة بالأناناس، ثم إنه ملأ إناءه الحافظ للحرارة «الترموس» بالقهوة الساخنة، كما ابتاع ست شطائر من لحم الخنزير المملح وزجاجتي جعة من أجل الإفطار.

لم تكن قيادة السيارة في هذا الظلام أمراً ممتعاً لدوك، فلا بشر حوله ولا ضوء سوى ذلك الصادر من المصابيح الأمامية لسيارته، فاضطر دوك لزيادة سرعة السيارة كي ينهي تلك الرحلة سريعاً.

وبحلول الساعة الثانية صباحاً كان دوك قد بلغ وجهته أخيراً في «لا جولا»، فمضى بسيارته عبر طرقات البلدة إلى حيث الجرف الصخري، وهناك توقف بالسيارة ثم تناول إحدى الشطائر وشرب بعض من الجعة، ثم أطفأ أضواء السيارة، وتكور حول نفسه في مقعده ونام.

ولم يكن دوك في حاجة إلى منبه لإيقاظه، فقد أَلِف حركة المد والجذر حتى انضبط إيقاعه الحيوي عليها وبات يستشعر حركة البحر أثناء نومه، لذا فقد استيقظ بحلول الفجر، وحين نظر من زجاج سيارته رأى الماء وهو آخذ في الانحسار كاشفاً عن القاع الصخري، فاحتسى بعضًا من القهوة الساخنة وأكل ثلاث شطائر وشرب قليل من الجعة.

وكان الماء يواصل انحساره تدريجياً لتظهر من تحته الصخور والحجارة، والتي بدا وكأنها ترتفع فيما يتقهقر المحيط، مخلِّفاً ورائه مجرد برك ضحلة وأعشاب ندية وطحالب وكائنات اسفنجية زاهية الألوان كقوس قزح، بنية وزرقاء وحمراء. وفي القاع، تستقر بقايا الكائنات البحرية العجيبة، أصداف متشققة... بقايا هياكل عظمية... براثن...، حتى بدا وكأن قاع البحر قد بات مقبرة تعج بالحياة!

أخرج دوك حذاءه المطاطي وارتداه، ووضع على رأسه قبعته المضادة للمياه، ثم حمل حقائب أدواته ومعداته، وكذلك شطائره وإناء حفظ القهوة الساخنة، حيث قام بوضعهم في حقيبة منفصلة، وانطلق إلى الأسفل عبر الجرف الصخري إلى حيث القاع المنبسط

أمامه، وشرع في العمل. فأخذ يقلب بين الحجارة، ومن حين لآخر تنقض يده بين الماء الراكد لتقبض على أخطبوط صغير يتلوى في غضب ويبصق الحبر فوق يد صائده، ثم يلقي به في واحدة من المرطبانات التي ملأها بمياه البحر، وقد أصيب الأخطبوط بحالة من الهياج تجعله يهاجم باقي الأخطبوطات التي سبقته إلى المرطبان الكبير.

ومع انتهاء اليوم كان دوك قد أصاب صيدًا لابأس به أبدًا، حيث تمكن من جمع اثنين وعشرين أخطبوطا صغيرًا، إلى جانب بضع مئات من رخويات الخيتون قام بوضعهم في دلو خشبي.

وكلما كان الماء يزداد انحسارًا، كلما كان دوك يزداد توغلاً عبر القاع الصخري المنبسط أمامه، حتى كان قد بلغ مع شروق الشمس مسافة مائتي ياردة، إلى حيث الحاجز الصخري المغطى بالعشب الكثيف الذي يفصل تلك البحيرة عن المياه العميقة.

وبعد أن أنجز دوك مهمته على خير وجه، قرر قضاء باقي اليوم في تأمل المكان أسفل الحاجز الصخري وما حوله، فأخذ يحدق في برك المياه اللامعة التي تمور بالحياة والحركة، والفقاعات تنبثق منها، إلى أن انتهى إلى الحاجز الخارجي، حيث الطحالب الطويلة الداكنة تتدلى إلى الماء، ونجمات البحر الحمراء قد تجمعت على الصخور، والبحر من وراء الحاجز يموج علواً وهبوطاً، في انتظار لحظة المد ليدخل من جديد عبر الصخور ويملأ حوض البحيرة.

وفجأة، من بين صخرتين مغطاتين بالعشب على الحاجز، لمح دوك ضوءًا أبيض خاطف تحت الماء، سرعان ماحجبته عشبة طافية،

فتسلق دوك الصخور الزلقة، متشبثا بإحكام كي لاتزل قدمه، وأخذ يدني يده ببطء حتى تمكن من إزاحة الطحالب الطافية. وهنا تجمدت الدماء في عروقه وتيبست مفاصله، فمن تحت سطح المياه كان وجه فتاة يطالعه... فتاة شاحبة البشرة ذات شعر أسود وعينان صافيتان مفتوحتان.

وكان وجه الفتاة جامدًا، وشعرها يتماوج مع حركة المياه حول رأسها، أما جسدها فلم يكن ظاهرًا له وإنما كان عالقا في الفتحة بين الصخور، أما شفتاها فكانتا منفرجتين قليلاً، كاشفتين عن أسنانها، في حين غلفت ملامحها علامات السلام والراحة الأبدية، وقد جعلها الماء الصافي تبدو شديدة الجمال.

أفاق دوك من ذهوله أخيرًا، وقد بدا له أنه ظل يطالع وجه الفتاة لدقائق عديدة وقد انحفرت ملامحها في ذاكرته.

وببطء رفع دوك يده عن الماء تاركاً الطحالب لتحجب وجهها من جديد، وقد أخذ قلبه يخفق بشدة وتقلصت رئتاه حتى شعر بأنه على وشك الاختناق. ثم بدأ في جمع دلائه ومعداته، وانقلب عائدًا عبر الصخور الزلقة إلى حيث الشاطئ؛ وقد ظل وجه الفتاة ماثلا أمامه يلاحقه عبر طريقه حتى وطأت قدماه الشاطئ الرملي، فجلس وسط الرمال وخلع حذائه المطاطي، ومن مكان ما صدحت موسيقى تناهت نغماتها إلى مسامعه...

كانت النغمات حلوة، صادرة عن آلة «الفلاوت»، التي أخذت تعزف لحنا لم يستطع تذكره، لحنا تجاوز السماع إلى ما وراء الحواس،

بنغمات آسرة مذهلة، جعلت القشعريرة تسري في بدن دوك وتهز أوصاله، حتى أدمعت عيناه، كدأبه كلما صادف جمالاً باهراً.

وكان وجه الفتاة، وعيناها الرماديتان الصافيتان، لا يزال يلوح في مخيلته لايبارحها، فلزم في مكانه يصيخ السمع إلى النغمات، وأنامله تتماوج مع الإيقاع، فيما كانت المياه تعاود الارتفاع رويداً رويداً، إيذاناً بقرب حلول المد.

ظل دوك شارداً، سابحاً في العينين الرماديتين والشفاه التي بدت وكأنها قد انفرجت عن ابتسامة رقيقة، وفي خلفية ذهنه كانت الموسيقى لاتزال تداعب إحساسه، إلى أن أفاق من شروده على صوت رجل قد وقف أمامه مباشرة، يقول : ( هل كنت تصطاد؟)

(لا، كنت أجمع بعض الكائنات)

(حسناً، وماذا كنت تجمع بالضبط؟)

( كمية من الأخطبوط الصغير)

( آه، أتعني سمكة الشيطان؟ لم أكن أعلم أنها تتواجد هاهنا. لقد عشت في هذا المكان طوال حياتي)

( عليك أن تبحث عنها كي تجدها) قالها دوك في لا مبالاة

( آاا... قل لي، هل تعاني من خطب ما؟ إنك تبدو مريضاً)

أخذت نغمات الموسيقى ترتفع مرة أخرى، وبدأ صوت البحر يزداد علوًا هو الآخر فيما كانت أمواجه تتخذ سبيلها نحو الشاطئ

وقد حل المد أخيراً، وقد طفق دوك يحاول أن ينفض عن عقله ومخيلته صوت الموسيقى وصورة الفتاة، والقشعريرة التي استولت على جسده، ثم توجه إلى الرجل بالسؤال : ( هل يوجد مركز شرطة قريب من هنا؟)

(نعم، هناك في البلدة، ولكن لماذا تسأل؟ ما الأمر؟)

(توجد جثة عند الحاجز الصخري)

( أين؟)

( هناك مباشرة، عالقة بين صخرتين. جثة فتاة.)

( أها... سوف تحصل على مكافأة جزاء اكتشافك للجثة، لكنني نسيت مقدارها)

فنهض دوك وجمع متعلقاته، ثم قال : ( أتريد أن تتولى أنت الإبلاغ عنها؟ إنني أشعر بأني لست على مايرام)

(قل لي، هل شعرت بصدمة عند رؤيتها؟ هل كانت متآكلة أو متعفنة ؟ )

لم يجبه دوك ، وأشاح بوجهه متجهاً نحو سيارته، ثم قال للرجل: ( يمكنك أن تحصل أنت على المكافأة، أنا لا أريدها)

ومضى إلى أن بلغ السيارة، وفي رأسه كانت أنغام الفلاوت لاتزال تصدح بصوت خفيض .

***

# -١٩-

مـن بـين كل وسـائل الدعايـة التـي انتهجتها محـلات هولمـان، لم تلق أي منهـا مـا لاقتـه وسـيلة « متزلج السـارية» مـن قبول واستحسـان.

وقـد توالـت الأيـام، والمتزلـج لايزال قائـماً فـوق منصته المسـتديرة، يـدور و يـدور، طـوال النهـار، وحتـى خـلال سـاعات الليـل يتبـدى إنعكاسـه على صفحـة الظلام، فيـدرك الجميـع أنه لم يترجل عـن منصته لحظـة واحـدة. صحيـح أن القـوم قـد رجحوا أنـه إنـما يقوم بشـد وثاقه - واقفـاً دون جلـوس- إلى عمـود فـولاذي يخـرج من منتصـف المنصة، خـلال سـاعات الليـل المدلهـم، لكـن أحـدًا لم يجـد غضاضـة في ذلك.

ومـن كل حـدب وصـوب، توافـد النـاس ليشـاهدوا متزلـج المنصة في عرضـه الأبـدي، فتدفقـوا من جيمسـبرج.. ومـن ناحية السـاحل... وبريمزبوينـت... وسـاليناس... إلـخ، فـرادى وجماعـات. ودخـل المزارعـون في رهانـات حـول الرقـم القيـاسي الـذي سـيكسره المتزلـج ليحقـق رقـماً أعلى، متفوقاً على نفسـه، مما سـيمنح سـاليناس رقماً قياسـياً عالميـاً جديداً.

وقد كان متزلج هولمان يتحدى نفسه مع كل رقم قياسي يكسره، فلم يكن ثمة متزلجي سارية كثر، وكان هو الأقدر والأجدر من بينهم، لذا لم يكن أمامه سوى نفسه منافساً ليتحداها، ساعياً وراء التفوق عليها.

وكان هولمان في غاية السعادة بكل ذلك الإقبال، وقد قرر استغلاله على أكمل وجه، فأقام العديد من العروض والتخفيضات الدعائية، على الأقمشة والمنسوجات، والألومنيوم، والمنتجات الخزفية... كلٌ في ذات الوقت، بينما يحتشد الناس ويتحلقون حول المحل لمتابعة متزلج السارية.

وفي إحدى الأيام صاح المتزلج أن أحد قد أطلق عليه مقذوفات من بندقية هوائية، فأخذت إدارة المحل تتحرى عمن يمكن أن يكون قد فعل ذلك، إلى أن توصلت للمعتدي... إنه دكتور ميريفال العجوز، حيث كان يختبئ خلف ستائر مكتبه ويصوب بندقيته نحو المتزلج. ولم تتقدم الإدارة بشكوى رسمية ضده، فقد كان الرجل عضواً بارزاً في المحفل الماسوني، وفي المقابل وعد الرجل بأنه لن يكرر ذلك الفعل مرة ثانية.

وفي محطة «ريد ويليامز» كان هنري الرسام لايزال جالساً لا يبارح مقعده قبالة متزلج السارية، يطالع حركته ولا يكف عن التفكير في الأبعاد الفلسفية لذلك المشهد، إلى أن واتته فكرة جريئة... لماذا لا يقيم منصة مماثلة في مسكنه ويجرب الأمر بنفسه؟!. والحق أنه ما من شخص في البلدة لم يتأثر بشكل أو بآخر بالمنصة ومتزلجها. وحتى

الـرواج التجـاري لباقـي المحلات قـد تأثر هو الآخـر بمتزلج السـارية، فكسـدت تجـارات أصحـاب المحـلات النائيـة عنـه، وراجـت أعـمال الدكاكـين القريبـة مـن موقعه.

حتـى مـاك وفتيتـه، قـد جـاءوا ذات يـوم ليلقـوا نظـرة عـلى ذلـك الـذي شـغل البلـدة برمتهـا، لكنهم سرعان ماعـادوا أدراجهـم إلى قصر فلوبهـاوس، حيـث لم يجـدوا فيـما رأوه شـيئا يثـير شـغفهم.

وفي نافـذة العرض بالمحل، وضعـت الإدارة فراشـاً مزدوجاً يفترض بالمتزلـج أن يترجـل عـن منصته ويهبط لينـام فيه دون أن يخلـع زلاجتيه، عقـب تحقيقـه لرقـم قيـاسي جديـد. ولم تنـس إدارة المحـل بالطبـع أن تسـتغل ذلـك دعائيـاً ، فقامـوا بوضع اسـم العلامـة التجارية للحاشـية عـلى بطاقة صغـيرة معلقـة أدنـى الفراش.

وعـبر البلدة دارت النقاشـات المتحمسـة حـول ذلك العـرض المثير، والـذي يمثـل حدثـاً رياضياً بامتيـاز، إلا أن سـؤالاً واحداً ظـل يتردد في أذهـان كل أفـراد البلـدة، لكن أحـدًا لم يأتِ عـلى ذكره أو حتـى التلميح بـه، مـع أنـه كان يشـغل بالهـم جميعـاً... فهـا هـي السـيدة «تـرولات» تعـبر الطريـق آتيـة مـن المخبـز الاسـكتلندي حاملة في يدهـا كيسـاً مليئاً بالكعـك المُحَـلّى، وفي رأسـها يـدور السـؤال بـلا هـوادة، وهـا هـو ذا السـيد «هـول» جالسـاً في متجره للأزيـاء الرجاليـة، شـارد الذهن يفكر فيـه. حتـى بنـات «ويلوغبـي» كـن يقهقهـن كلـما عنَّ السـؤال عـلى بال إحداهن.

كان الجميع يتساءل في قرارته متعجبًا، لكن أحدًا لم تواته الجرأة على طرح السؤال إلى العلن.... عدا «ريتشارد فروست»!، ذلك الشاب العصبي حاد الذكاء.

كان ريتشارد أكثر أهل البلدة انشغالاً بالأمر، ولم يتوقف عن التفكير به لحظة واحدة، حتى بدا له وكأن السؤال يطارده آناء الليل وأطراف النهار، كل يوم، وفي كل ساعة..

وفي ليلة الجمعة، أخذ ريتشارد يعب كؤوس الخمر، حتى سقط في نوبة سُكْر شديدة، تشاجر على إثرها مع امرأته، التي ظلت تنتحب وتعول إلى أن نامت، أو بمعنى أدق، ادّعت النوم، وظلت ساكنة في فراشها بلا حراك، حتى شعرت بزوجها يتسلل من جانبها ويتجه نحو المطبخ، حيث تجرع كأس آخر من الشراب، ثم سمعت حفيفاً خافتاً أدركت منه أن زوجها يرتدي ثيابه بهدوء توطئة للخروج، ثم انسرب خارجاً من المنزل بالفعل. فاعتدلت جالسة في الفراش وبدأت في الأنين والنحيب من جديد، وقد استقر في يقينها أنه إنما خرج متجهاً إلى بيت دورا.

ولكن، في حقيقة الأمر، فإن ريتشارد قد خرج من بيته قاصدًا وجهة أخرى تماماً، حيث مشى في تصميم عبر التل، مجتازاً أشجار الصنوبر، إلى أن بلغ جادة الفنار، ثم انعطف إلى اليسار واتجه مباشرة صوب محلات هولمان.

وقبيل أن يبلغ وجهته، توقف الرجل وأخرج قنينة الخمر من معطفه وعبّ منها جرعة أخرى، ثم استأنف مسيره، إلى أن وصل

أخيراً، فوقف في منتصف الشارع، وسط السكون والعتمة التي لاتبددها سوى مصابيح الشارع القاتمة الخافتة، ورفع رأسه متطلعاً إلى الأعلى، نحو السارية والمنصة...

وفوق المنصة، كان لايزال المتزلج يؤدي مهمته بلا انقطاع، ولم يكن يتبدى منه في تلك العتمة سوى الحدود الخارجية من جسده. فأخذ ريتشارد جرعة جديدة من قنينته، ثم كور كفه حول فمه، كي يخرج صوته واضحاً، وصاح منادياً المتزلج : ( هااي...) فلم يتلق إجابة، فكرر المحاولة ( هاااي، مرحباً) ثم تلفت حوله ليتأكد من أن صوته لم يصل لمسامع أفراد الشرطة في نقطة البوليس القريبة..

هنا جاءه الصوت من أعلى : ( ماذا تريد؟)

فالتفت ريتشارد إلى الأعلى من جديد، ثم صاح مكوراً كفه حول فمه ثانية، وطرح السؤال الذي حيّر البلدة بأكملها دون أن يجرؤ أحد على التفوه به : ( كيف... كيف تذهب إلى المرحاض وأنت معلق هكذا؟)

فجاءته الإجابة : ( لديَّ وعاء للتبول هاهنا)

فاستدار ريتشارد، دون أن ينبس بحرف واحد، عائداً من حيث أتى، إلى أن وصل منزله، فدخل وأغلق الباب خلفه، ثم اتجه إلى غرفة نومه وخلع ثيابه، وكان قد فطن إلى أن زوجته مستيقظة، حيث كانت لم تزل ترغي وتزبد وهي في وضعية النوم، فاندس في فراشه بهدوء، ثم همس : ( لديه وعاء للتبول في الأعلى!)

***

# -٢٠-

عند منتصف الصباح، عادت الشاحنة الفورد ظافرة إلى شارع السرديـن المعلـب، وتوغـل بهـا الفتيـة إلى أن بلغـت موضعهـا الأول خلـف دكان لي شـونج، فترجلـوا منهـا جميعًـا وقامـوا برفـع إطاريهـا الأماميـين عـن الأرض كـما كانت سـابقاً، ثم أفرغـوا ما تبقـى من وقود في الصفيحـة المفتوحـة التـي كانت بحوزتهـم، وحملوا جعبـات الضفادع ثـم مضـوا بحمولتهـم إلى مسـكنهم.

وقـد قـام ماك لاحقـاً بزيارة لي شـونج وشـكره عـلى قيامـه بإعارتهم شـاحنته، ثـم شرع يحكـي لـه عـما أصابوه مـن ظفـر عظيـم في رحلتهم، وعـن مئـات الضفادع التـي صادوها، في حـين أخذ» لي» ينظـر إلى الفتى مبتسـماً وقـد فطن إلى ماسـيفضي إليـه ذلك الحديـث كله..

وظـل ماك يتحدث في حماسـة عـن رحلتهم، إلى أن قـال : ( لقد كان الحـظ السـعيد حليفنـا. لقد اتفـق معنا دوك على دفع خمسـة سـنتات عن كل ضغدعـة، وقـد جمعنا حوالي ألفـاً منها)

فأومأ «لي» برأسه، وقد كان هذا السعر متعارف عليه..

( لكـن دوك ليـس هنا حالياً... لسـوف يسـعد كثيرًا بمجـرد أن يعود و يرى كل تلـك الضفادع)

فأومـأ «لي» مـن جديـد، وقـد كان عـلى علم بـأن دوك ليـس موجودًا بالفعـل في ذلـك الوقـت، كذلـك كان عـلى علـم بـما سـوف تنتهـي إليه تلك الدردشــة.

( بالمناسـبة) قالهـا مـاك وكأنـما قـد طـرأت الفكـرة عـلى ذهنه تـوًّا : ( إننـا نعـاني في الوقـت الحـالي مـن ضيـق ذات اليد..)

(لـن أعطكم ويسـكي) قالهـا «لي» وهو بعد يبتسـم في هـدوء، فصاح مـاك في شـئ مـن الغضـب : ( ومـن قـال أننـا نريـد ويسـكي؟ لقـد حصلنـا عـلى جالـون كامل مـن أفخر أنـواع الويسـكي الـذي يمكن أن تذقـه شـفتاك...) ثـم اسـتطرد قائـلاً : ( بالمناسـبة، أنـا والفتيـة نـود أن ندعـوك عـلى الـشراب عندنـا. لقـد طلبـوا منـي أن أخـبرك بذلك)

فابتسـم «لي» في سرور رغـمًا عنـه، فـما كان هـؤلاء الفتيـة ليدعونه إلى الـشراب إن لم يكونـوا يملكونـه بالفعل.

ثـم اسـتأنف مـاك حديثـه : ( لسـنا في حاجـة إلى الـشراب، ولكن.. سـوف أقولهـا لك صراحـةً ... نحن جائعـون، ولا نملك مـالاً لنبتاع ما نسـد بـه رمقنـا، لذا فلـدي اقـتراح. إنـك تعلـم أن كل عشريـن ضغدع يعـادل دولارًا واحـدًا، لكـن دوك ليـس في البلـدة الآن لينقدنـا ثمنهـا، فـما رأيك لـو أعطيناك خمسـة وعشريـن ضغدعـة لقـاء كل دولار تمنحنا إيـاه، وبهـذا سـتخرج ظافـرًا من تلـك الصفقة بخمسـة ضفـادع إضافية عـلى كل دولار)

فما كان من «لي» إلا أن أجابه : ( لا، لن أعطكم مالاً)

(حسناً، اللعنة.... اسمع يا «لي»، إن كل مانرغب فيه هو بعض البقالة لا أكثر. إننا نرغب في أن نقيم حفلاً صغيراً لدوك حينما يعود، وقد حصلنا على كمية وافرة من الشراب، لكننا نريد كذلك كمية من شرائح اللحم وما إلى ذلك.. إن دوك فتى طيب، ولا تنس أنه حين كانت زوجتك تشكو من آلام أسنانها قام دوك بمنحها العلاج)

هنا أسقط في يده، فقد كان «لي» بالفعل مديناً لدوك، لكنه لم يفهم بالضبط العلاقة بين دينه لدوك وتسليفه بعض المال لماك!

هنا تابع ماك : ( إننا لا نرغب في أن نستدين منك مالاً بقيمة الضفادع، وإنما سوف نقوم بمنحك خمسة وعشرين ضفدع عن كل دولار بمجرد اعطائنا مانرغب من بقالة لإقامة الحفل، مع العلم أنك في مقدورك أن تأتي لمشاركتنا الاحتفال)

أخذ «لي» يقلِّب ذلك العرض في ذهنه، فلم يجد ضرراً منه، وبدا له الإقتراح لا بأس به أبدًا، فالضفادع موجودة، وبالنظر لاهتمام دوك الشديد بالحصول عليها، فإنه يمكن اعتبارها بمثابة أموال نقدية، خاصة وأن سعر الضفدع الواحد محدد ومعروف للجميع، وبالتالي سيخرج «لي شونج» من تلك الصفقة رابحاً على أكثر من صعيد، فمن ناحية سيكسب قيمة فارق الضفادع الخمس الإضافية على كل دولار، ومن ناحية أخرى سيبيع بعض من البقالة وسيحصل على ثمنها ضفادع يسهل تحويلها لاحقاً إلى عملة بمجرد وصول دوك. لقد بات الأمر كله الآن مرهوناً بما إذا كانت ثمة ضفادع في حوزة الفتية فعلاً أم لا...

(حسناً) نطق «لي» أخيرًا (لنذهب ونر الضفادع)

وأمام باب «قصر فلوبهاوس» جلس لي شونج، حيث قدم له الفتية بعض من الويسكي، ثم عرضوا عليه الضفادع، فتفحصها، ثم أعلن موافقته على إتمام الصفقة، مشترطاً ألا يتم إعطاءه أي ضفادع ميتة، فقام مالك وطفق يحصي له خمسين ضفدعا ثم وضعهم في صفيحة وعاد بها إلى «لي»، وفي المقابل إستطاع الفتية التحصل على مقدار من لحم الخنزير والبيض والخبز بما يعادل دولارين إثنين.

أما «لي» فقد أحضر صندوقاً كبيراً، وقام بوضعه في قسم الخضروات، ثم أفرغ به الخمسين ضفدع وقام بتغطيته بكيس خيشي مبلل لإبقاء الضفادع منتعشة.

وسرعان ماراجت تلك التجارة القائمة على المقايضة بالضفادع، فبعد حين جاء «إيدي» وبحوزته إثنين من الضفادع واشترى بهما علبة سجائر من نوع «بول دورهام»، وبعدها بقليل حضر «جونز» ليبتاع بعض من الكوكاكولا، وقد استبد به الغضب حينما اكتشف أن سعر العبوة منها قد ارتفع من ضغدعة واحدة إلى اثنتين...

ومع مرور ساعات النهار، كانت الأسعار في دكان لي شونج ترتفع ساعة بعد ساعة، ومعها تزداد المرارة في حلوق الفتية؛ فشرائح اللحم البقري التي من المفترض ألا يتجاوز ثمن الرطل الواحد منها عشر ضفادع، قرّر «لي» بيعها باثنتي عشر ضفدع ونصف. أما الخوخ المعلب فقد رفع سعر العلبة منه لمبالغ فلكية، حيث باتت العلبة الواحدة من الدرجة الثانية تعادل ثماني ضفادع.

وقد كان «لي» رجلاً داهية وتاجرًا محنكاً يجيد إحكام قبضته على زبائنه، فقد كان على يقين من أي من المتاجر، وتحديداً أسواق هولمان، لم تكن لتقبل بهذا النظام المالي الجديد القائم على الضفادع، ومن ثم فإن كان الفتية راغبين في شراء أي شيء، سواء شرائح لحم أو غيرها، فلن يكون أمامهم أي سبيل سوى أن يشترونها بالسعر الذي يحدده «لي»، حيث لن يجدوا أحدًا غيره يتعامل بعملة» الضفادع «؛ وقد اشتعل هازل غضباً حينما أبلغه» لي» أن عليه أن يدفع خمسة وثلاثين ضفدعاً مقابل عصابتي يد حريريتين من اللون الأصفر، أو ليذهب بضفادعه إلى متجر آخر. لقد أخذ الجشع يتسلل إلى تلك الصفقة، ومعه أخذت المرارة تتراكم في قلوب الفتية ونفوسهم، وكذلك الضفادع قد أخذت تتراكم هي الأخرى في صندوق «لي».

ومع ذلك، ما كانت الأمور المادية لتوغر صدور الفتية أو لتنزع عنهم بهجتهم، فهم لم يكونوا ماديين يوماً، وما كانوا ممن يقيسون سعادتهم بما يباع ويُشترى، أو يرهنون كبريائهم بحسابات البنوك، وماكانوا يوماً ليقيِّموا المحبة بما يتكلفونه في سبيلها. وحتى وهم في ذروة غضبهم مما يفعله «لي»، لم يمنعهم ذلك من الإستمتاع بوجبتهم من شرائح لحم الخنزير والبيض و كؤوس الويسكي، ولم يحل بينهم وبين الابتهاج لرؤية» دارلينج «- وهو الاسم الذي أطلقوه على كلبتهم الصغيرة الجديدة- وهي تتعلم لعق الحليب من علبة سردين فارغة قاموا بسكب بعض من اللبن بها كطعام للوافدة الجديدة، بينما هم جالسون في استرخاء على مقاعدهم المفضلة بالقصر.

كانـت» دارلينـج «كلبـة سـعيدة، وافـرة الحـظ حقـا، وقد قـدر لها أن تبقـى كذلـك في كنـف هـؤلاء الفتية الخمسـة، الذيـن كانت لـكل منهم نظريتـه الخاصـة في تربيـة الـكلاب وتدريبهم، والتـي تتعارض مـا باقي نظريـات رفاقـه، فظلوا في شـد وجـذب وجدال حـول الطريقـة الأمثل لتدريـب دارلينـج، ممـا أفـضى في النهايـة لعـدم تلقيهـا أي تدريـب مـن أي نـوع، عـلى الإطـلاق. وقد كانـت دارلينـج منـذ البداية كلبـة متقلبة غريبـة الأطـوار، فهـي تغفو في فـراش آخر مـن يعطها قطعة مـن الطعام مـن الفتيـة، الذيـن جُنّـوا بهـا وشـغفهم حبهـا تمامًـا، لدرجـة أنهـم في بعـض الأحيـان كانـوا يلجـأون إلى السرقـة من أجـل جلـب مايرضيها. وبـين الحـين والآخر، كانـوا يجمعـون القول عـلى أن هذا الوضـع ينبغي أن يتغـير وأن دارلينـج يجـب أن تُعامَـل بشـئ مـن الصرامـة، فكانـوا ينخرطـون في نقـاش طويـل حـول الوسـيلة الأمثـل لتحقيـق ذلـك، إلى أن ينهكهـم الحديـث دون أن يتوصلـوا لأي حلـول....

لقـد أُغرِمـوا بهـا تمامـاً ومـا عـاد بمقدورهـم فعـل أي شيء حيـال ذلـك، حتـى أنهـم مـا كانـوا يتأففـون مـن فضلاتهـا التـي تتركهـا في كل مـكان بالبيـت، بـل عـلى العكـس تمامًـا!؛ وكانـت تمزق الحاشـيات وتلـوك البطاطـين والأغطيـة ، وتنزع الريـش المبطن للوسـائد لتنثره على الأرض، فـما كانـوا يبـدون أدنـى اعـتراض أو غضـب.

وقـد صنـع لهـا جونـز فراشًـا في أرضيـة السـاعة الأثريـة العتيقـة لديهـم، لكنهـا أبـت أن تنـام بـه، وكانـت تغفـو في فـراش من تشـاء من الفتيـة، وكثـيراً مـا دخلـوا في شـجارات فيـما بينهـم بسـببها. لقـد كانوا يـرون كلبتهـم تلـك غايـة في الروعـة والـذكاء، حتـى أن مـاك قـد قرر

تعليمها بعض الألعاب والحيل توطئة لإشراكها في الاستعراضات الاحتفالية.

وفي ساعة الأصيل، جلس الفتية يدخنون ويتسامرون، ويشربون كأساً من الويسكي بين الحين والآخر، وفي كل مرة كانوا يتناولون فيها شيئا من ذلك الويسكي كانوا ينبهون بعضهم البعض إلى ضرورة عدم الإسراف في شربه كي يحتفظوا به من أجل دوك.

وبعد برهة من الوقت، تساءل إيدي : ( متى تظنون أن دوك سوف يعود؟)

فأجابه ماك : ( عادة ما يرجع في حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة... والآن، متى سنقيم له الحفل؟ أظن أن من الأفضل أن نقيمه الليلة)

فأيّده الجميع، إلا أن هازل عاد وقال : ( ولكن ربما يعود منهكاً الليلة... إنه راجع من سفر طويل)

فقال جونز : ( بالعكس، لايوجد شئ يساعد المرء على الاسترخاء والراحة بعد عناء مثل سهرة ممتعة. لقد كنت ذات يوم منهكاً أجر أقدامي جراً من الإعياء، ومع ذلك فقد ذهبت إلى إحدى الحفلات، وهناك استعدت كامل قوتي ونشاطي)

( أظن أن علينا أن نفكر في المكان الأنسب الذي سنقيم له السهرة به.. هل سنقيمها هاهنا؟) تساءل ماك.

( إن دوك يحب موسيقاه كثيراً وعادة مايقوم بتشغيلها عبر فونوغرافه حينما يكون لديه حفلة ما، ولعله سيكون أكثر سعادة وغبطة لو أننا أقمنا له الحفل في بيته)

فاستحسن ماك الفكرة : ( لقد أصبت.. لكني أرى أن نفاجئه... أن نذهب إليه فجأة حاملين معنا إبريق الويسكي، فما رأيكم؟ )

( ومارأيكم في بعض الزينة كذلك؟) قالها هيوجي مقترحًا، فشرد ماك قليلا وقد اتسعت عيناه ،وانفرجت شفتاه ، وكأنما بات يرى كافة تفاصيل الحفل وما ستكون عليه، رؤى العين، ثم هتف : ( لقد أصبت تماماً ياهيوجي، وما كنت أتخيل أن يتفتق ذهنك عن مثل تلك الفكرة... إنني أرى تفاصيل الحفل برمته ماثلة أمام عيني، حيث يعود دوك من سفره الطويل، منهك، خائر القوى، ويصل إلى بيته، فإذا به يجد المكان كله مضاء. حينها سيظن أن لص ما قد اقتحم مسكنه، فيرتقي الدرج في وجل، وما إن يدلف من الباب حتى يجد الزينة في كل مكان، وفي وسط الغرفة كعكة كبيرة في انتظاره... يا إلهي... حينها سيدرك أن حفلاً كبيراً مبهجاً في إنتظاره، فيتلفت حوله، فلا يجد مخلوقا معه بينما نحن نختبئ للحظات، ويقف هو في حيرة من أمره لايفهم من فعل ذلك كله، ثم.... نظهر بغتة ونحن نصيح في مرح. تخيلوا كيف سيكون وجهه حينها... ياالها من فكرة ياهيوجي، إنني لا أدري كيف خطرت لك مثل تلك الفكرة)

فاحمر وجه هيوجي، وقد كان يدرك داخله أنه لم يفكر في كل تلك

التفاصيل، ولم يبلغ بخياله هذا المبلغ، بل كانت فكرته أكثر بساطة وتحفظاً. ولكن طالما أن الأمر سيبدو على هذا النحو، فلم لا يجاريه ويفز هو بالفضل في التوصل لتلك الفكرة!. لذا فقد قال فوراً : ( كل مافي الأمر أنني ارتأيت أن الحفل على هذا النحو سيكون بديعا)

(إنه كذلك بالفعل) أجابه ماك في حماس ( ولا أجد مايمنع من إخبار دوك فيما بعد بمن هو صاحب هذه الفكرة). ثم إنهم استرخوا في مقاعدهم وأخذوا يتخيلون ماستكون عليه الحفلة في المختبر، ويحتسون مزيداً من الشراب اللذيذ احتفاءاً بالخطة.

لطالما كان دكان لي شونج رائعاً ومميزاً دومًا، يمكنك أن تجد فيه كل ما تبغيه في أي وقت من العام؛ فعلى سبيل المثال، في حين تبيع غالبية المحلات أوراق الزينة الصفراء والسوداء ومجسمات اليقطين وأقنعة القطط السوداء الخاصة بعيد القديسين «الهالوين» في أكتوبر فقط، ثم تختفي تلك الأغراض جميعاً بمجرد انتهاء موسمها، ولا يتسن لأحد العثور عليها في أي وقت آخر، مهما بحث وفتش بين المحلات والمتاجر.... إلا دكان لي شونج، فتلك القاعدة لاتنطبق عليه البتة، فإن أردت أغراض عيد القديسين في يونيو مثلاً، فسوف تجدها لديه، وإن رغبت في بعض الأعلام والأسهم النارية الخاصة باحتفالات الرابع من يونيو « عيد الاستقلال» في يناير، فسوف تحصل عليها من دكانه.... وهكذا، يمكن للمرء أن يحصل على أي شئ في أي وقت من دكان لي شونج، حتى أنه كان يحتفظ بكمية من المفرقعات والذخائر النارية من عام ١٩٢٠.

ولكـن يبقـى السـؤال الـذي ظـل لغـزًا محـيرًا : أيـن يخـزن كل تلك البضائـع؟!، فدكانـه كان صغـيراً ومكتظـا بـما يكفـي وليـس بـه أي مسـاحة أخرى لتسـع شـيئاً غـير البضائـع المعروضة. علاوة عـلى ذلك، فقـد كانـت لديـه أنواعـاً مـن البضائـع التـي لا يمكـن أن تجدهـا في أي مـكان آخـر، حيـث كانت لديـه برانس حمـام كان قـد ابتاعها أيـام كانت الجونـلات الطويلـة ومناديـل الـرأس المزركشـة هـي الموضـة الشـائعة، كذلـك كان لديـه مكـوك التطريـز والحياكـة، ومجموعـة ألعـاب «مـاه يونـج» (*)، بـل كان لديـه أيضًـا عـدد مـن شـعارات « تذكـروا البارجة مايـن» (**) القديمـة، وتـذكارات مـن معرض بنـما الدولي تعـود إلى عام ١٩١٥.... وغـير ذلـك مـن عجائـب البضائـع ونوادرهـا.

كذلـك كان ثمـة شـئ آخـر غريـب وغـير مألـوف في دكان «لي» وتجارتـه، فهـو لم يقـم طـوال حياتـه بتقديـم أي تنزيـلات عـلى أسـعار بضائعـه البتـة، ولم يحذُ حـذو باقـي المتاجر التي كانـت تلجـأ أحيانًا لبيع بعـض مـن بضائعها بأسـعار أقل عـلى اعتبار أنها كاسـدة، فالسـلعة التي كانـت تقـدر في عـام ١٩١٢ بثلاثـين سـنتاً بقيـت في دكانـه عـلى نفـس سـعرها مهـما مـر عليهـا مـن سـنين ومهـما أتلفتهـا العثـة والفئران.

ومـع ذلـك تبقـى حقيقـة أنـك إن أردت الحصـول عـلى أي غـرض،

* - ماه يونج : لعبة صينية تشبه الدومينو.

** - البارجة ماين : بارجة أمريكية تم تفجيرها في ميناء هافانا في ١٥ فبراير ١٨٩٨، وراح ضحية ذلك التفجير ٢٦٠ شخص.

«المترجمة »

فإنـك لابـد واجـده في دكان لي شـونج. وهـذا مـاكان مـاك وفتيتـه يعرفونـه تمامـاً، ويدركـون أنـه ليـس ثمة مـكان أفضل من ذلـك الدكان ليتوجهـوا إليـه مـن أجـل ابتيـاع كل مـا يحلـو لهـم مـن أدوات وأوراق وديكـورات لتزيـين المختـبر مـن أجـل حفلهـم المنشـود؛ ولكـن بقيـت أمامهـم مشـكلة... ( مـن أيـن سـنأتي بكعكـة حلـوى كبـيرة؟) صـاح مـاك ( فالكعـك لـدى لي شـونج صغـير)

فقـال هيوجـي ( مارأيكـم لو قـام إيدي بإعـداد الكعكـة؟ فقد عمل طاهيـاً لدى سـان كارلـوس لفترة)

فاستحسـن الفتيـة الفكرة وتحمسـوا لها لدرجة جعلـت إيدي يتراجع عـن إخبارهـم بحقيقة أنـه لم يقـم في حياته كلهـا بإعداد كعكـة، ثم طرد الفكـرة مـن بالـه تمامًـا حينـما قال مـاك : ( إن ذلك سـوف يعنـي الكثير لـدوك، فهـي لن تكـون كتلـك الكعـكات المعدة للبيـع، وإنما سـتحمل في طياتهـا معـاني المحبـة والتقدير التـي نكنها له)

ومـع توالي سـاعات الأصيل، و كـؤوس الويسـكي، ازدادت الإثارة وتأجـج الحماس أكثـر فأكثر؛ وتعاقـب توافد الفتية على دكان لي شـونج، حاملـين كميـات مـن الضفـادع لابتيـاع مـا يحتاجونـه لإقامـة الحفلـة، حتـى فرغـت إحدى الأكيـاس الخيشـية من ضفادعهـا التـي انتقلت إلى صنـدوق «لي» حتـى بات مكدسـاً بها.

وبحلـول السـاعة السادسـة مسـاءً كان إبريـق الويسـكي الفاخـر قـد فـرغ تمامـاً، وبـدأ الفتيـة في شراء زجاجـات «أولـد تينيـس شـوز» الرخيـص مـن جديـد، مقابل خمسـة عـشر ضفدعـا للزجاجـة الواحدة.

وعلى أرضية قصر فلوبهاوس تراكمت أوراق الزينة ومواد الديكور من كل مناسبة ونوع، في حين كان ايدي منهمكا في إعداد وخبز الكعكة، حيث طفق يعد العجين في إحدى أواني الغسيل، ولم ينس إضافة كافة المكونات اللازمة لصناعتها، ومع ذلك فقد كان شكل الكعكة عجيبا، فبمجرد أن انتهى إيدي من صنع العجين وإضافة كل المكونات، أخذت الكعكة تتماوج وتخرج فقاعات من الهواء!

وكأن في باطنها يرقد حيوان ما يتلوى؛ وما إن قام بالزج بها إلى الفرن حتى انتفخت مكونة فقاعة كبيرة، أخذت تتماسك أثناء عملية الخبز، قبل أن تنفجر فجأة مصدرة صوتاً كتنفيس الهواء، ثم انكمشت مخلفة فجوة في منتصفها، مما دفع إيدي لصناعة مقدار آخر من العجين ثم قام بإضافته ليسد به الفجوة، وزج بها في الفرن مرة ثانية، فما كان منها إلا أن احترق قعرها تماماً مخلفاً أدخنة سوداء أخذت تتصاعد منها، فيما كان أعلاها ينتفخ مطلقاً مزيدًا من الفقاقيع التي أخذت تتفجر مخلفة بقايا العجين اللزج.

وحينما أخرج إيدي الكعكة من الفرن أخيراً، فوجئ الفتية بأنها لا تشبه أي كعكة على الإطلاق، وإنما بدت وكأنها آثار معركة حربية ضارية على جدار بركاني... لقد كانت كعكة فاشلة منذ البداية، وقد انتهى بها المطاف أخيراً كطعام لدارلينج، التي ما إن انطلق الفتية إلى حيث المختبر لتزيينه، حتى انقضت عليها لتلتهمها التهاماً، إلى أن

أُتخِمَت بها، وانقلبت في النهاية داخل إناء الكعكة ذاته فوق العجين الذي كان لم يزل دافئاً، واستسلمت للنعاس.

أما ماك ورفاقه فقد حملوا الأوراق المفضضة والأقنعة واليقطين والأعلام الحمراء والبيضاء والزرقاء، وكافة ما تيسر لهم الحصول عليه من أدوات التزيين المتباينة، ثم خرجوا إلى الشارع، فعبروا الساحة الخاوية متجهين إلى المختبر، ولم يفتهم أن يعرجوا على دكان لي شونج ليبتاعوا زجاجة جديدة من «أولد تينيس شوز» وجالونين من الخمر، بآخر ماتبقى في حوزتهم من ضفادع.

(إن دوك يعشق الخمر) قالها ماك ( أظن أنه يحبها ربما أكثر من الويسكي)

ولم يكن دوك يغلق مختبره بالمفاتيح أبدا حينما يخرج، فقد كان من أنصار نظرية مفادها أن من يريد أن يقتحم مكاناً فسوف يقتحمه لا محالة، كذلك كان يرى أن الأصل في البشر أنهم أخيارًا وليسوا أشرارًا بطبعهم، والأهم من ذلك كله أن دوك كان يعرف جيدًا أنه ليس ثمة شئ في مختبره يمكن أن يغري أي لص باقتحامه، وما كان يحوي من أغراض ذات قيمة سوى الكتب و الإسطوانات الموسيقية والعدسات الزجاجية، وما إلى ذلك من أدوات المختبر، وهي كلها أشياء غير ذات قيمة للصوص.

والحقيقة أن نظريته تلك قد أثبتت صحتها تماماً فيما يتعلق باللصوص والمصابين بجنون السرقة، لكنها ما كانت لتنطبق أبدًا على الأصدقاء!، فكثيرًا ماكان يتم «استعارة» كتبه الخاصة، كما كانت علب اللوبيا المحفوظة غالباً ما تختفي من منزله أثناء غيابه،

بـل وصـل الأمـر أنه في كثـير من الأحيـان كان يعـود إلى المنزل في سـاعة متأخـرة ليفاجـأ بشـخص مـا يبيـت في فراشـه.

دلـف الفتيـة إلى المختـبر حاملـين أوراق الزينـة، ثـم قامـوا بوضعهـا في غرفـة الانتظـار ريثـما يبـدأون في تعليقهـا، إلا أن مـاك قد اسـتوقفهم قائـلاً: ( يارفـاق، أتعرفـون ما الذي يمكن أن يجعل دوك أكثر سـعادة؟)

فقال هازل : ( الحفلة)

( لا)

فصاح هيوجي : (الزينة)

( لا.. الضفـادع، إنهـا أكثـر الأشـياء التـي يمكن أن تسـعده وتدخل الـسرور إلى نفسـه... ولكـن للأسـف مـن المحتمـل أن يكون لي شـونج قـد أغلـق دكانه وقـت عـودة دوك مـن رحلته، وحينهـا لن يتسـن له أن يـرى ضفادعـه إلا صباحـاً.) ثـم صمـت ماك قليـلاً قبل أن يسـتطرد في حماسـة : ( لا... هذا غـير مقبول، إن الضفادع ينبغـي أن تكون موجودة وقـت عودتـه، وهنا تحديـداً، في منتصـف تلـك الغرفة، مغطـاة بالقماش الملـون، ومثبـت عليهـا بطاقة مـدون بهـا : مرحبا بعودتـك يادوك.)

فانطلـق بعـض مـن الفتيـة مـن فورهـم إلى حيـث دكان «لي»، يعرضـون عليـه الأمـر، إلا أنهـم قوبلـوا برفض قاطـع مـن الرجل، وفي عقلـه المتشـكك دارت كل الاحتـمالات، إلا أن الفتية لم ييأسـوا وأخذوا يحاولـون إقناعـه، وقـد أكـدوا لـه أنـه سـوف يكـون حـاضراً في الحفـل وبهـذا يمكنـه مراقبـة ممتلكاتـه وضـمان ألا يتم التلاعـب بـه، خاصة أنه

مـا مـن أحد يشـكك أو يجـادل في ملكيته لتلـك الضفادع، حتـى أن ماك قـد قـام بكتابـة إقـرار يؤكـد فيـه ذلـك الأمر.

فَـلان الرجـل أخـيراً وتراجـع عـن تعنتـه، فحمـل الفتيـة صنـدوق الضفـادع الضخـم وعـادوا بـه سريعـاً إلى المختـبر، وقامـوا بتغطيتـه بالرايـات الحمـراء والبيضـاء والزرقـاء، ثم جـاءوا ببطاقة فكتبـوا عليها عبـارة الترحيـب مسـتخدمين بعـض مـن صبغـة اليـود كمـداد للكتابة.

ثـم أنهم شرعـوا في تعليق الزينـة وتوزيع الورق المصقـول والرايات، وفي أثنـاء ذلـك كانـوا قـد أتـوا تماماً عـلى كل مـا بحوزتهم مـن مشروب الويسـكي الرخيص «أولد تينيس شـوز»،

وقـد انخرطـوا في الأجـواء الاحتفاليـة مبكـراً؛ وأخـذوا يسـتأنفون في مـرح وبهجـة قـص أوراق الزينـة ووضع مجسـمات اليقطـين... كانت أجـواء الإحتفـال الحماسـية تنبعـث مـن المختـبر، حتـى أن عـدد مـن عابـري السـبيل في الشـارع قـد دخلـوا إليـه وبـدأوا في مشـاركة الفتيـة اسـتعداداتهم، في حـين توجـه بعضهـم إلى دكان لي شـونج ليأتـوا ببعض مـن الـشراب ثـم عـادوا إلى المختبر. أما لي شـونج نفسـه فقـد حضر هو الآخـر جانبـاً من الأجواء الاحتفالية، إلا أنه كان يشـكو مـن آلام معدته الواهنـة، واضطـر لمغـادرة المختـبر سريعـاً والعـودة إلى منزله.

وعنـد السـاعة الحاديـة عـشرة مسـاءً، تـولى بعـض الحاضريـن قـلي شرائـح اللحـم، ثـم قامـوا بالتهامهـا كلهـا، في حـين اتجـه أحدهـم إلى حيـث الاسـطوانات وانتقـى واحـدة منهـا، ولم تمـر دقيقـة حتـى بـدأ الفونوغـراف العملاق يهدر بالموسـيقى الصاخبة، لدرجـة أن الضوضاء

كان يمكن سماعها على امتداد مسافة طويلة، بدءًا من ناحية حوض السفن وصولاً إلى بار «لا إيدا»، حتى أن طائفة من زبائن بيت دورا قد حسبوا المختبر بيت بغاء منافس، فاندفعوا نحوه مقتحمين إياه في مرح، إلا أن ضيوف الحفل الأصليين قد قاموا بطردهم شر طردة، في معركة دامية أفضت إلى خلع الباب الأمامي للمختبر وتحطيم نافذتين، وكذلك عدد من آنية الحفظ وقوارير الكيماويات، مما أدى لانبعاث روائح بشعة.

ولم يتوقف الصخب عند ذلك الحد، فبينما كان هازل خارجاً من المطبخ متجهاً صوب المرحاض، ارتطم بالمقلاة فسقطت الدهون الساخنة عليه وعلى الأرض، واحترق جلده بشدة.

وعند حوالي الساعة الواحدة والنصف صباحاً، دخل أحد السكارى إلى المكان وأتى بعبارات وإشارات اعتبرها الفتية مهينة لدوك، فما كان من ماك إلا أن اندفع نحو الرجل ووجه له لكمة قاسية لم يفتأ الشارع بأكمله يذكرها ويتحاكى بها، فسقط الرجل المخمور أرضًا، ثم تحامل إلى أن قام على قدميه من جديد، ثم اندفع بكل قوته، فقط ليصطدم بصندوق الضفادع بقوة ويتسبب في كسره...

وفي جانب الغرفة، بينما كان أحدهم يحاول تغيير الاسطوانة الدائرة، سقط ذراع الفونوغراف من يده وانكسرت إبرته.....لو أن أحدًا أراد يوماً أن يعرف كيف يمكن لحفل صاخب أن يحتضر فيموت، فإنه لن يجد خير من ذلك الحفل المروع في بيت دوك

كمثال ونموذج لذلك... لقد ماتت الحفلة تماماً، بعدما ظلت تهتاج وتصطخب، وتغلي غليان الماء فوق النار، إلى أن بلغت ذروتها، تماماً كالمريض إذ تصل الحمى إلى رأسه، فيظل يهذي ويئن ، ثم يصمت تماماً. هكذا بلغت الحفلة قمة اصطخابها وجنونها، ثم لفها الصمت، وتلاشت، وأخذ الضيوف ينسربون تباعاً ، منهم من توجه إلى منزله يجر قدميه طالباً النوم ، ومنهم من انصرف باحثاً لنفسه عن مكان آخر وشأن آخر، وهكذا تفرق الجمع مخلفين وراءهم حفلة باتت كجثة هامدة، ومختبر لم يبق به حجر فوق حجر. فالأنوار مضاءة كلها، والباب الأمامي محطم يتدلى إلى جانبه من إحدى مفاصله، وعلى الأرض من تتناثر شظايا الآنية والقوارير المتهشمة، أما أسطوانات دوك فكانت ملقاة هنا وهناك، ما بين محطمة ومتشققة. وفوق خزانات الكتب، وأسفل الفراش كانت صحون الطعام وما بها من بقايا شرائح اللحم، وقد تناثرت على حوافها وفوق الأرضية قطع من الدهن اللزج المتجمد.

أما زجاجات الويسكي الفارغة فكانت منقلبة على جوانبها تتدحرج في كل مكان. حتى الكتب، كانت مبعثرة على الأرض وقد تمزق بعضها، ذلك أن أحدهم قد حاول تسلق إحدى خزانات الكتب فتهاوت الخزانة بكل ما كانت تحويه أرففها من أسفار ومراجع، فتبعثرت فوق الأرض وقد تلفت تماماً.

وفيما يتعلق بصندوق الضفادع المكسور، فقد حدث ما كان متوقعاً، حيث خرجت الضفادع من موضع التحطم ، الواحدة تلو الأخرى، لتقف على حافة الكسر تتشمم الهواء في حذر قبل أن تثب

إلى الأرض ثم عبر الباب والنوافذ المحطمة إلى حيث الهواء الطلق والحرية؛ ولم تمر دقائق معدودات إلا وكان نهرًا صغيرًا من الضفادع قد أخذ يتدفق على الدرج إلى حيث شارع السردين المعلب، الذي اجتاحته الجحافل المتواثبة حتى غص بها مجراه، لدرجة أن إحدى سيارات الأجرة التي كانت تقل زبوناً إلى بيت دورا قد دهست خمسة ضفادع، في حين اندفعت أعداد منها إلى البالوعة، وبعضها تواثب صعوداً عبر التل إلى حيث خزان الماء، أما الباقي فقد توارى بين أعشاب الأرض في الساحة الخاوية.

وبحلول الفجر، كانت جموع الضفادع التي تقدر بالمئات قد تبخرت...

وبقيت أنوار المختبر البيولوجي الغربي المحطم الخاوي على عروشه، مضاءة.

***

# -٢١-

في الغرفة الخلفية بالمختبر، كانت الفئران البيضاء في أقفاصها تركض وتثب، وفي قفص آخر كانت فأرة أم ترعى صغارها المولودين حديثاً وتلقمهم أثداءها، وقد طفقت تجول ببصرها في المكان بعصبية.

وفي أقفاص الأفاعي ذات الجرس، كانت الأفاعي تلتف حول نفسها وقد أراحت رؤوسها فوق أجسادها الملتفة، وأخذت تحدق أمامها. وفي ركن آخر كانت سحلية «الجيلا» ذات الجلد المحبحب كجعبة مطرزة بالخرز ،في قفصها هي الأخرى وقد أخذت تتسلق الدعائم المعدنية للقفص. أما شقائق النعمان فقد تفتحت جوانبها كاشفة عن مجساتها الخضراء والأرجوانية، وباطنها الأخضر الباهت في حوض الماء الذي تقبع فيه...

لقد كانت تلك هي الساعة الفاصلة مابين رحيل الليل وحلول الفجر، حيث يخرج لي شونج حاملاً قمامته، ويقف حارس بيت دورا في الشرفة يحك معدته، ويزحف سام مالوي خارجاً من

مرجله ليجلس على مقعده الخشبي متطلعا إلى الضوء القادم من ناحية الشرق. وسباع البحر، هناك فوق الصخور بالقرب من محطة هوبكنز البحرية، تزأر بصوت رتيب، والصيني العجوز الغامض يأتي من ناحية البحر حاملاً سلته، يلطم الأرض بحذائه الثقيل، صاعدًا التل...

في تلك الساعة، خارج حدود الزمن، وصلت سيارة دوك أخيراً إلى شارع السردين المعلب، متجهة رأسًا، ببطء وهدوء، نحو المختبر. كانت عينا دوك حمراوان من أثر الإرهاق، وقد تملكه التعب إلى حد أنه حين توقف بسيارته أخيرًا أمام بيته، ظل جالساً في مكانه بالسيارة لبرهة من الوقت إلى أن تعتاد أعصابه السكون وتتخلص من آثار اهتزازات السيارة وتقلبات الطريق.

ثم إنه ترجل أخيراً عن السيارة، واتخذ سبيله إلى حيث الدرج المؤدي إلى المختبر، وما إن خطا بقدمه على أولى الدرجات حتى أخذت الأفاعي ذات الجرس تمد لسانها المشقوق خارجاً، والفئران تتواثب بجنون في أقفاصها.. وراح دوك يعتلي السلم درجة تلو الأخرى، إلى أن توقف على حين غرة وقد أخذته الدهشة حين فوجئ بالباب وقد تحطم متدليًا على جانبه، والنوافذ وقد تهشم زجاجها، فأخذ يثب ما تبقى من درجات وقد ذهب عنه النعاس والإعياء، إلى أن وطأت قدمه المنزل، فصدمه المشهد المروع بالداخل، فأخذ يتنقل من غرفة إلى أخرى في فزع والزجاج المتناثر يتكسر تحت قدميه، إلى أن بلغ موضع الفونوغراف، فانحنى ليلتقط إحدى اسطواناته المهشمة . وفي المطبخ كانت لطخ الدهون فوق الأرضية قد استحالت إلى اللون الأبيض.

كانت عينا دوك تشتعلان غضباً، وقد جلس فوق مقعده وسقط رأسه بين كتفيه، وأخذ جسده يرتج من الغيظ والكمد، ثم إنه وثب فجأة واتجه بسرعة صوب فونوغرافه وقام بوضع إحدى الإسطوانات عليه محاولا تشغيله، ولكن للأسف لم تخرج من بوقه نغمات موسيقية، وإنما صوت هسهسة وفحيح، عندئذ رفع ذراع الفونوغراف وقد اكتشف أن الإبرة قد انكسرت، وعاد ليجلس متهالكاً فوق مقعده من جديد..

وبعد حين، من ناحية الدَرَج، تناهى إلى مسامع دوك وقع أقدام مضطربة مترددة، ثم ظهر ماك على الباب، وأخذ يتطلع إلى دوك وقد احمر وجهه تماماً، ثم إنه خطا إلى داخل الغرفة حتى وقف قبالة دوك مباشرة؛ وحين بادر بالحديث خرج صوته مترددًا مرتبكًا : ( دوك... إنني والفتية...)

للحظة بدا وكأن دوك لم يره أو حتى يشعر بوجوده، إلا أنه ثاب أخيرًا إلى رشده، فوثب بغتةً وصاح في وجه ماك : ( أأنت الذي فعلت كل هذا؟)

فتراجع ماك إلى الخلف، ثم : ( حسناً...أنا والفتية...)

لكنه لم يتم عبارته، إذ اندفعت قبضة دوك لتلكمه لكمة قوية على فمه أطاحته أرضاً، وقد أخذت عينا دوك تشتعلان في غضب حيواني مستعر، أما ماك فقد اعتدل بصعوبة وجلس على الأرض. لقد كانت لكمة دوك قوية وقاسية حقاً لدرجة أنها تسببت في إحداث جرح بإحدى شفتي ماك، في حين التوت إحدى أسنانه إلى الداخل.

(انهض) صاح دوك

فنهض متثاقلا، ووقف وذراعاه متدليان إلى جانبيه، فأعاد دوك الكرة ولكمه من جديد لكمة جعلت الدم ينبجس من شفتي ماك ويسيل على ذقنه، ثم صرخ في وجهه : ( ارفع قبضتك وقاتل كالرجال، يا ابن العاهرة)ثم لكمه مرة ثالثة فسمع صوت تكسر إحدى أسنانه، وارتج رأس ماك، إلا أنه لم يسقط أرضًا هذه المرة، وظلت ذراعيه إلى جانبي جسده، ثم إنه قال في صوت مبحوح، والدماء تسيل من بين شفتيه : ( اضرب كما شئت يادوك، فقد توقعت هذا)

فتهاوى دوك على مقعده أخيرًا وقد أنهكه التعب وأثقلته الصدمة، وقال في غل ومرارة : ( تباً لك يا ابن العاهرة... أيها القذر) وظل جالساً في مكانه وقد أحنى رأسه متطلعا إلى مفاصل أصابعه المجروحة من أثر الضرب واللكم.

فجلس ماك هو الآخر على مقعد أمامه وأخذ ينظر إلى دوك بعينين متسعتين مفعمتين بالألم، حتى أنه لم يكترث بمسح الدماء المنسابة على ذقنه.

وفي مخيلة دوك، بدأت تصدح قطعة موسيقية قاتمة حزينة ل»مونتفيردي»، ثم رفع رأسه قليلاً ليطالع فك ماك المكسور.

كان ماك جالساً في صمت وسكون تام، وكأنما الموسيقى الجنائزية في مخيلة دوك يتردد صداها في رأس ماك وعلى سمعه؛ فنظر دوك ناحية موضع إسطوانة مونتفيردي التي تتردد موسيقاها في عقله،

لكنه تذكر أن الفونوغراف قد انكسر ولم يعد صالحاً لتشغيل أي اسطوانات، ثم إنه نهض على قدميه وقال لماك : ( اذهب واغسل وجهك)، ثم مضى هابطا عبر الدرج وخرج إلى حيث الشارع، متجهاً صوب دكان لي شونج، فلم يتبادل الأخير كلمة واحدة معه فيما هو يخرج زجاجتي جعة من صندوق الثلج، فنقده دوك ثمنهما في صمت، وأفل عائداً إلى مختبره.

وكان ماك لايزال في الحمام يحاول تنظيف وجهه من آثار الدماء بمنشفة ورقية مبللة، حينما عاد دوك، ففتح إحدى زجاجتي الجعة وصبها برفق في إحدى الكؤوس، ثم صب كأسا آخر وحمل الاثنين إلى غرفة المعيشة. ثم عاد ماك من الحمام إلى الغرفة وهو بعد لايزال يمسح فكه بالمحرمة الورقية، فأشار دوك برأسه إلى حيث كأس الجعة فتناوله ماك و أفرغ نصفه في حلقه دفعة واحدة، ثم أطلق تنهيدة مسموعة وهو يحدق في الكأس، وكان دوك قد أنهى كأسه كذلك، فملأ الكأسين من جديد، ثم جلس على أريكته : ( والآن، أخبرني ما الذي حدث بالضبط)

فخفض ماك وجهه متطلعا إلى الأرض، فسقطت قطرة من دماء من بين شفتيه في كأس الجعة الذي كان لايزال بين راحتيه، فمسح شفته المشقوقة من جديد، ثم قال : ( لقد أردت أنا والفتية أن نقيم لك حفلاً، وكنا نظن أنك ستكون قد عدت من رحلتك بحلول الليل )

فأومأ دوك برأسه : (هكذا إذن)

(لكـن الأمـور قـد خرجـت عـن السـيطرة. إننـي أعلـم جيـدًا أن أسـفي وندمـي لـن يجديـا نفعـاً، فطالمـا كنت آسـفاً طـوال حيـاتي، ذلك ليـس بأمـر جديـد عـليَّ، ولطالمـا جـرت الأمـور معي عـلى هـذا النحو)

ثـم رشـف جرعـة كبـيرة مـن الـشراب وابتلعهـا مـرة واحـدة، واسـتطرد : ( لقـد كانـت لي زوجـة يوماً مـا... لكن الأمـور جرت على نفـس النحـو، فـما مـن عمـل عملتـه إلا وأفسـدته، ومـا من شـئ طيب فعلتـه إلا وانقلـب للنقيـض. وحتـى حينـما كنـت آتيهـا بهديـة، كانـت تكتشـف فيهـا عيبـاً مـا، وهكـذا لم تحتمـل الحيـاة معـي.... تلـك هـي حيـاتي دومـاً تسـير عـلى ذلـك المنـوال)

هـز دوك رأسـه مـن جديد، وقـد عادت الموسـيقى تصدح في رأسـه، وهمهـم : ( نعـم، أعلم)

(لقـد شـعرت بالسـعادة حينـما ضربتني، وقلـت لنفـسي أن ذلك ربما يلقنـني درسـاً، ولكننـي أعلـم جيـداً أنـه لا جـدوى وأننـي لـن أتعلـم شـيئاً مـا حييـت يـا دوك...)وصمـت قليـلاً ثـم اسـتطرد ( لقـد رأيـت الأمـور على نحـو مختلـف تمامـاً، وظننتها ستسـير على عكس ما سـارت عليـه... كنـت أتخيـل كل شـئ في الحفلـة وقـد تم عـلى أكمل وجـه وكما خططنـا لـه، وأنك سـتكون سـعيدًا كما أردنـا، وأن الليلة سـتمر بسـلام وبهجـة... ولكن...)ثـم لـوح بيـده مشـيرا إلى الحطـام المتناثـر في كل حـدب وصـوب : ( جـرت الأمور على خـلاف ما توقعـت وخططت، تمامـاً مثلـما حـدث حينـما تزوجت)

(نعم، أفهم)دمدم دوك وهو يفتح زجاجة الجعة الثانية ويملأ الكأسين من جديد.

( دوك... سوف ننظف أنا والفتية كل تلك الفوضى، وسوف نعوضك عن كل ما تحطم وكل التلفيات التي وقعت، حتى لو استغرق منا الأمر خمس سنوات)

فهز دوك رأسه بالرفض، وهو يمسح زبد الجعة عن شاربه ويقول : ( لا، سوف أنظف أنا كل شئ، أنا أعرف مواضع الأشياء وكيف أعيد ترتيب البيت من جديد)

(إذن، سوف نعوضك كل ما خسرته)

(لا، لن تفعلوا ياماك... لسوف تشغلون بالكم بالأمر، ولسوف يقض التفكير مضاجعكم لفترة من الزمن، لكنكم في كل الأحوال لن تدفعوا شيئاً... إن الآنية والأدوات الزجاجية المحطمة وحدها لتعادل ثلاثمائة من الدولارات، فلا تقل لي أنكم ستدفعون ذلك المبلغ. سوف يظل ماحدث يشغلكم لعامين أو ثلاثة، ثم ستنسون ماحدث تماماً ويعاودكم شعور الارتياح من جديد... في كل الأحوال أنتم لن تدفعوا أي شئ لتعويض خسارتي)

(ربما أنت على حق يادوك. اللعنة!.. إنني أعلم تماماً أنك محق.... إذن، ماذا يمكننا أن نفعل؟)

(لا شئ)أجاب دوك ( لقد تجاوزت الأمر. إن اللكمات التي

صوبتهـا إلى فكك كانت كفيلـة بتهدئة غيظي وحنقـي. دعنا ننس الأمر)

فأفـرغ مـاك مـا تبقـى مـن جعـة بكأسـه في حلقه، ثـم نهـض، وقال: (أراك لاحقــا يادوك)

(إلى اللقـاء... آ... مـاك، قـل لي، ماالـذي حـدث لزوجتـك بعدمـا يئسـت منـك؟)

(لا أدري... لقـد رحلت عني)ثم إنه سـار نحـو الدرج في اضطراب، وهبـط عـبره ثـم خرج وعـبر الشـارع نحـو السـاحة الخاوية ثـم حظيرة الدجـاج، متجهًـا إلى قـصر فلوبهـاوس، في حين أخـذ دوك يتابعـه بنظره عـبر النافـذة؛ ثـم ذهـب ليجلـب المكنسـة وأدوات التنظيف مـن خلف سـخان الميـاه، وانهمك طوال سـاعات النهـار في تنظيف المـكان ومحاولة إعادته إلى سـيرته الأولى.

***

# -٢٢-

لم يكن هنري الرسام فرنسيا، ولم يكن اسمه هنري، بل لم يكن رسّاما حقاً! ، إلا أنه قد انغمس حتى الأذنين في قصص وحكايا عن «الجانب الغربي» من باريس، حتى ليظن من يسمعه أنه قد عاش هناك ويحكي عما رآه رؤى العين، بالرغم من أن قدمه لم تطأ تلك الأرض البتة.

ولطالما كان هنري يغوص بين الدوريات والمجلات باحثاً في نهم عن كل ما يخص الحركات الدادية (*) ، والنسوية ، والدينية،

* - الدادية /الدادائية :

هي حركة ثقافية بدأت في زيوريخ بسويسرا، أثناء الحرب العالمية الأولى، تحديدًا في الفترة مابين عامي ١٩١٦ و١٩٢١، على يد عدد من الفنانين من بينهم من هوغو بول، إيمي هينينيز، ترزتن تزارا، هانز آرب، ريتشارد هوسينسلبيك وصوفي تربوية ، كوسيلة لمناهضة الحرب بعيداً عن الحقل السياسي ، و تقوم فكرتها الأساسية على محاربة الفن بالفن بمعنى تحطيم كافة الأطر الفنية التقليدية.

كما كانت تؤمن تلك الحركة بضرورة عدم فرض تفسير محدد للأعمال الفنية وإنما على المتلقي أن يفهمه كيفما أراد، انطلاقاً من أن الفن يجب أن يخاطب الأحاسيس مباشرة . وبرغم أن الحركة كانت تسعى لتحطيم علم الجمال، وتخريب كل أشكال الفن التقليدي، إلا أنها كان لها أثر كبير على نشأة الفن الحديث و كل ما له علاقة بالفنون البصرية والرسم والأدب والشعر و التصوير الفوتوغرافي و نظريات الفن و المسرح... إلخ .

أما عن أصل كلمة «دادا» فهو غير معروف على وجه اليقين، ولكن تعددت الروايات حول

والباطنيـة، سـواء في المدارس القديمـة أو الحديثة؛ إلا أنـه كان ثائرًا دوماً ضـد المـدارس والآليـات الباليـة الرجعيـة، وكثيرًا مـا تنقل من مدرسـة إلى أخـرى، فـتراه وقـد اعتنـق إحـدى المـدارس الفنيـة في موسـم، ثـم يطرحهـا في الموسـم التـالي لينغمس في غيرهـا... إلى أن انتهـى به المطاف وقـد طـرح الرسـم برمتـه كليةً.

ولا يـدري أحـد حتـى الآن مـا إذا كان هنـري رسّـامًا بارعًـا أم لا، فقـد كانـت تحولاتـه بـين المذاهـب والحـركات الفنيـة شـديدة الحـدة والتقلـب حتـى أنـه مـا كان ليجـد وقتـاً لممارسـة فـن الرسـم تحـت أي مذهـب منهـا.... باختصـار، كانـت القيمة الفنيـة للنذر اليسـير جدًا من رسـوماته موضـع شـك عـلى الـدوام، إذ كيف للمـرء أن يحكـم فنياً على لوحـات حافلـة بريـش ملـون وقشـور الجـوز؟!

أمـا كصانـع للسـفن، فقـد كان هنـري عظيـماً مدهشًـا بحـق، وكان حرفيـاً بارعًـا لا شـك في براعتـه عـلى الإطلاق؛ وقـد كان يحيـا في خيمة لعـدة سـنوات حينـما شرع في بنـاء سـفينته، حيـث ظـل عاكفـا في دأب عـلى تأسيسـها إلى أن انتهى مـن بناء قمرتهـا ومطبخها، وبـات في إمكانه أخـيراً الانتقـال ليحيـا بداخلهـا، فـما إن اسـتقر تحت سـقفها حتـى أخذ يتأنـى في اسـتكمال بنائها.

---

**أصلها وحول اختيار الحركة لهذا اللفظ تحديدًا، فالبعض يعتقد أنها كلمة غير مفهومة، والبعض الآخر يعتقد أنها أتت من «دا دا» والتي تعني بالرواية « نعم نعم»، وهناك رأي ثالث يقول أن مؤسسي الحركة حينما اجتمعوا في زيوريخ لأول مرة قد أرادوا إطلاق اسم على حركتهم، فجاءوا بالقاموس» الفرنسي-الالماني « وقرروا اختيار كلمة عشوائية لتكون اسما لحركتهم الثورية، فجاء الاختيار على كلمة» دا دا « والتي يستخدمها الأطفال في فرنسا للإشارة إلى الأشياء المفضلة لهم؛ وهناك رأي رابع يقول إن الكلمة قد أتت من العبارة الألمانية «Die Welt ist da، da» والتي تعني «العالم هنا هنا». (المترجمة)**

والحقيقة أن تلك السفينة لم تُبن وإنما قد نُحِتت نحتا.... كان طولها يبلغ ٣٥ قدماً، وكثيراً ما تغير شكلها وتحولت هيئتها، فتارةً هي ذات مقدمة أشبه ما تكون بسفينة شراعية ذات ذيل مروحي، وتارة هي كسفن الإسبان والبرتغال القديمة من طراز القرن الخامس عشر... إلخ

وفي أوقات العسر المالي، كان هنري يضطر للانتظار لأشهر عديدة كي يتمكن من الحصول على لوح خشبي أو قطعة من معدن أو بعض من المسامير النحاسية لبناء سفينته.... هكذا مضى الأمر، والحقيقة أن هنري ما كان يرغب يوماً في إنهاء بناء سفينته.

كانت السفينة قابعة بين أشجار الصنوبر، فوق قطعة من الأرض قام هنري باستئجارها مقابل خمسة دولارات في العام، وهو مبلغ كاف لسداد الضرائب و إرضاء مالك الأرض. وقد استقرت السفينة في مجرى من الأسمنت، وعلى جانبها كان يتدلى دومًا سلم مصنوع من الحبال، باستثناء الأوقات التي يكون هنري بداخلها، فكان يسحب السلم ولا يدليه ثانية إلا حينما يأتيه زائر ما.

وفي القمرة الصغيرة بداخل السفينة، استقر مقعد عريض يحتل ثلاثة جوانب من القمرة، يستخدمه هنري للنوم ولجلوس الضيوف، وكان ثمة طاولة قابلة للطي يقوم بفردها عند الحاجة، ومن السقف يتدلى مصباح نحاسي يُضيء القمرة بأكملها.

أما عن هنري ذاته فقد كان رجلاً قاتمًا كئيبًا، داكن البشرة والشعر، ينسدل شعره على وجهه، ويعتمر دومًا قلنسوة مستديرة

«بيريه» تقادمت موضتها ، ويدخن غليونا مصنوعًا من خشب من أشجار الهند.

وقد كان لهنري عديد من الأصدقاء والمعارف، لكنه كان يصنف معارفه دومًا إلى نوعين لا ثالث لهما؛ الأول من يقومون بإطعامه، والثاني من يضطر هو لإطعامهم.

ولم يكن لسفينته اسم ما، وقد قال يوماً أنه لن يطلق عليها اسمًا إلا حينما ينتهي من صناعتها بالكامل، وهو مالم يحدث أبدًا، فقد ظل هنري يبني في سفينته تلك ويحيا بداخلها لنحو عشرة أعوام؛ خلال تلك الفترة تزوج مرتين، وأقام علاقات خارج نطاق الزواج مع عديد من النساء، لكن أي من تلك الزيجات والعلاقات ما كانت لتستمر طويلاً، وفي كل مرة كانت النساء يهجرنه لذات السبب؛ فقمرة السفينة ذات السبعة أقدام كانت أصغر من أن تتسع لشخصين، وقد سئمت كل واحدة منهن ارتطام رأسها بالسقف كلما قامت من مكانها، علاوة على ذلك، ماكان لأي منهن أبدا أن تحتمل الحياة في مكان بلا مرحاض!، وهو ما كانت تفتقر إليه سفينة هنري التي ظلت تحت الإنشاء إلى الأبد، ولم يكن أمام هنري وكل واحدة من عشيقاته سوى التوجه إلى مكان قصي بين أشجار الصنوبر كلما احتاجوا لقضاء الحاجة. وهكذا لم يتسن لأي منهن احتمال ذلك الوضع، فهجرنه الواحدة تلو الأخرى.

وقد اعتاد هنري كلما هجرته إحدى نسائه أن ينتحب قليلاً ويتلبس سمت الحزن لفترة من الوقت، إلا أن ذلك الحزن كان

دومًا يصاحبه شعور بالارتياح، حيث بات بإمكانه التمدد كما شاء في قمرته الصغيرة وقد عادت مساحتها الضيقة ملكاً له وحده، وأن يأكل كل ما يشتهي من الطعام، و كذلك قد تحرر قليلاً من المتطلبات البيولوجية لعلاقاته النسائية، ولو لفترة من الوقت...

وكان من ديدنه أيضًا إذا فارقته إحداهن، أن يسارع إلى ابتياع جالون من النبيذ، ثم يضطجع على أأريكته الخشنة، ويأخذ في الشراب حتى الثمالة، وقد يبكي قليلاً، لكنه سرعان ما يتخلص من كل ذلك ويشعر بالارتياح والتحرر، فيأخذ في قراءة بعض من أشعار رامبو بصوت عال وبلكنة شديدة السوء لكنها تروق له.

كان هذا دأب هنري وحاله في التعامل مع هجران النساء، كل النساء... أما ما حدث له حينما هجرته «أليس» فهو أمر عجيب ما كان لهنري أن يتوقعه أو يجد له تفسيرًا؛ فعقب فراقها له، وأثناء انتحابه المعتاد كلما فارقته إحداهن، بدا وكأن شيئا غريباً يتبدى له وأن أمرًا ما على وشك الحدوث ...

كان ذلك في الليل، وكان مصباح القمرة مضاء، في حين كان هنري قد بدأ يسقط في حالة من السُكْر، حين شعر فجأة بحضور ما في السفينة وبأنه ليس وحده بها، فأخذ يجول ببصره في حذر عبر القمرة... حتى رآه، هناك، في الركن المقابل، كان شاباً أسمر البشرة مليح الوجه يجلس، وعيناه تتقدان ذكاءً وحيوية ونشاطا، وبريق أسنانه يلتمع في الظلال، وكان شيئًا ما في وجهه مألوفا محببًا، لكنه مخيف في ذات الوقت، وبحانبه جلس طفل حديث السن أشقر،

ذهبي الشعر ، فتبادل الفتى والطفل النظرات، ثم أخذا يضحكان في مرح وجذل وكأن شيئا رائعًا على وشك الحدوث.

ثم نظر الفتى إلى هنري من جديد، وابتسم، ثم عاد لينظر إلى الطفل، ومن جيب صدريته الأيسر العلوي سحب موسي حلاقة مستقيم حاد النصل، من طراز قديم، وفتحه، ثم أشار إلى الطفل بإيماءة من رأسه وهو يضع كفه فوق رأسه بين خصلات الشعر الذهبي، والطفل لايزال يضحك في مرح.. وأمام عيني هنري المرتعبتين، أمال رأس الطفل إلى الخلف كاشفاً عن عنقه البض، ثم... اجتز حنجرته بجرة واحدة من الموسي، إلا أن الطفل كان لايزال يضحك، ويضحك، وهو يُذبَح، في حين كان هنري يشهق في هلع ورعب لامثيل لهما، وقد تملكه الفزع حتى أنه احتاج لفترة غير قليلة من الوقت كي يدرك عقب ذلك المشهد أن أي من الطفل أو الفتى لم يعودا هناك.

فما إن استفاق هنري من صدمته حتى هرع خارجًا من قمرته، وقفز من جانب السفينة، ثم أخذ يعدو هارباً عبر التل، إلى أن تجاوز أشجار الصنوبر، وظل يمشي لعدة ساعات حتى بلغ أخيرًا شارع السردين المعلب.

في تلك الأثناء كان دوك في الطابق الأرضي من مختبره يعمل على تحنيط بعض القطط، حين اقتحم هنري عليه المكان. وفيما استمر دوك في عمله، طفق هنري يقص عليه مشاهدته العجيبة وما وقع له، وما إن انتهى حتى إلتفت إليه دوك وأخذ يتفحص ملامحه ملياً عله يسبر أغواره ويكتشف ما إذا كان الرجل في حالة فزع حقيقي أم

هـو مجـرد ادَّعـاء، إلا أنـه أيقـن أن الذعـر هـو ما يتملـك هنـري بالفعل وأن الرجـل لايدعي شـيئا.

وبعـد حين سـأله هنري : ( أتعتقد أنه كان شـبحا؟... أكان انعكاسًـا لأمـر قـد وقع بالفعـل؟ أم هـو ضرب من الرعب قـد تملكنـي؟ أم تُراني قـد فقـدت عقـلي؟... لقـد رأيت ذلـك حقـا. لقد حـدث الأمـر أمامي ورأيته بـأم عيني كـما أراك الآن)

فصمت دوك هنيهة ثم قال ( لست أدري)

( حسنًا، هلّا تأتي معي لنرى ما إذا كان قد عاد؟)

(لا، ربـما هـو شـبح، ولـو أننـي شـاهدته فسـوف يسـتبد بي الفـزع، خاصـة أننـي لا أؤمـن بوجـود أشـباح، وإن حـدث ورأيته أنـت ولم أره أنـا فـإن تلـك الرؤيـة قـد تكـون مجـرد هلوسـة، وهنـا سـوف يتملكك أنـت الرعـب مـن جديد)

( ولكـن، مـاذا عسـاي أن أفعـل إذن؟.. لـو أنني رأيت ذلك المشـهد مـرة أخرى فسـوف أمـوت... إنـه لا يبدو كسـفاح أبـدًا، بالعكس، كان يبـدو لطيفـاً، وكذلـك الطفـل يبـدو حسـنًا، ومـا من شـئ مرعـب بهما. لكنـه قـد جـز عنق الطفـل أمـام ناظري، لقـد رأيتـه بنفسي)

(لا أعلـم ياهنري)قالهـا دوك ( أنـا لسـت طبيبـاً نفسـياً، ولا بصائـد أشـباح، ولا أنتـوي أن أكـون كذلـك)

ثـم تناهـى إلى مسـامعيهما صوت فتاة تدنـو من المختـبر ، وقد أخذت تنادي (مرحبًـا. دوك، أيمكنني أن أدخل؟)

(تعالي)

فدخلت فتاة جميلة ورشيقة، فقدمها دوك إلى هنري، ثم قال : (إن هنري يمر بمشكلة، فهو إما قد رأى شبحًا أو رؤية مرعبة، وهو الآن لايدري ماذا يفعل. هلم ياهنري، احك لها مارأيت)

فأخذ هنري يروي قصته من جديد، ومع حديثه كانت عينا الفتاة تتسعان وتلتمعان في شغف، حتى إذا ما أنهى قصته، هتفت الفتاة : ( إنه لأمر مرعب حقاً. إنني لم أر شبحا في حياتي، ولكن، دعنا نعود إلى بيتك ونرى بأنفسنا ما إذا كان الشبح قد عاد مرة ثانية)

فانطلقت هنري والفتاة، فيما وقف دوك يرمقهما إذ يبتعدان وقد اعتراه الضيق، فقد كان على مواعدة مع تلك الفتاة.

ولم تشهد الفتاة أي أشباح، لكنها أُغرِمت بهنري، وبقيت معه في سفينته مدة خمسة أشهر، قبل أن تدفعها القمرة الضيقة والحاجة إلى وجود مرحاض لاتباع خطى نسائه السابقات.

***

# -٢٣-

كانت سحابة من الكآبة تخيم على قصر فلوبهاوس، وقد خاصمه المرح وفارقته البهجة. فقد عاد ماك من المختبر بفم متورم وأسنان متكسرة ؛ وكنوع من التكفير عما اقترفه، لم يقم بغسل وجهه من آثار الضرب وبقايا الدم المتخثر، وذهب إلى فراشه فتمدّد به وتلفع بالبطانية حتى قمة رأسه، ولم ينهض من رقدته تلك طوال اليوم. كان قلبه كسيرًا كفمه، وقد تداعى إلى ذاكرته كل ما اقترفه على مدار حياته من خطايا وزلات، حتى بدا له أنه لم يفعل في حياته سوى أردأ الأشياء وأشنع الأفعال، فتملكه كمد وحزن عميقين.

أما هيوجي وجونز فقد جلسا يحدقان في الفراغ الممتد أمامهما، ثم بعد حين، قاما في صمت وكآبة، وانطلقا إلى حيث مصنع هيديوندو لتعبئة السردين وتقدَّما للعمل به، فحصلا بالفعل على عمل.

وكان هازل هو الآخر يشعر بالكدر، حتى أنه خرج ومشى إلى مونتيري، وهناك دخل في مشاجرة مع أحد الجنود، لكنه خسرها عمداً مما جعله يشعر بتحسن إلى حد ما لكونه قد هُزم من رجل كان في مقدوره التغلب عليه بسهولة.

وبين جنبات «قصر فلوبهاوس»، لم يكن ثمة مخلوق يشعر بالسعادة في ذلك اليوم سوى» دارلينج «. كانت الكلبة هي الوحيدة السعيدة، وقد قضت اليوم أسفل سرير ماك تقضم حذاءه في حبور، و كانت تملك أسناناً حادةً بالفعل!؛ وقد قام ماك بالتقاطها من أسفل فراشه مرتين ليضعها بجانبه في فراشه التماسًا للرفقة في ظل الحزن واليأس اللذان يعتملان في صدره، لكنها كانت سرعان ما تنسل إلى الأسفل من جديد لتواصل قضم حذائه.

أما عن إيدي فقد مضى إلى بار «لا إيدا»، وأخذ يتحدث إلى عامل البار زميله، وحصل على بعض من الشراب، ثم اقترض بعضاً من المال ليدفعه مقابل سماع أغنية» الغلام الحزين « على الفونوغراف بالبار لخمس مرات متتاليات.

لقد كان الغم يجثم على صدور ماك والفتية، وكانوا يدركون ذلك ويعرفون أنهم إنما يستحقون هذا الشعور الممض. لقد ساءت سمعتهم، وباتوا منبوذين من الجميع، فقد شاع نبأ ما وقع في المختبر سريعاً وفي كل مكان، ولم يتحدث أحد أو حتى يشير إلى أنهم قد أرادوا في الأساس إقامة حفلة بغرض إسعاد دوك، وإنما أخذت القصة منحى آخر تمامًا، وصارت تُروى على نحو مغاير...

لقد ذاع الأمر في «بيت دورا»، وصار حديث العمال في مصانع التعليب، وفي بار» لا إيدا « أخذ السكارى يلوكون القصة بألسنتهم وقد أصبحوا مُنَظِّرين يتحدثون بلسان الفضيلة والشرف؛ أما لي شونج فقد رفض التعليق، وكان يشعر بضربة مالية ثقيلة. ولم يعد

أحـد في شـارع السرديـن المعلـب إلا ويقـول إن مـاك وفتيتـه قـد سرقوا أمـوالا وشرابًـا وقامـوا باقتحـام المختـبر وتدمـيره عمـداً بدافـع مـن حقـد وكراهيـة، حتـى أن بعض السـكارى مـن رواد البار قـد فكروا في التوجـه نحـو قـصر فلوبهـاوس والهجـوم على الفتيـة وضربهـم لتلقينهم درسـاً بـأن أحـدًا لا يمكنـه أن يفعـل مثـل ذلك الفعـل مـع دوك العزيز ثـم يفلـت مـن العقاب.

ولـولا تكاتـف الفتيـة وتعاضدهم، وما عـرف عنهم من قـوة وقدرة عـلى القتـال، لكانوا قـد تعرضوا للثـأر منهم ولذاقوا أشـد أنـواع الهوان مـن جانـب هـؤلاء الذيـن أخذتهـم حمـى الفضيلـة فجـأة - مـع أنهم ما كانـوا يعرفـون للفضيلـة والـشرف سـبيلاً أبـدًا - بمجرد أن سـمعوا بما حـدث في المختبر.

بـات الفتيـة منبوذيـن تمامـاً، حتـى إن سـام مالـوي لم يعـد يتحـدث إليهـم أو يلقـي عليهـم التحية كـما كان يفعل سـابقاً كلما غـدوا أو راحوا مـن أمـام مرجلـه؛ فـما كان منهـم إلا أن انغلقـوا عـلى أنفسـهم، ولم يكن بمقـدور أي منهـم التنبـؤ بـأوان انقشـاع تلك الغمـة... والحـق أن للنبذ الإجتماعـي عاقبتـان لا ثالـث لهما، فإمـا أن يدفـع النبذ الشـخص المنبوذ إلى إصـلاح ذاتـه والسـمو بنفسـه، و إمـا إن يسـتثير في نفسـه مزيـد مـن الحقـد والغضـب، فيصـير شـخصًا أسـوأ وأحط، ويبـدأ في تحـدي العالم برمتـه وارتـكاب كل الموبقـات. وبـكل أسـف فـإن العاقبـة الثانية تلك هـي الأكثر شـيوعاً.

ولطالما كان ماك وفتيته في مرتبة وسط بين الخير والشر، فكانوا لطفاء حنونين مع دارلينج، صبورين متحابين فيما بينهم... وما إن زالت عنهم آثار الصدمة وتوابعها الأليمة، حتى بدأوا في توجيه مزيدًا من الانتباه إلى «قصرهم» فاخذوا ينظفونه بهمة وحماس، وكأنه لم ينل أي نصيب من النظافة من قبل، وطفقوا يلمعون الموقد ويصقلون نقوشه الزاهية، ثم غسلوا جميع ملابسهم وأغطيتهم.

ومع الوقت بات في مقدور الفتية سداد ديونهم المالية، حيث كان هيوجي وجونز في تلك الأثناء يعملان ويكسبان بعض من المال، اللذان كانا ما إن يتحصلا على أجريهما حتى ينطلقان عبر التل إلى السوق الاقتصادية - حيث لم يكن الفتية بقادرين على مواجهة لي شونج واحتمال نظراته المفعمة بالتوبيخ - ليبتاعا كل ما يلزم «قصر فلوبهاوس» من بقالة واحتياجات.

في تلك الفترة، لاحظ دوك أمرًا ربما كان صحيحًا، إلا أنه لم يتسن له التحقق من صحته، حيث كانت حلقة ما من استنتاجاته مفقودة، لذا فما كان في استطاعته التأكد من صحة ما استنتج أبدًا.... كان ذلك يوم الرابع من يوليو، وكان دوك في مختبره بصحبة ريتشارد فروست يحتسيان الجعة ويستمعان إلى اسطوانة «سكارلاتي» الجديدة، وبين الحين والآخر تحين منهما التفاتة عبر النافذة؛ وقبالة قصر فلوبهاوس كانت قطعة طويلة من الخشب قابعة هناك، وعليها جلس ماك ورفاقه في شمس الصباح يتطلعون نحو المختبر. فقال دوك لرفيقه : ( انظر إلى هؤلاء، أظن فلاسفتك الحقيقيون... فماك وفتيته هؤلاء يعرفون كل ماقد حدث في العالم، وربما يعرفون ماسوف يحدث

كذلك. أحسب أنهم أكثر من يمكنهم العيش في هذا العالم والنجاة من فِخاخه... ففي الوقت الذي يمزق فيه الناس أنفسهم من التوتر أو الخوف أو سعياً وراء طموح، تجد هؤلاء الفتية يجلسون في استرخاء وهدوء لايحملون هما لحاضر أو لغدٍ. إن هؤلاء الذين نشير إليهم بالبنان على أنهم ناجحون إنما هم مجموعة من المرضى، مريضة هي أبدانهم، وكذلك أرواحهم.

أما ماك ورفاقه فهم يتمتعون بصحة وافرة وبال رائق... إنهم أحرار تماماً، يفعلون مايريدون وقتما يريدون، ويشبعون رغباتهم ببساطة دون مداراة أو ادِّعاء أو إطلاق صفات ومسميات أخرى على شهواتهم)ثم صمت دوك وقد جف حلقه من الكلام، فجرع كأسه كلها دفعة واحدة ثم قال وهو يلوح بأصابعه : ( لايوجد أبدًا مايضاهي مذاق الجعة)

هنا قال ريتشارد فروست : ( أظن أن هؤلاء الفتية لا يختلفون في شئ عن باقي البشر، فقط هم لا يملكون مالاً على الإطلاق)

( بمقدورهم أن يحصلوا عليه إن أرادوا. بمقدورهم أن يدمروا حياتهم مثل غيرهم من الناس ويكرسون عمرهم سعيا وراء المال، وسيتحصلون عليه دون شك، فماك عبقري حقاً، وهم جميعاً ماهرون يملكون من البراعة ما يجعلهم يظفرون بما يريدون؛ لكنهم يدركون طبائع الأشياء بما يكفي كي يزهدوا فيها، ويعلمون أن ليس ثمة شئ يستحق أن يفنوا أعمارهم سعياً وراءه)

ولـو أن دوك قـد علـم مقـدار الحـزن والألم الـذي ظـل يعانيـه مـاك ورفاقـه لمـا تفـوه بـما تفوه بـه لاحقـاً، ولما فـسر الأمـور على هـذا النحو، لكنـه لم يكـن يـدري شـيئًا عـن الضغـط الاجتماعـي الرهيـب الـذي مـورس عليهـم عقـب حـادث المختـبر؛ فـما كان منـه إلا أن قـال وهـو يصـب بعـض مـن الجعـة في كأسـه : ( سـأورد لـك دليـلاً عـلى صحة كلامـي. أتراهـم كيـف يجلسـون وأي موضـع اتخـذوه في جلسـتهم؟... حسـناً، بعـد حـوالي نصف سـاعة سـوف يمـر الموكـب الاحتفـالي لعيد الإسـتقلال، عبر جـادة الفنـار، وإنهم لفي اسـتطاعتهم أن يـروا الموكب جيـداً لـو أنهـم فقـط التفتـوا برؤوسـهم ناحيـة الجـادة، وإن وقفـوا على أقدامهم فسـوف يكـون في مقدورهم متابعتـه بكامل تفاصيلـه. إلا أنني أراهنـك عـلى زجاجـة مـن الجعـة أنهم لـن يكلفـوا أنفسـهم مجـرد عناء الالتفـات برؤوسـهم نحوه)

(ولنفرض ذلك، فعلام يدل؟ وأي شئ سيثبته؟)

(عـلام يدل؟!!)صـاح دوك في اندهـاش ( إنـه إنـما يـدل بـكل تأكيـد عـلى أنهم يعرفـون كل ماسـيجري خـلال الموكـب ويدركون كل تفاصيلـه... إنهـم يعلمـون أن العمـدة سـوف يتقـدم الموكـب في سـيارة مزدانـة بالرايـات، ثـم سـيأتي الجنـدي ممتطيـاً حصانـه الأبيـض حامـلاً العلـم الأمريكـي، ومـن ورائهـما يسـير مجلـس البلديـة، ثـم كتيبتـان عسـكريتان، ثـم فريـق «الوعول» بمظلاتهـم الارجوانية ، يليهم فرسـان المعبـد المزدانـة أرديتهـم بريـش النعـام الأبيـض ويحملـون السـيوف في أيديهـم، ومن بعدهم فرسـان كولومبـوس المزدانين بريـش النعام الأحمر ويحملـون السـيوف كذلـك. إن ماك وفتيتـه يعرفون كل تلـك التفاصيل

وقد رأوها من ذي قبل، ولا حاجة لهم لمشاهدتها مرة ثانية)

فصاح ريتشارد في نبرة تحدٍ : ( ليس ثمة إنسان لايحب متابعة المواكب الاحتفالية)

( أتراهنني إذن؟)

( أراهنك)

فصمت دوك قليلاً، ثم قال بعد حين : ( هناك أمر يحيرني دائما ولا أجد له تفسيرًا، فالشخص الذي يتحلى بالصفات الحميدة التي نُجِلّها ونمتدحها، كالكرم واللطف والصراحة والأمانة والذكاء والتعاطف، عادة ما يفشل في إتباع النظام العام الذي يحيا على نهجه جميع الناس ويسيرون على صراطه، أما هؤلاء الذين يتسمون بأشنع الرذائل الكريهة، كالجشع والأنانية والوضاعة والغرور، فإنهم عادة ما يصيبون النجاح، حتى باتت تلك الصفات المرذولة قرينة للنجاح والمجد. وفي حين يحب البشر الصفات الأولى، فإنهم مع ذلك يحبذون نتائج الثانية)

فأجابه ريتشارد : ( هذا أمر طبيعي، فمن ذا الذي يفضل أن يكون شخصًا طيبًا إن كان سيفضي به ذلك لأن يصبح جائعًا لايملك ما يسد به رمقه؟)

(لا، الأمر لايتعلق بالجوع والفاقة، بل هو مختلف، فمن يبع روحه ونفسه مقابل امتلاك العالم إنما يفعل ذلك طواعية وليس بدافع من عوز..وهذا مايفعله الجميع تقريباً، إلا قلة قليلة من

البشر مثل ماك ورفاقه... لقد رأيت مثل هؤلاء الفتية في شخص بائع للمثلجات في المكسيك، وفي أحد سكان جزر الألوشيان في ألاسكا.)... ( إنك تعلم تلك القصة حينما حاولوا إقامة حفلة لي، إلا أن الأمور خرجت عن سيطرتهم وفسد كل شيء، ومع ذلك تظل الحقيقة أنهم أرادوا أن يقيموا حفلة مبهجة لأجلي... كان ذلك هو غرضهم فقط..... إنصت!) قالها دوك وصمت لبرهة وهو يرهف السمع،ثم : ( أليست تلك أصوات الجوقة الموسيقية؟)وقام بملء كأسين بالجعة ثم إتجها ناحية النافذة...

وكان ماك ورفاقه لازالوا جالسين في أماكنهم فوق الجذع الخشبي في مواجهة المختبر وقد اعتراهم الأسى، في حين كان صوت الجوقة يقترب من ناحية جادة الفنار، وترددت أصداء قرع الطبول في الأجواء ، ثم ظهرت سيارة العمدة المزدانة، يتبعها باقي الموكب الاحتفالي المهيب، حيث الجندي حاملاً العلم فوق صهوة جواده الأبيض، ثم الجوقة، فكتيبتي الجنود، فالوعول، ثم فرسان المعبد، وفرسان كولومبوس...

وانحنى دوك وريتشارد مستندين إلى حافة النافذة، ليس لمطالعة الموكب، بل لترقب رد فعل الفتية القابعين فوق الجذع الخشبي، الذين لم يكلف أحدهم نفسه عناء مجرد الالتفات برأسه نحو الموكب، أو يشرئب بعنقه تجاهه. لقد مر الموكب دون أن تبدر من أي منهم التفاتة أو إيماءة أو أي إشارة توحي بالاهتمام بما يدور بجانبهم.

ثم أفرغ دوك ما تبقى من كأسه في حلقه وقال من جديد : ( آه.. لا يوجد أي شيء في هذا العالم يضاهي مذاق الجعة حقاً)

فسأله ريتشارد وهو يتجه نحو الباب : ( أي نوع من الجعة تريد؟)

(النوع ذاته)قالها دوك وهو يبتسم ويرنو بناظريه عبر التل نحو الفتية.

لطالما كان من اليسير على المرء أن يقول عبارات من قبيل : إن الزمن كفيل بمداواة الجراح، أو : ذلك الجرح سوف يندمل يوماً، و : الناس سوف ينسون.... إلى آخر تلك العبارات المحفوظة التي يسهل ترديدها طالما كان المرء خارج الأحداث، لكن الأمر جد مختلف لو أنك كنت منغمساً في غمرة الحدث متورطاً فيه حتى الأذنين، فحينها لا الزمن يداوي ولا الناس ينسون، بل تبق كما أنت في وضعك المزري في غمرة الموقف التعس، وكأن الزمن قد توقف والوقت لا يمر، فلا شئ يتغير ولاحالك البائس يتبدل.

ولم يكن دوك يعلم مقدار الألم والنبذ القاتل الذي عاناه سكان قصر فلوبهاوس، ولو كان يعلم فلربما كان ليحاول فعل شئ لتخفيف ذلك الوضع القاتل. كذلك لم يكن ماك وفتيته يدرون شيئا عن شعور دوك نحوهم، ولو كانوا يدرون لاستطاعوا رفع رؤوسهم ومواجهة العالم من جديد.

ولقد كان وقتًا عصيبًا، وفترة كئيبة تلك التي مرت على شارع السردين المعلَّب، وخيم الشر على كل أركانه..... فقد نشبت عدة مشاحنات بين سام مالوي وزوجته، فباتت تبكي وتنوح طوال الوقت، وأصداء نحيبها تتردد داخل المرجل وكأنها تبكي من تحت الماء؛ وازدادت حالة النبذ والعدائية تجاه ماك والفتية حتى بات الناس ينظرون إليهم وكأنهم أصل البلاء كله ومنبعه.

أمـا ألفـرد حـارس بيـت دورا فقـد قـام ذات ليلـة بطـرد أحـد السـكارى، فجَـرَّه وألقـى به خـارج البيت، إلا أنـه قد دفعـه بأعنف من الـلازم فكُـسِر ظهـر الرجـل، وقـد اضطـر ألفـرد للمثـول أمـام جهات التحقيـق في سـالينـاس لثـلاث مـرات عـلى خلفية تلـك الواقعـة ، إلى أن انتهـى الأمـر وأُغلقـت القضيـة، إلا أن ألفـرد لم يعـد كما كان مـن بعدها وقـد لازمه شـعور بعـدم الارتيـاح، فقـد كان دوماً حارسًـا جيـداً رابط الجـأش، يـؤدي مهام عمله ببراعة دون أن يتسـبب في إيذاء أي شـخص، وكان يتمتـع بالحنكـة والدماثـة واللطـف في آن معـاً.

ولم تكـن تلـك هـي المشـكلة الوحيـدة التـي أصابـت بيـت دورا في تلـك الفـترة القاتمـة، وإنـما جـاءت الطامـة الكـبرى متمثلـة في جماعـة مـن النسـوة المحافظـات؛ حيـث طالبـت عصبـة مـن سـيدات البلـدة المحتشـمات بإغـلاق كافة بيوت البغـاء وأوكار الرذيلـة في البلدة بدعوى حمايـة النـشء مـن الفسـاد الأخلاقـي.

وقـد كان ذلـك يحدث عـادة مرة كل عـام في الفترة ما بـين احتفالات عيـد الاسـتقلال وموعـد إقامة السـوق السـنوي للولاية، فكانـت دورا تقوم بإغلاق بيتها لنحو أسـبوع إلى أن تمر الزوبعة بسـلام، ثم تعيد فتحه مـن جديـد، ومـا كان هذا الأمـر ليمثل حدثا جلـلا أو خسـارة موجعة، فـلا ضـير مـن أن يحصل المرء عـلى إجازة من حـين لآخر، كـما أنها كانت تسـتغل تلك الفترة أحيانًا في إجراء بعض الإصلاحات والصيانة للبيت.

لكـن الأمـر كان مختلفـاً هـذه المـرة، فأولئـك النسـوة كـن عنيـدات مصمـمات عـلى مطالبهـن، وخضـن في سـبيل ذلـك معركة شرسـة دون

هـوادة، وازداد الأمر سـوءًا وتعقيدًا حينما طالبن بمعرفة أسـماء أصحاب بيـوت البغـاء وكـم يتلقـون مـن أمـوال لقـاء مـا يقدمونه مـن خدمات الرذيلة، وأسـباب عدم قيام الدولة بإغلاق تلك البيوت كل تلك الفترة.

لقـد صرن أولئـك النسـوة يمثلـن خطراً داهمًـا على أعـمال دورا ومن مثلهـا، وقـد اضطـرت هـذه المـرة لإغـلاق أبوابهـا لأسـبوعين كاملين، وقـد كان هنـاك ثـلاث فعاليـات أجريـت في مونتـيري خـلال فـترة الإغـلاق تلـك، فانتـشر خبر الإغـلاق سريعـاً انتشـار النار في الهشـيم، وخـسرت مونتيري جـراء ذلك خمس فعاليـات كاملـة كان من المفترض أن تقـام بهـا في العـام التالي.

وازداد انتشـار السـوء والنحـس في كل مكان في الشـارع، فدوك كان مضطـرًا لأن يحصـل على قـرض من البنك كـي يتمكن مـن شراء قوارير و آنيـة زجاجيـة لمختـبره بدلا مـن تلك التـي تحطمت خلال الحفـل إياه، و» إلمـار ريشـاتي « فقـد كلتـا سـاقيه عـلى خـط القطـار؛ ثـم حـدث أن هبـت عاصفـة مروعـة عـلى حـين غـرة تسـببت في غـرق شـباك الصيـد الطويلـة، وقطـع حبال مـراسي ثلاث سـفن، ثـم أطاحت بتلك السـفن مـن مرافئهـا لترتطـم بشـاطئ ديل مونـت وتتحطـم تمامًا.

كانـت سلسـلة مـن الأحـداث المروعـة بـلا تفسـير عـلى الإطـلاق، تلـك التـي ضربـت شـارع السردين المعلـب، وقد أخـذ كل امـرء يلوم نفسـه عـلى مـا وقـع لـه مـن نوائـب، متذكـرا كل الآثـام والـشرور التي إرتكبهـا في حياتـه، وقـد اسـتقر في يقينه أن مـا أصابه من بـلاء وكبوات لم يكـن سـوى عقـاب القـدر لـه عـلى شروره وخطاياه.

وقد حاول البعض إيجاد تفسيرات أخرى لما يحدث لهم، فعزى البعض منهم تلك المصائب إلى الظواهر الفلكية، وفسرها البعض في ضوء قانون الصدفة والاحتمالات، إلا أن تلك التفسيرات لم تبدُ مقنعة لأي عاقل.

حتى الأطباء قد أصابهم سوء الطالع، فقد أصيب كثير من الناس بأمراض متنوعة، لكن أي من هؤلاء ما كان يملك المال الكافي كي ينقد الطبيب ما يرضي شرهه للمال.

ثم جاء مرض الكلبة دارلينج ليغلق دائرة النحس ويستكمل سلسلة المصائب. كانت دارلينج قد صارت بدينة ممتلئة بالحيوية والصحة حينما ضربها المرض فجأة، وكانت خمسة أيام من الحمى الشديدة كفيلة بأن تحولها إلى هيكل عظمي يغطيه الجلد، واستحال أنفها إلى اللون الارجواني وباتت لثتها بيضاء شاحبة، حتى عيناها قد غشيهما الإعياء والوهن.

وبالرغم من ارتفاع درجة حرارة جسدها الذي أهلكته الحمى، إلا أنها كانت ترتجف من البرد أحيانًا، ولم تعد قادرة على تناول طعام أو شراب، فازدادت وهناً فوق وهن، ونحولاً على نحول، حتى كاد بطنها يلتصق بظهرها، وبات ذيلها نحيلًا قد برزت غضاريفه من أسفل طبقة الجلد.... لقد صار جلياً لكل ذي عينين أنها قد أصيبت بداء «سُل الكلاب».

وهكذا اجتاحت قصر فلوبهاوس حالة من الفزع والجزع لم يسبق لها مثيل، فقد احتلت دارلينج مكانة عليا بين الفتية وصارت ركنا

ركينا في حياتهم، حتى ماعاد بإمكانهم تخيل عيشهم وأيامهم دونها؛ فترك هيوجي وجونز عملهما فوراً كي يظلا بجانبها، وتناوبوا جميعاً في نوبات على رعايتها والسهر بجوارها، فكانوا يضعون كمادات المياه الباردة على رأسها لتخفيض حرارتها دون جدوى، وصارت أكثر مرضًا ووهناً.

وفي النهاية لم يجدوا بُداً من إستدعاء دوك، وتم اختيار هازل وجونز ليقوما بتلك المهمة العسيرة، فانطلقا على مضض إلى المختبر، وكان دوك في تلك الأثناء عاكفا على تفحص خارطة المد والجذر فيما كان يتناول يخنة الدجاج وخيار البحر، فنظر للوافدين إليه، وقد خُيل لهما أنه رمقهما بنظرات باردة نوعاً... فصاحا : ( دارلينج... إنها مريضة)

(ماذا بها؟)

(ماك يقول إنها مصابة بسل الكلاب)

(لكنني لست بطبيب بيطري، ولا أعرف كيف أعالج ذلك المرض)

فهتف هازل : ( نعم، ولكن ألا يمكنك أن تلقي عليها نظرة؟، إنها محمومة جدًّا)...

تحلق الفتية في قلق بالغ حول دوك وهو يفحص كلبتهم الحبيبة، حيث أخذ يتفحص كرتي عينيها ولثتها ويجس أذنيها، وكذلك أخذ يمرر أصابعه على أضلعها البارزة وعمودها الفقري، ثم سألهم : ( هل تتناول طعامها؟)

فأجابه ماك : (إطلاقاً)

(إذن سيكون عليكم إطعامها قسراً، سوف تحتاج لتناول حساءً دسمًا وبيض وزيت كبد سمك القد)ثم أخذ يملي عليهم بعض التعليمات الطبية، وقد لاح لهم أنه كان يحدثهم بجفاء ومهنية باردة؛ وما إن فرغ من تعليماته لهم حتى عاد أدراجه إلى حيث خرائطه و عمله .

أما الفتية فقد صار أمامهم مهمة لينفذوها، فقاموا بسلق بعض من اللحم حتى صنعوا حساءً دسماً مغذياً، ثم قاموا بتنقيط بعض من زيت كبد السمك في حلق الكلبة، ثم إنهم أمسكوا برأسها جيدًا وقاموا بزم شدقيها مع فتحها قليلا كقُمع وبدأوا في سكب الحساء إلى جوفها مما ارغمها على ابتلاعه قسرًا وإلا اختنقت. وقد ظلوا على ذات المنوال طوال اليوم، يطعمونها كل ساعتين ويسقونها بعض من الماء. وفي ذلك اليوم لم يذق أي من الفتية طعم النوم، وكانوا فيما سبق يتناوبون على رعايتها، أما ذلك اليوم فقد تحلقوا جميعًا حولها في صمت وترقب وقد توقعوا أن تمر بأزمة صحية قاسية...

وبالفعل طرأ طارئ على حالتها في الساعات الأولى من الصباح الباكر، حيث كان الشباب كما هم على مقاعدهم يتأرجحون ما بين النوم والصحو وقد قتلهم الانهاك، في حين كان ماك متيقظا يرقب كلبتهم عن كثب، إلى أن لاحظ أذنيها وهما ينتفضان، وصدرها يعلو ويهبط بصعوبة، ثم، في وهن شديد، نهضت دارلينج على قدميها، وتحاملت حتى وصلت إلى الباب فرشفت أربع رشفات من إناء

الماء ثم سقطت على الأرض، فصرخ ماك منتزعا الفتية من حالة النعاس، وهب على قدميه وهو يكاد يرقص فرحًا، وصاح الفتية في بهجة، حتى أن صوتهم قد بلغ لي شونج حين خرج حاملاً سلة مهملاته، وتناهى إلى مسامع ألفرد في شرفة بيت دورا، حتى حسبهم يقيمون حفلاً في منزلهم.

وبحلول الساعة التاسعة كانت دارلينج قد تناولت بيضة وبعضًا من الكريمة المخفوقة، وعند منتصف النهار كان قد صار واضحًا أنها قد استعادت بعضًا من صحتها،

ولم يمر اليوم إلا وكانت دارلينج تثب وتلعب قليلاً. ومع انقضاء الأسبوع كانت قد صارت بصحة جيدة وقد برأت من سقمها.

وأخيرًا بدا أن انفراجة قد بدأت تحدث في دائرة الكرب التي أصابت الجميع، فقد ظهرت شبكة الصيد الطويلة التي كانت قد أغرقتها العاصفة، وطفت على الماء؛ وجاءت إلى دورا الأنباء أنها قد صار في مقدورها إعادة فتح أبوابها من جديد.

وتمكن «إيرل ويكفيلد» من اصطياد سمكة «سكولبين» ذات رأسين، فباعها إلى المتحف بثمانية دولارات...

لقد انكسر جدار الشر وتداعى أخيرًا، وعاد دوك من جديد يسدل ستائر مختبره ويشغل موسيقاه الأثيرة، إلى أن تتوقف في الساعة الثانية صباحا دون أن تخرج من لديه؛ و رق قلب لي شونج أخيرًا، فغفر لماك وفتيته ما كبدوه من خسارة، وقام بشطب دين الضفادع الذي كان بمثابة صداع مقيم منذ البداية، ولكي يثبت لهم أنه قد

عفا عنهم بالفعل، قام بإهدائهم زجاجة من زجاجات «أولد تينيس شوز». وكان تسوقهم وشراء احتياجاتهم من سوق البلدة قد أزعجه كثيراً، إلا أنه تناسى كل شئ.

وقد تزامنت زيارة لي شونج الأولى لقصر فلوبهاوس مع تعافي دارلينج من مرضها واستردادها لعافيتها، وشغبها كذلك، وقد باتت أكثر مشاغبة وتمرد عن ذي قبل وما عاد بمقدور أحد أن يكبح جماحها؛ وحينما وفد لي شونج إلى بيت الفتية حاملاً هديته، كانت دارلينج تلوك حذاء هازل الوحيد وتتلفه في غبطة، ومن حولها كان الفتية يصيحون بفرحة وجزل.

لم يزر ماك بيت دورا لممارسة البغاء أبدا، فقد كان ذلك في نظره أشبه مايكون بزنا المحارم، وكان يفضل أن يذهب إلى ذلك البيت الآخر البعيد بجوار ملعب البيسبول؛ لذا، فما إن دلف إلى البيت ودنا من البار حتى ظنه الحاضرون قد جاء لتناول بعض من الجعة ليس إلا، لكنه وقف أمام ألفرد وقال : ( هل دورا هنا؟)

( ماذا تريد منها؟)

( لديَّ سؤال أريد أن أسألها إياه)

( عن ماذا؟)

( هذا ليس من شأنك)

(حسنًا، انتظر هنا ريثما أرى إن كانت على استعداد لمقابلتك أم لا)

وبعد لحظة عاد ألفرد واصطحب ماك إلى حيث دورا، حيث كانت تجلس إلى مكتبها، وشعرها البرتقالي المتماوج يحيط برأسها، وكانت ترتدي ثوبًا من حرير أرجواني فاتن مُوَشّى عند العنق والمعصمين. وقد كانت عاكفة على ضبط حساباتها في دفتر الحسابات حينما دخل ماك، فاستدارت على كرسيها الدوار في مواجهته، في حين وقف ألفرد على الباب، فظل ماك واقفا في مكانه صامتاً إلى أن انسحب ألفرد وأغلق الباب وراءه.

أخذت دورا تتفحص ماك في ارتياب، ثم سألته أخيرًا : ( حسنا، ما الذي يمكن أن أخدمك به؟)

(آ... أظن أنك قد سمعت بما فعلنا في مختبر دوك منذ فترة)

فوضعت دورا الريشة العتيقة التي كانت تكتب بها جانبًا وقالت (نعم، سمعت بما حدث)

(حسنا يا سيدتي، في الحقيقة لقد فعلنا ذلك من أجل دوك، لقد ابتغينا اسعاده. ربما لا تصدقين ذلك لكننا إنما أردنا إقامة حفلة من أجله، لكنه للأسف لم يعد إلى منزله في الوقت المناسب، فجرى ما جرى وخرجت الأمور عن سيطرتنا)

(لقد سمعت بما وقع، والآن ما الذي تريده مني؟)

(لقد فكرت أنا وأصدقائي في أن نستشيرك فيما يمكن أن نفعله من أجل دوك لنظهر له محبتنا وتقديرنا له)

(إمم...) همهمت دورا قليلا، ثم استرخت في كرسيها الدوار، ووضعت ساقا فوق ساق وأصلحت من وضع طرف ثوبها فوق ركبتيها، ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها وهي تفكر في عمق، ثم : (لقد جربتم أن تقيموا حفلة لدوك لم يتسن له الاستمتاع بها، فلماذا لا تقيموا له حفلاً آخر يستمتع به حقا؟)....

عاد ماك إلى الفتية وحكى لهم مادار بينه وبين دورا، وأخذ يصيح في حماسة : ( يا للمسيح، لقد كان الأمر بسيطا منذ البداية لكننا لم ننتبه.... إن دورا لامرأة جهنمية ماكرة بحق، لا غرو أنها صارت على ماهي عليه الآن... إنها داهية حقاً)

***

# -٢٤-

ماري تالبوت، زوجة توم تالبوت.... امرأة جميلة هي، ذات شعر أحمر متوهج وبشرة ذهبية تتبدى الأوردة الخضراء من تحتها، ووجه مستطيل مستدق الذقن، وعينان خضراوان واسعتان ذات وميض ذهبي. وكانت لها ساقين طويلتين كسيقان الراقصات، فكانت تمشي وكأنها لاتمس الأرض بقدميها، وإذا ما انتابتها الإثارة والحماسة لأمر ما - وكثيراً ما كانت تستثار - كانت بشرتها الذهبية تزداد توهجا وألقاً. وكان من المعروف أن جدة جدة جدة ماري كان قد تم اتهامها بممارسة السحر والشعوذة و أُحرِقَت حية.

وما كانت ماري تعشق شيئًا في العالم بقدر عشقها للحفلات، وكثيرًا ما كانت إما تقيم حفلات أو تحضرها، ولكن مذ أن ضاقت أحوال زوجها المادية، لم تعد ماري بقادرة على إقامة الحفلات، لذا فقد دأبت على التحايل على الناس واستدراجهم لإقامة حفلات كي يتسنى لها حضورها والاستمتاع، بل وصل بها الأمر أنها كانت في بعض الأحيان تهاتف واحدة من صديقاتها فتقول لها بغلظة : ( أما آن الآوان أن تقيمي حفلة في بيتك؟)

وقد اعتادت ماري أن تقيم ستة أعياد ميلاد لها في العام الواحد؛ وكم من حفلات تنكرية، وسهرات صاخبة، واستعراضات أقامتها، أما احتفالات عشية الكريسماس في بيتها فكانت دومًا شديدة الإثارة والصخب....ولطالما كانت ماري تهتاج وتصطخب في الحفلات، ولطالما حملت زوجها على مجاراتها في اهتياجها هذا.

وفي ساعات الأصيل، حين يكون توم في العمل، كانت ماري تقيم بعض حفلات الشاي في منزلها.....لقطط الحي!

فكانت تضع مجسمات صغيرة لفناجين وصحون، وتجمع القطط حولها، وتنخرط في حديث متخيل طويل ومتشعب معهم، وكم كانت تستمتع بتلك اللعبة أيما استمتاع، وتنخرط فيها لتنفصل عن الواقع الأليم. فالواقع والحقيقة أن ماري ما كانت تملك ملابس جيدة، وأنها وزوجها فقراء لايملكون أي أموال لفعل أي شئ، حتى أنهم كانوا معرضين للإفلاس أكثر من مرة، وحينما يتسنى لهم جمع بعض من المال كانت ماري تسارع إلى إهداره في إقامة الحفلات.

ومع ذلك فقد كان لماري جانب آخر إيجابي، فقد حظيت تلك المرأة الجميلة بموهبة نشر البهجة والفرح أينما حلت، وقد أجادت استخدام موهبتها تلك كسلاح في وجه القنوط الذي كان ينقض من حين لآخر على زوجها بسبب الفقر وضيق الحال، فكانت تجاهد في دفع الكآبة واليأس عنه بأقصى طاقتها، حتى باتت تؤمن بأن تلك هي مهمتها الحقيقية في الحياة. وكثيرًا ماكانت تنجح في مسعاها وتبقي اليأس القاتم بعيداً عن بيتها،

ولطالما رددت على مسامع زوجها أنه سوف يصيب النجاح يوماً ما وأن كل شئ سوف يتبدل للأفضل.

ولكن في بعض الأحيان كانت تنهزم في معركتها ضد الألم، فيختطف منها زوجها ويلقي به إلى بئر الأفكار السوداء، فيظل مستغرقًا فيها لساعات طوال. لكنها لاتستسلم، ولا تدخر جهداً في نشر المرح والحماسة من حوله علّها تدفع عنه عدوها اللدود، اليأس.

وفي إحدى الأيام، كان ذلك في مطلع الشهر، تلقى توم إشعارًا من شركة المياه بقيمة الفاتورة المستحقة عليه، كذلك لم يكن إيجار المنزل قد تم سداده بعد؛ كما كان تم رفض الأعمال التي قام بإرسالها إلى مجلتي «كوليرز» و « نيويوركر». وكان توم يعاني من مرض في الرئة وقد اشتد عليه في نفس ذلك التوقيت. فعاد الزوج إلى منزله واتجه مباشرة نحو غرفة النوم، فألقى بنفسه فوق الفراش في هم وكمد، ومن حوله كانت سحب الكآبة تلوح في الأجواء. فدنت منه ماري في روية وهدوء وفي يدها باقة صغيرة من أزهار حلوة الرائحة، وهمست: (شم) وقرّبت الباقة من أنفه، فاشتمّها قليلاً، لكنه بقي صامتاً..

( أتعرف ما هو اليوم؟)سألته في مرح، وقد أخذت تفكر بسرعة باحثة عن أي مناسبة أو أي شئ يمكن أن تجعل به اليوم يومًا مميزاً...

لكن توم لم يجبها، وبدلاً من ذلك قال : ( لماذا لا نواجه أنفسنا بالحقيقة ولو لمرة واحدة؟ نحن مفلسان، بل إننا في قاع الإفلاس. ما فائدة أن نخادع أنفسنا؟)

(لا، لسنا كذلك)هتفت ماري ( بل نحن محظوظان، ولطالما

كنا كذلك... هل تذكر العشرة دولارات التي وجدتها يوماً بين طيات أحد الكتب؟.. هل تذكر يوم أرسل إليك ابن عمك خمسة دولارات؟ .... نحن بخير، وسنبقى كذلك دوماً ولن يصيبنا سوء)

( حسناً، لقد حدث ذلك بالفعل، آسف. لكني لا أستطيع التمادي في خداع نفسي... لقد تعبت من التظاهر بكل شئ، لكم أتمنى أن يكون ما أتظاهر به وأدعيه حقيقياً ولو لمرة واحدة فقط)

( مارأيك أن نقيم حفلاً الليلة؟!)

( وماذا ستقدمين بها؟ لا تقولي لي إنك ستقومين ثانية بقص صورة لحم الخنزير المخبوز ووضعها في صينية تقديم كما فعلتِ من قبل. رجاءً، لقد سئمت من تلك الألعاب، إنها لم تعد مضحكة أبدًا، بل باتت تثير الهم والحزن في صدري)

( يمكنني أن أقيم حفلة صغيرة بسيطة... ولن يضطر أحد لارتداء ملابس سهرة... سوف نحتفل بذكرى تأسيس جماعة « البلومر » (*) ، ما رأيك؟.. لاتقل لي أنك نسيتها)

( لا جدوى من هذا كله. لم أعد أحتمل أكثر من ذلك.... اخرجي الآن وأغلقي الباب وراءك و دعيني وحدي، إن لم تفعلي فسوف أخرجك بنفسي)

فنظرت ماري إلى زوجها ملياً وأدركت أنه يعني ما يقول، فقامت بهدوء وخرجت وأغلقت الباب خلفها، تاركة توم وحده وقد تقلب

* - البلومر : هو زي صممته السيدة بلومر للنساء ويتألف من تنورة قصيرة تحتها بنطال واسع، وقد سمي الزي على إسمها. «المترجمة «

في الفراش ووضع رأسه بين ذراعيه.

لكن ماري كعادتها لم تستسلم، بل طفقت تزين باب المنزل ببعض من زينة احتفالات الكريسماس القديمة والكور الزجاجية الملونة، ثم قامت بتصميم لافتة مكتوب عليها : مرحباً بتوم بَطَلَنا.

وبعد حين، تسللت إلى حيث باب غرفة النوم وأخذت تحاول استراق السمع، لكن لم يتناه إلى أذنيها أية أصوات، فعادت من جديد إلى ما كانت تفعله، وأتت بطاولة منخفضة ووضعت فوقها مفرشاً، ثم وضعت باقة الزهور في زهرية بوسط الطاولة، وأحاطتها بأربعة فناجين صغيرة على أطباقها، ثم اتجهت نحو المطبخ فوضعت بعضًا من الشاي في إبريق التقديم، ثم وضعت قِدْر الماء فوق الموقد، ثم إنها توجهت نحو فناء المنزل.

وهناك، كانت قطة الجيران «راندولف» جالسة في استرخاء تستمتع بأشعة الشمس بجوار السياج الأمامي، فخاطبتها ماري : ( سيدة راندولف... لقد دعوت بعض الأصدقاء على الشاي، وإنني لأود أن تشاركيننا)فنظرت نحوها القطة في خمول ثم تمطت، فأردفت ماري : ( لا تتأخري عن الساعة الرابعة، فسوف نخرج أنا وزوجي مساءً لحضور حفل الذكرى المئوية لجماعة البلومر)

ثم إنها انعطفت حول المنزل إلى حيث الباحة الخلفية، حيث كانت القطة «كاسيني « جالسة هي الأخرى وقد أخذت تضرب الأرض بذيلها وتموء مواءً مكتوماً ، فنادتها ماري : ( سيدة كاسيني، إنني...)لكنها ما لبثت أن قطعت كلامها بمجرد أن رأت ما كانت

القطة تفعله... فقد كانت تمسك بفأر مذعور يتلوى في رعب وقد انكمشت قائمتيه الخلفيتين، ثم إن الهرة أطلقت سراحه، فانطلق لا يلوي على شئ نحو الكرمة المتدلية على السياج، ولم تكد تمر ثوان حتى أشهرت كاسيني مخالبها اللامعة وانقضت ثانية على الفأر تنشب مخالبها في ظهره ثم جرَّته إليها ثانية في استمتاع واضح..

ولابد أن توم كان على وشك النعاس حينما سمع صوت زوجته المضطرب وهي تصيح باسمه مراراً، فقفز من فراشه صائحًا بدوره: ( ماذا هناك؟ أين أنتِ؟)فلم يصله إلا صياح زوجته وصراخها، فهرع إلى الفناء الخلفي نحو اتجاه صوتها، فرأى المشهد المرعب، فصاح في زوجته أن : ( أديري وجهك) ثم أنه قتل الفأر، في حين وثبت القطة فوق السياج ووقفت ترقبه وهو يقتل صيدها في غضب، فما إن انتهى من الفأر حتى التقط قطعة من حجارة وقذف القطة بها بعنف فسقطت عن السياج.

وفي داخل المنزل كانت ماري لاتزال تنتحب قليلاً وهي تصب الماء المغلي في إبريق تقديم الشاي ثم تضعه على الطاولة المنخفضة، ثم إنها أشارت لزوجها : ( اجلس هنا)، فجلس على الأرض قبالة الطاولة، ثم نظر إلى فنجان الشاي وقال : (ألا يمكنني الحصول على فنجان أكبر؟)

لكنها لم تجبه، وظلت تردد : ( لا يمكنني أن ألوم كاسيني، فهي قطة، وقد تصرفت كما تتصرف القطط. ولكن، رباه! ... إنني لن أقو على دعوتها إلى هنا مرة ثانية ياتوم، لن أستطع

تقبل وجودها لفترة طويلة مهما حاولت)

ثم إنها نظرت إلى توم فوجدته وقد انحسرت ملامح الكآبة عن وجهه وذهب بؤسه وغمه، فأردفت في حماسة : ( إنني مشغولة جدًا تلك الأيام بالإعداد لاحتفالية ذكرى جماعة البلومر ولديَّ الكثير لأفعله، ولا أدري حقاً كيف سأتمكن من إنجاز كل ما يتعين عليَّ إنجازه)...

وفي العام نفسه أقامت ماري تالبوت حفلاً بمناسبة حملها، وقد صاح كل من علم بالنبأ قائلاً : ( يا إلهي، إن الطفل الذي تنجبه امرأة مثل ماري تالبوت سوف يحظى بكثير من المرح )

***

# - ٢٥ -

ما من شك أن شارع السردين المعلب، بل وربما مونتيري برمتها، قد شعر بأن تغيرًا ما قد حدث... والحقيقة أنه لمن العقلانية ألا يعتقد المرء في أمور التفاؤل والتشاؤم، لكن في نفس الوقت، ومن الحصافة ألا يعبث الإنسان مع مثل تلك الأمور.

والحق أن أهل شارع السردين المعلب ما كانوا يوماً قوم خرافات وما كانوا يؤمنون بها، لكنهم كذلك كانوا دائمًا ما يتجنبون العلامات الجالبة للشؤم، فلن تجد أحداً منهم يمر أسفل سلم مفتوح، ولن يقدم شخص من بينهم على فتح مظلة تحت سقف منزله [*]،...

وقد كان دوك عالِماً حقيقياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكان أبعد ما يكون عن الإيمان بالخرافة، لكنه حين عاد في ساعة متأخرة من الليل إلى مختبره ووجد ذلك الصف من الزهور البيضاء على عتبة داره، شعر بانقباضة.

---

* - يعتبر الغربيون أن المرور أسفل سلم وفتح مظلة تحت سقف مغلق من العلامات الجالبة للشؤم. «المترجمة».

أما ماك، فقد كان متيقناً من أن سحابة شؤم لابد وأنها قد خيّمت على قصر فلوبهاوس؛ فحين أخذ يحلل أسباب فشل الحفل الذي أقاموه لدوك على هذا النحو المريع، لم يجد من أسباب سوى أن النحس قد تسلل إليه فأفسده تمامًا. ولم يكن ماك يؤمن بالخرافات بطبيعته، لكنه مع ذلك كان يرى أن أفضل ما يمكن للمرء أن يفعله حين يباغته النحس وسوء الحظ، أن يلزم فراشه لايبارحه إلى أن تمر سحابة الحظ العاثر القاتمة بسلام، فليس لأحد القدرة على مواجهتها أو تحديها..

أما الآن، فقد بدأت الأمور تتحسن، ودخل نوع من السرور إلى الشارع وأخذ ينتشر بين جنباته طاردًا الشؤم و الكآبة. فقد انتعشت أحوال دوك العاطفية من جديد مع ازدياد وتيرة الزيارات النسائية لمختبره، بالرغم من أنه لم يسع إلى ذلك؛ أما كلبة قصر فلوبهاوس فقد كبرت ونمت، وككلبة من سلالة كلاب الصيد، أخذت تدرب نفسها وتُنَمّي مهاراتها الفطرية، بل وتعلمت ألا تنشر فضلاتها في كل مكان بالمنزل كما كانت تفعل في السابق، فصارت تخرج إلى الخلاء كلما أرادت أن تقضي حاجتها...لقد باتت كلبة ناضجة رائعة بحق.

لقد حل الخير أخيرًا على شارع السردين المعلب من بعد طول تعثر، وأخذ يجوب ويمس بعصاه السحرية هنا وهناك، حتى وصل إلى محل هيرمان للهمبورجر، وفندق سان كارلوس، وسباركي إيفيا، و....

بل قد وصلت نفحة الهناء تلك حتى سجن ساليناس، حيث يقبع جاي، الذي كان يضطر للانهزام أمام مأمور السجن كل يوم في لعبة

الداما [*] كي ينعم بحياة وادعة سهلة طوال مدة إقامته بالسجن، لكنه فجأة نفض عنه خنوعه، وكف عن الانهزام، وأخذ يحقق الفوز في اللعبة مرة تلو الأخرى؛ صحيح أنه قد فقد امتيازاته داخل السجن لكنه، لكنه عاد رجلاً شامخاً أبياً مرة أخرى.

حتى سباع البحر قد مستها تلك النفحة من البهجة التي منحتها الطبيعة للشارع، فأخذت تزأر بصوت مجلجل هادر كالأجراس الرنانة... والحق أن المرء ليعجب من كل تلك البهجة غير المتوقعة التي استحوذت على الشارع بكل ما فيه ومن فيه. ليت أحدا قد اخترع أداة كهربائية تقيس مقدار السعادة وتكشف مصدرها الخفي، فلربما اكتشف شارع السردين المعلب حينها أن تلك البهجة والفرح كان مردهما هو قصر فلوبهاوس، فقد كان الفتية يتفجرون مرحًا وحماسة، فها هو ذا جونز يثب من على مقعده ليرقص في نشاط رقصة سريعة محمومة، ثم يعود إلى جلسته مرة أخرى، وها هو هازل يبتسم في ابتهاج دونما سبب واضح،... وقس على ذلك وضع باقي الفتية.

لقد عمَّت السعادة أرجاء القصر لدرجة شتتت ماك إلى حد ما عن تركيزه في هدفه الحالي؛ أما إيدي الذي يعمل في بار « لا إيدا» فقد ازدادت كميات الخمور التي يجمعها للفتية من البار، كذلك قد تحسن مزيجها كثيرًا، فقد كف إيدي عن إضافة الجعة و التي كانت، على حد تعبير إيدي نفسه، تعطي المزيج مذاقا سخيفًا.

---

*** - لعبة الداما: لعبة شبيهة بالشطرنج لكنها تختلف عنها في تكتيكاتها، وقد ظهرت لأول مرة في عام ١١٠٠م بجنوب فرنسا، ثم انتشرت في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.**

**«المترجمة».**

وعند الساحة الخاوية، قام سام مالوي بزراعة بعض من أزهار النرجس فوق المرجل، وأقام تعريشة صغيرة صار يجلس تحتها مع زوجته في الأمسيات، حيث كانت تعكف على حياكة مفرش للسرير.

وامتدت يد السعادة إلى بيت دورا، حيث انتعشت أعمالها وازدهرت ، وكانت ساق فيليس ماي في طريقها للشفاء وصار في إمكانها استئناف عملها من جديد بعد فترة وجيزة، كما عادت إيفا فلاناجان من رحلتها من «سانت لويس» أخيرًا، وكانت في غاية السرور بعودتها، فلم يكن المكان الذي ارتحلت إليه جميلاً كما عهدته في السابق، ومع ذلك فقد حظيت بكثير من المرح هناك، فعادت أكثر نضارة وحيوية.

في خضم كل تلك التحولات، لم ينس ماك هدفه الأساس الذي ظل يفكر فيه ويقلبه على كل جوانبه في ذهنه طويلاً. لقد أدرك أن إدانات الناس لهم جراء ما فعلوه في مختبر دوك لم تتفجر مرة واحدة، وإنما أخذ القوم يغذونها في خيالاتهم حتى نمت وتفاقمت بصورة أشد وأكبر، وقد كان ماك واقعياً، فلم يغفل ذلك الأمر وهو يخطط لحفلتهم القادمة؛ وفي تلك الأمسية وهم جميعًا جالسين في القصر، استغرق ماك في التفكير العميق، ثم بدأ يتحدث، فاستهل كلامه قائلاً : ( في المرة الماضية قد اختلقنا الحفل اختلاقاً، دون مناسبة أو سبب، وما كان لنا أن نفعل ذلك، لايمكن أن نقيم حفلة ناجحة بهذا الشكل)

فسأله جونز : ( حسنا. متى نقيمها إذن؟)

(لست أدري!)

فتساءل هازل : ( وهل ستكون حفلة فجائية؟)

( يجب أن تكون كذلك، فإن أفضل الحفلات هي تلك التي تقوم على عنصر المفاجأة)

فقال هازل : ( لو أننا فقط نعرف تاريخ مولد دوك لأمكننا أن نقيم له حفلا نفاجئه به بتلك المناسبة)

فنظر له ماك مدهوشاً، ثم هتف : ( رباه! ، لقد وجدت الحل فعلاً ياهازل... نعم، إنها فكرة عظيمة. فلو أننا أقمنا له حفلاً بمناسبة عيد مولده فسوف تكون هناك هدايا بالضرورة، هذا هو مانريد....)وصمت للحظة ثم استأنف : ( الآن، كل ما علينا معرفته حالياً هو تاريخ مولده)

فقال هيوجي : ( الأمر بسيط... لم لا نسأله؟)

فصاح ماك : ( بربك يا فتى، لو أننا سألناه مباشرة فسوف يستنتج ما ننتويه بسهولة، خاصة وقد سبق لنا محاولة إقامة حفلة له. سوف أذهب أنا وأتقصى الأمر دون أن أجعل أحد يكتشف ما نعتزم فعله)

فهتف هازل : ( سوف آتي معك)

( لا... لو ذهبنا كلانا فسوف نلفت الانتباه، وقد يكتشف أننا ننتوي فعل شيء)

(حسنًا، اللعنة... إنها فكرتي بالأساس)

(أعلم، وحينما يتم كل شيء كما نريد سوف أخبر دوك بنفسي أنها كانت فكرتك. أما الآن فمن الأفضل أن أذهب بمفردي)

فسأله إيدي : ( وكيف هو الآن؟ أصار لطيفاً معك؟)

(نعم، الأمور على مايرام)

ثم انطلق ماك صوب المختبر، فوجد دوك في الطابق السفلي، وكان يرتدي مئزرًا مطاطيًا وقفازات مطاطية كذلك لحماية يديه من مادة «الفورمالدهايد» المستخدمة في التحنيط وحفظ الأجساد، حيث كان عاكفا على حقن بعض المواد الكيميائية الملونة في أوردة عدد من كلاب البحر الصغيرة.

كان دوك بارعاً في عمله، يجيد حقن المواد الصبغية بحنكة في الشرايين والأوردة، حتى إذا ما فرغ من حقنها باتت الأجسام ذات الأوردة الملونة بالأحمر والأزرق نماذج تشريحية ناجحة.

دخل ماك إلى المختبر، وهتف : ( مرحباً يا دوك.. يبدو لي أنك مشغول على الدوام)

(أنا مشغول كما أحب أن أكون... كيف حال الكلبة؟)

(بخير حال... لقد كانت لتقضي نحبها لولاك)

للحظة اعترى دوك الشك، لكنه ما لبث أن طرح عنه ذلك الشعور. إن كلمات المديح تثير شكوكه دائمًا، لكنه قد عاشر ماك وآلف طباعه مع الوقت، وكان يعلم تماماً أنه متعلق بكلبته أيما تعلق، فضلاً عن أن نبرة صوته فيما قاله له من مديح لم تكن تحمل سوى الامتنان الصادق والعرفان بالجميل.

( وكيف هي أموركم في قصر فلوبهاوس؟)

( جيـدة يـادوك. لقـد حصلنا عـلى كرسـيين جديدين، وإننـي لأتمنى أن تـأتي لزيارتنـا يومـاً. إن الوضـع صار جيـدًا لدينا)

(سأفعل... هل لازال إيدي يأتيكم بإبريق الخمور إياه؟)

(بالطبـع، لكنـه لم يعـد يضيف إليـه الجعة، وأظـن أن مذاقـه قد صار أفضـل هكذا. لقـد صار أكثـر قوة)

( إن مذاقه قوي منذ البداية ياماك)

وانتظـر مـاك في صـبر حتى تسـنح الفرصة وتـدور دفـة الحديث إلى حيـث يريـد بحيـث يتحصل عـلى المعلومة التي جـاء من أجلهـا دون أن يثـير شـكوك الرجـل، وقـد تمنى لـو تطـرق دوك نفسـه إلى الموضـوع مما يجعـل الأمـور أكثر سـهولة ويـسراً... لقـد كان هـذا ديدن مـاك دائماً.

وبعد حين قال دوك : ( لم أر هازل منذ فترة، أهو مريض؟)

فأجـاب مـاك، وقد شـعر أن الفرصـة قد واتتـه أخيراً ليظفر بـما أراد: ( لا، إنـه بخـير حـال. إنه فقط يخـوض مع هيوجـي معركـة ضارية منذ أسـبوع، ولا تزال المعركة مسـتمرة)

ثـم إنـه ضحـك وأردف : ( الطريـف في الموضـوع أنهـما يتناحـران حـول أمـر لايدريـان عنه أي شـئ. لقـد نأيت بنفـسي عن ذاك السـجال لأننـي أنـا أيضـاً لا أدري عنه شـيئا)

( وعلام يتناحران ؟)

( إن هـازل يحـرص دومًا على شراء جداول البخـت وأوراق الأبراج، ويبحـث عـن أيـام السـعد والطالـع، ومـا شـابه، أمـا هيوجي فـيرى أن ذلـك كلـه دجـل ومحـض خرافـة، فتدخـل إيـدي في الأمـر وقال لـه أنه إن علـم تاريـخ ميلاد شـخص مـا فبمقـدوره عندئـذ أن يعـرف عنه كل شـئ. لكـن هيوجـي مصر عـلى رأيـه ويـرى أن هـازل ينفـق أمواله على مـا لا طائـل مـن ورائـه. أما أنـا فلا أدري شـيئا عـن كل ذلـك.... ماذا عن رأيـك أنت يـادوك؟)

(أنـا متفـق مـع هيوجـي في رأيه)أجـاب دوك وهو منشـغل في إيقاف إحـدى آلات خلـط الأصباغ وغسـل المحقن وملئـه بمادة زرقـاء اللون.

واسـتمر مـاك في حيلتـه : ( لقـد دخلـوا في سـجال آخر ليلـة أمس، وسـألاني عـن تاريـخ مولـدي فأخبرتهـم أنـه في الثـاني عشر مـن أبريل، فانطلـق هـازل ليبتـاع جـدول الطالـع، ثـم أخـذا يتفحصانه لـيروا ماذا ينبئهـم تاريـخ ميـلادي عنـي. والحقيقـة أن ما جـاء في تلـك الورقة كان صحيحًـا إلى حـد مـا، لكنـي لاحظـت أن كل مـا أوردتـه كان صفـات وأمـور إيجابيـة فقط؛ عمومـاً إن الإنسـان يفضل دومًا تصديـق كل ماهو جيـد وإيجـابي عن نفسـه...

لقـد جاء في الطالع أنني إنسـان شـجاع، ذكي، أُحسـن إلى أصدقائي. هـازل يقـول إن كل هذا صحيح، لكنـي لا أعرف على وجـه اليقين...). وهنـا ارتـأى مـاك أن الفرصـة قـد صـارت مواتية تمامًـا ليطرح السـؤال الـذي جـاء وافتعـل كل تلك القصـة من أجلـه : ( قل لي يـادوك، ما هو تاريـخ ميلادك؟)

لقد جاء السؤال ملائمًا تمامًا لسياق الحديث، فلم يبد غريبًا أو شاذاً، لكن دوك لم يكن حديث العهد بماك، بل قد عرفه منذ زمن طويل وخبر كل طباعه، حتى بات قادراً على سبر أغواره وكشف خبايا نفسه دونما جهد، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان قد أخبره بتاريخ ميلاده الحقيقي، الثامن عشر من ديسمبر، ببساطة، لكنه بدلاً من ذلك أعطاه تاريخا زائفاً : ( إنه في السابع والعشرين من أكتوبر... اسأل هازل عما يقوله طالعي عني)

(ربما هو محض دجل يادوك، لكن هازل يؤمن بها تمامًا. على أية حال سوف أسأله عن طالعك)

ثم غادر ماك المختبر عائدًا إلى قصر فلوبهاوس، في حين ظل دوك يفكر في تلك المحادثة وما عساها تخفي ورائها. لقد أدرك منذ البدء أن في الأمر خدعة ما، فهو خبير بأساليب ماك وحيله، لكنه لم يستطع أن يحدد بالضبط كنه ما يكمن خلف تلك الخدعة.

ولم يستطع دوك سبر أغوار ذلك اللغز إلا بعدما بلغته الشائعات التي أخذت تتردد بين الناس... حينها فقط تنفس الصعداء نوعاً ما، فقد خمن في البداية أن الأمر يتعلق بالمال، وأن ماك إنما يخادعه للحصول على بعض منه.

***

# -٢٦-

كان الطفلين الصغيرين يلعبان في ساحة صناعة السفن، حين قفزت قطة عبر السياج إلى الساحة، فانطلقا يطاردانها عبر خط السكة الحديدية، وهناك أخذا يملئان جيوبهما بقطع من حجارة الجرانيت المتناثرة على جانبي خط القطار كي يقذفا بها القطة، لكنها كانت قد اختفت عن ناظريهما تماماً، فتوقفا عن مطاردتها، لكنهما لم يتخلصا من قطع الحجارة التي ملئا بها جيوبهما، فقد كانت خفيفة الوزن لا تثقلهما، ولربما حتاجا إليها فيما بعد لأمر آخر من مشاغبات الأطفال...

ثم عاد الطفلان إلى شارع السردين المعلب، وفي طريقهما قام أحدهما بإلقاء إحدى الأحجار على مصنع «موردن» لتعليب الأسماك، فأطل رجل برأسه من نافذة أحد المكاتب بالمصنع ثم هرع نحو الباب للإمساك بالمشاغبين الصغيرين، لكنهما كانا قد أطلقا ساقيهما للرياح كعادة الأطفال، حتى وجدا حاجزا خشبيًا فاختبئا وراءه، كل هذا قبل أن يتمكن الرجل حتى من بلوغ الباب، وبالطبع ما كان له أن يعثر عليهما ولو فتش عنهما لمائة عام.

(أراهن أنه لن يتمكن من إيجادنا هاهنا ولو بحث عنا بقية حياته)قالها أحد الصبيين ويدعى جوي، في جزل.

وبعد فترة، كانا قد ملّا الاختباء، كما أن أحداً لم يكن يفتش عنهما حينها، فنهضا من موضعهما واتخذا طريقهما عبر الشارع. إلى أن وصلا عند واجهة دكان لي شونج، فتوقفا أمامها لبرهة يتأملان المعروضات المكدسة من أدوات نجارة ومعدات حدادة وقبعات المهندسين وموز و.... ، ثم أنهما اجتازا الشارع حتى وصلا إلى المختبر البيولوجي الغربي، فجلسا على بداية الدرج المؤدي إلى الدور الثاني منه.

قال جوي لرفيقه : ( هل تعلم أن الرجل صاحب هذا المكان يحتفظ بأطفال في زجاجات)

(أي أطفال؟)سأله الصبي، ويدعى ويلارد

(أطفال عاديون، لكن قبل أن يولدوا)

(لا أصدق ذلك)

(إنها الحقيقة. لقد رآهم ذلك الصبي «سبراج». إنه يقول أنهم صغيرين جدًا ولهم أيدي وأرجل صغيرة وعيون)

(وماذا عن شعرهم؟)

( لم يذكر سبراج شئ عن الشعر)

(كان عليك أن تسأله عن شعرهم. أظن أنه كاذب)

( من الأفضل لك ألا يسمعك تقول ذلك)قالها جوي محذراً

(حسنا، يمكنك أن تخبره انني قلت عنه ذلك فأنا لست خائفاً منه أو منك. أنا لا أخشى أحدًا أيًّا كان، هل تحب أن ترى دليلاً على هذا؟) قالها ويلارد في لهجة عدائية، فلم يحرِ جوي جواباً

فأعاد ويلارد : (هل تحب؟)

(لا) أجاب جوي ( لقد كنت أفكر أن نذهب إلى صاحب المكان نفسه ونسأله ببساطة عما إذا كان لديه حقا أطفالاً في زجاجات أم لا. فلربما جعلنا نرى بعضاً منها إن كانت لديه فعلاً)

فأجابه ويلارد : ( هو ليس موجودًا الآن. طالما أن سيارته ليست هنا فإنه لا يكون موجودًا. لابد أنه ذهب إلى وجهة ما.. على أية حال أظن أن ذلك كله كذب، وأن الفتى سبراج كاذب، وأنت كذلك كاذب، هل لديك اعتراض؟)

كانت الأجواء تشيع كسلاً وخمولاً، وكان على الصبي ويلارد أن يبذل جهدًا كبيرًا كي يستفز رفيقه ويضفي جوًّا من الإثارة في تلك الساعات الخاملة الثقيلة، وقد استمر بالفعل في محاولات استفزاز صديقه : ( أظن أنك جبان أيضًا، فهل لديك اعتراض على ما أقول؟)

إلا أن جوي ظل على صمته وهدوئه، فتحول ويلارد إلى تكتيك آخر أكثر استفزازاً، فسأل رفيقه في لهجة تبدو عادية ظاهرياً : ( أين والدك الآن؟)

( لقد مات)

(أه، حقا ؟ لم أسمع بذلك. وكيف مات؟)

فصمت جوي للحظات وقد كان يعلم أن صديقه يعرف بموت والده وبملابسات وفاته كذلك، لكنه ما كان له أن يواجه الفتى بذلك من دون أن يخوض ضده عراكًا حاميًا، وقد كان جوي يخاف ويلارد كثيراً، لذا فقد أجاب بعد فترة صمت : ( لقد... لقد قتل نفسه )

(حقا؟)قالها ويلارد متظاهرًا بالذهول ( وكيف فعل ذلك؟)

(تناول سم الفئران)

فجلجل صوت ويلارد ضاحكاً ( ولماذا؟ أحسِب نفسه فأرًا؟) وظل يقهقه كثيراً، فضحك جوي هو الآخر ضحكة مبتسرة.

فاستطرد ويلارد وهو يصيح ضاحكاً ( لابد أنه حسِب نفسه فأرًا... وهل ظل يتلوى حول نفسه هكذا؟.... إنظر ياجوي.. هكذا؟ هل لوى أنفه هكذا؟... هل كان له ذيلا طويلاً؟) وظل يضحك ويأتي بحركات متقلصة بوجهه كمحاكاة لفأر يتألم، ثم قال : ( ولكن، لماذا لم يأت بمصيدة للفئران ووضع بها رأسه)وأخذ يضحك بلا انقطاع، فجاراه جوي في الضحك.

( وكيف بدا شكله حينما تناول السم؟ أهكذا؟)ثم إنه جعل عيناه تتخذان وضع الإحولال وفتح فمه مخرجاً لسانه.

فنظر جوي نحوه، ثم أجاب : ( لقد ظل يعاني آثار سريان السم لساعات، ولم يمت سوى عند منتصف الليل.. لقد تأذى كثيراً)

فسأله ويلارد : ( ولماذا فعل ذلك؟)

(لم يستطع الحصول على عمل.... لقرابة عام كامل لم يتمكن من الحصول على أية وظيفة..... هل تعلم ماهو المضحك حقاً؟ إنه في الصباح التالي مباشرة لانتحاره جاء شخص ليعرض عليه عملاً)

فحاول ويلارد أن يختلق أضحوكة جديدة : (لابد أنه قد أدرك أخيرًا أنه فأرًا)لكن النكتة لم تكن مضحكة حتى له هو.

ثم إن جوي نهض من مكانه واضعًا يديه في جيبه، فقد رأى شيئًا صغيرًا لامعاً عند البالوعة، فمضى نحوه، لكنه ما إن بلغه حتى دفعه ويلارد وانحنى ليلتقط هو ذلك الشئ الذي اتضح أنه عملة من فئة صغيرة، فصاح جوي في حنق : ( لقد رأيته قبلك. إنه لي أنا)

فأجابه ويلارد متنمرًا : ( فلتقاتلني إن كنت تريده... خير لك أن تذهب وتتناول سم الفئران أنت أيضًا)

***

# -٢٧-

كان ماك وفتيته بحق هم فضائل شارع السردين المعلب وجماله الحقيقي... كانوا هم الحَجَر الذي أُلقي في بركة الشارع الراكدة محركاً موجاته وكاسراً رتابته... كانوا النبض الذي يبث الحياة فيه وحوله، وصولاً إلى شاطئ الباسيفيك، ومونتيري، بل وعبر التل إلى كارميل...

( هذه المرة ينبغي أن نكون على يقين تام من أنه سوف يحضر الحفلة... وإن لم يحضر فلن نقيمها) قالها ماك في إصرار وهو جالس مع الفتية في قصر فلوبهاوس يرتبون للحفلة المنشودة، فسأله جونز : ( وأين سنقيمها هذه المرة؟)

فرجع ماك بكرسيه إلى الجدار، وقال وهو يلف ساقيه على القائمتين الأماميتين للكرسي : ( سوف أفكر في هذا الأمر ملياً.. في مقدورنا بالطبع أن نقيم له الحفلة هنا، لكن حينها سيكون من الصعب علينا أن نفاجئه بها. علاوة على ذلك فإن دوك يحب منزله ويعشق موسيقاه الخاصة... إنني لا أعلم من الذي قام بكسر

فونوغرافه في المرة الماضية، ولكن إذا حاول أحد أن يمد إصبعاً نحوه هذه المرة فسوف ألقي به إلى الجحيم بنفسي)

فقال هيوجي : ( إذن سيكون علينا إقامة الحفلة في منزله).

ولم يذع الفتية نبأ الحفلة المزعومة بين الناس، إلا أنهم قد علموا بها مع الوقت، فتناقلوا الخبر فيما بينهم، وبالرغم من أن أحدًا لم يُدع إليها، إلا أن الجميع في الشارع كان ينتوي حضورها، حتى بات يوم السابع والعشرين من أكتوبر حدثا منتظراً ماثلاً في الأذهان طوال الوقت، وطفق كل واحد يفكر في نوع الهدية التي سيحملها إلى دوك طالما أن تلك السهرة ستقام بمناسبة عيد ميلاده...

فبنات دورا على سبيل المثال، اللائي كن يترددن من حين لآخر على المختبر إما لطلب وصفة طبية أو نصيحة أو لأي غرض آخر، قد لفت انتباههن أكثر من مرة أن فراش دوك مغطى دائمًا بغطاء أحمر قديم حال لونه وقد امتلأ ببقايا العشب والحجارة والرمال، حيث كان يأخذه معه في رحلاته البحرية ليتدثر به اتقاءً للبرد. وحتى حينما كان يتيسر له شئ من المال، كان ينفقه على شراء المعدات اللازمة لمختبره، ولم يجل ببالـه أبدًا أن يبتاع غطاءً جديداً لفراشه.

لذا فقد استقر رأي الفتيات على حياكة غطاء جديد لفراشه كهدية له، من بقايا الأقمشة الحريرية اللامعة للثياب التحتية وأثواب السهرة الموشاة الجميلة، ذات الألوان البيضاء والأرجوانية والصفراء والحمراء الزاهية؛ وقد أنفقن أوقات فراغهن في ساعات الصباح والآصال على صُنعه، حتى أنهن قد انشغلن به عن التشاحن

والتناحر ومشاعر البغضاء التي تسود عادة بين العاملات في بيوت البغاء.

أما لي شونج، فقد انتقى بعضًا من الألعاب النارية وصحبة كبيرة من شتلات زهور الزنبق الصيني، حيث تراءى له أن تلك الأشياء هي أفضل ما يلائم الحفلات.

وكان سام مالوي مولعًا بالعاديات وبقايا الأشياء القديمة، وكان على يقين بأن قطع الأثاث العتيق وبقايا الخزف، وغير ذلك من المقتنيات التي لم تكن ذات قيمة مالية كبيرة في زمنها قد تصبح مع الوقت نفيسة غالية يتهافت عليها الناس ويتنافسون لاقتنائها، ويبذلون في ذلك كثير من المبالغ المالية التي ربما تفوق بكثير القيمة الحقيقية للقطعة المقتناة.

ولهذا فقد أخذ الرجل يجمع قطع السيارات من الطرز العتيقة ويقوم بتخزينها على أمل أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه ثرياً بفضل تلك الأشياء، وعندها سوف تحتل مقتنياته موقع الصدارة في أفضل المتاحف..

وقد أولى سام أهمية كبرى لحفلة دوك بمجرد أن بلغه خبرها، وأخذ يفكر ملياً في الهدية التي ينبغي عليه أن يحملها للفتى الطيب، فتوجه إلى حيث «كنوزه» من العاديات التي يحتفظ بها في صندوق كبير مغلق خلف المرجل، وأخذ يتفقدها إلى أن قرّر أن يهدي دوك واحدة من أفضل القطع التي قام بجمعها، ألا وهي عامود الربط ومكبس سيارة من طراز تشالميرز ١٩١٦، فأخذ يلمع القطع

ويصقلها حتى صارت لامعة متألقة، ثم قام بصنع صندوق صغير لها ووضع القطع به ثم لفه بقطعة من الجوخ الأسود.

وفي قصر فلوبهاوس، أخذ ماك ورفاقه يفكرون ويتناقشون حول نوع الهدية الأنسب لدوك، حتى توصلوا أخيرا إلى أن دوك كان في حاجة دائما إلى قطط لكنه كان يجد صعوبة في الحصول عليها؛ فجاء ماك بقفص مزدوج، ثم استعاروا هرة أنثى جميلة، ثم قاموا بنصب الشِرك تحت شجرة السرو على قمة الساحة الخاوية، وكانوا قد صنعوا في قصرهم قفصا كبيرا من السلك ليضعوا فيه صيدهم من القطط الذكور والذي تزايد ليلة بعد ليلة.

(لن نضع زينة هذه المرة) قال ماك ( فقط سنصنع حفلة جيدة مع كثير من الشراب).

وفي محبسه بسجن ساليناس، سمع جاي بنبأ الحفلة، فعقد صفقة مع المأمور ليخرج في تلك الليلة لحضورها، واستدان منه دولارين قيمة تذكرة الحافلة. وقد كان جاي لطيفاً طوال الوقت مع المأمور الذي كان يقدر ذلك كثيراً ويمتن له، كما أن الانتخابات قد باتت على الأبواب وقد أقنعه جاي أن بإمكانه حشد عدد من الأصوات لصالحه؛ علاوة على ذلك فقد كان في مقدور جاي أن يشوه سمعة سجن ساليناس إن أراد.

وكان هنري قد ارتأى مؤخرًا، وعلى نحو مفاجئ، أن أسلوب لوحات ووسائد الدبابيس الملونة كان أسلوبًا فنياً زاهرًا خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ثم تم إهماله حتى لم يعد أحد

يستخدمه، فقرر هو إعادة إحيائه من جديد، وكان يرى أن بالإمكان صنع العجائب بالدبابيس الملونة، وتصميم لوحات متجددة أبداً حيث يمكن تغييرها وتبديل أشكالها بمجرد تبديل مواضع الدبابيس، بما يمنح احتمالات لا تنتهي لتلك اللوحات.

وقد كان هنري عاكفًا على إعداد مجموعة من تلك اللوحات حينما سمع بالحفلة، فترك ما كان يصنع، وقرر إعداد حاشية عملاقة بالدبابيس الملونة كهدية لدوك، وقد اعتزم أن يجعلها على شكل لوحة غامضة من الدبابيس الخضراء والصفراء والزرقاء وطائفة أخرى من الألوان الهادئة، وقرر أن يطلق عليها اسم : ذكرى العصر الجيولوجي ماقبل الكامبري.

وكان لهنري صديق هو «إريك»، الحلاق المتعلم المثقف، والذي كان يهوى جمع الطبعات الأولى للكُتَّاب الذين لم تكن لأعمالهم طبعات ثانية أو كتب أخرى. وقد قرر إريك إهداء دوك آلة رياضية لتقوية العضلات كان قد حصل عليها لقاء سداد فاتورة الحلاقة عن ثلاث سنوات لأحد زبائنه. وكانت الآلة في حالة جيدة حيث لم تُستخدم كثيراً، خاصة وأن أحدًا لايستخدم تلك الآلات!.

لقد نَمَت «المؤامرة» مع الوقت واتسع نطاقها، وأخذ الناس يتهامسون حول الهدايا الأمثل، وأنواع الشراب وموعد بدء الحفلة، وكانوا يؤكدون على بعضهم البعض على ضرورة أن يبقى دوك غافلاً عما يُعَد من أجله.

ولم يدر دوك متى بدأ الشعور يخالجه بأن شيئاً ما يخصه يتم تدبيره في الخفاء، خاصة حينما لاحظ أن المحادثات في دكان لي شونج تتوقف بمجرد دخوله من الباب. في البداية ظن أن هناك خطب ما جعل الناس يجافونه، إلى أن فوجئ بأن نصف من يقابلهم على الأقل يسألونه عن خططه ليوم السابع والعشرين من أكتوبر، وما إذا كان ينتوي فعل شئ ما في هذا اليوم، فأخذه العجب واستولت عليه الدهشة، خاصة وأنه كان قد نسي تماماً ما قاله لماك حين سأله الأخير عن يوم مولده.

وفي إحدى الأمسيات، توجه دوك إلى حانة « هاف واي»، والتي كان يفضل الجعة التي تقدمها حيث كانت من نوع جيد كما كان يتم حفظها في درجة حرارة مثالية؛ وبينما هو يجرع كأسه الأول وعلى وشك الحصول على الثاني، سمع رجل سكير بجواره يسأل عامل البار : (هل تنوي الذهاب إلى الحفلة؟)

فأجابه العامل : (أية حفلة؟)

(حسناً، أتعرف دوك؟ من شارع السردين المعلب؟)

فنظر العامل عبر البار ثم إليه، فاستطرد السكير : ( إنهم سيقيمون له حفلاً بمناسبة عيد ميلاده)

(ومن «هم»؟)

(كل القوم)

وكان دوك في ذهـول تـام وهو يسـمع مايقال، وقد أخـذ يقلب الأمر في ذهنـه، ومما زاده عجباً أنـه لم تكـن لـه سـابق معرفـة بذلـك السـكير قط .

الآن اتضـح كل شـئ أمامه ووجد تفسـيرًا لكل ما اسـتغلق عليه.... لسـؤال مـاك عن عيـد ميـلاده، والأحاديث التـي كانت تُبـتَر أينما دخل، وحالـة التكتـم التـي كان يشـعر بها مـن حولـه. في تلك الليلـة ظل دوك يفكـر طويـلاً في الأمـر برمتـه، وقـد شـعر بحماسـة وامتنـان عظيمـين، وأخـذه التأثر بتلـك اللفتة الرقيقـة والرغبة الصادقة في إسـعاده وإدخال السـرور إلى قلبـه، لكنـه في نفس الوقـت إعـتراه التوتر بمجـرد أن تذكر ماحـدث في الحفلـة الماضية والخسـائر الجِسـام التـي لحقت به.

وهكـذا أدرك تـوم أن تلـك الحفلة قـد تكبده خسـائر جديـدة، فعقد العـزم عـلى إتخـاذ تدابـيره الخاصـة. وفي اليـوم التـالي شرع ينقـل أفضل اسـطواناته إلى الغرفـة الخلفيـة مـن المختـبر، وكذلـك كافـة المعـدات والقواريـر القابلـة للكـسر، قـام بنقلهـا لنفـس الغرفـة عـلى أن يقـوم بإغلاقهـا جيـداً يـوم الحفـل.

ثـم إنـه انطلق إلى السـوق للتبضـع ، وقد اسـتنتج أن ضيـوف الحفلة سـيأتون عـلى كل الشراب في سـاعة مبكرة وسيشـعرون بالجـوع، وأنهم كذلـك لـن يفكـروا في إحضـار اي أطعمـة معهـم، فتوجـه إلى الجـزار وابتـاع منـه خمسـة عشر رطلا مـن شرائح اللحـم البقري، ثم ابتـاع أيضا عـشرة ارطـال مـن الطماطم، وكميـة من الخـس، والخبـز، ومرطبان كبير مـن زبـدة الفـول السـوداني، وآخـر مـن مربـى الفراولـة، ولم ينس شراء

خمسة جالونات من الخمر وأربعة زجاجات من الويسكي الجيد؛ وقد أيقن دوك مع كل تلك التكاليف أنه سوف يواجه مشاكل مالية بحلول مطلع الشهر، كذلك أدرك أن ثلاث أو أربع حفلات مماثلة كفيلة بأن تجعله يخسر مختبره تحت وطأة الديون.

في تلك الأثناء كانت التحضيرات في شارع السردين المعلب تجري على قدم وساق، وكان دوك على صواب، ففي وسط كل تلك التحضيرات والخطط والهدايا، لم يفكر أحد في جلب أي أطعمة معه، فقط تم ابتياع الكثير من زجاجات الشراب من أجل الحفلة.

وكانت كميات الهدايا تتزايد يومًا بعد يوم، وأعداد من ينتوون الحضور تتضخم ساعة تلو ساعة. وفي بيت دورا احتدم النقاش حول ماينبغي للفتيات ارتدائه في تلك السهرة، وما إذا كن سيتمكن من الحصول على إجازة من العمل أم لا. ولم يكن الأمر سهلاً، فقد أصرت دورا على أن يبقى بالبيت عدد من الفتيات كي يعتنين بالزبائن المستديمين، لذا فقد استقر قرار الفتيات على تقسيم أنفسهن إلى مجموعتين، الأولى تذهب إلى الحفل وتقدم لدوك الهدية، في حين تبقى الثانية في العمل، ثم تعود المجموعة الأولى لتتسلم مهام العمل والزبائن وتذهب الثانية؛ ومن هنا كان عليهن أن يشرعن في اختيار الفتيات اللائي سيذهبن ضمن المجموعة الأولى حيث ستشهد أولئك الفتيات رد فعل دوك حين يتسلم هديته منهن.

لقد أوشكن أخيرًا على إنهاء حياكة الغطاء، وقد وضعنه على إطار في غرفة الطعام ريثما ينتهين من تفاصيله الأخيرة.

كذلك كانت السيدة مالوي قد تركت غطاء فراشها الذي كانت عاكفة على تطريزه، جانباً، وشرعت في تطريز ستة مناديل لكؤوس الجعة لإهدائها إلى دوك.

والآن انقضت فترة التحضيرات، وبدأ العد التنازلي للحفلة المنتظرة، يصاحبه شوق متزايد لها. وفي قصر فلوبهاوس كان خمسة عشر قطا ذكرًا يقبعون في قفص، يكاد مواءهم أثناء الليل يثير جنون دارلينج.

***

# -٢٨-

كان لابـد لفرانكـي، إن عاجـلاً أو آجلاً، أن يسـمع بنبـأ الحفلة ، فقد كان لا يكـف عـن التجـوال بـين أرجـاء الشـارع كسـحابة، لا يلحظـه أحـد، ولايكـترث أحـد لغيابـه أو حضـوره... كان عـلى هامـش الحياة، لا يقـو عـلى الانخـراط في أي تجمـع بشري. ومـع ذلك فقد بلـغ فرانكي خـبر الحفلـة المزمعـة، وسـمع أحاديـث القـوم حـول الاسـتعدادات والهدايـا التـي ينتـوون تقديمهـا لـدوك، فاعـتراه شـعور غريب وشـوق جـارف إلى المختـبر.

وفي نافـذة المعروضـات بمحـل «جاكوبـز» للمجوهـرات، كانـت سـاعة بديعـة الشـكل تتوسـط الحـلي والجواهر في أبهـى صـورة. كانت عبـارة عـن سـاعة سـوداء ذات واجهـة ذهبية، ومـن فوقها يتربع مجسـم برونـزي آيـة في الجـمال والفخامـة والروعـة، يمثـل الأيقونـة المسـيحية الشـهيرة للقديـس جـورج وهو يقتـل التنـين؛ وكان أروع مـا يميز ذلك المجسـم هو وجـه القديـس ذو اللحية المسـتدقة التـي جعلته يشـبه دوك إلى حـد ما.

وكان فرانكي يتخذ سبيله إلى شارع ألفارادو، حيث يقع محل جاكوبز، عدة مرات في الأسبوع الواحد، فقط ليقف أمام نافذة العرض ويطالع المجسم البديع، الذي ظل ماثلا في مخيلته، حتى بات يطارده في أحلامه كذلك، وقد ظل على هذا لأشهر عديدة، حينما أتاه نبأ الحفل والهدايا..

وذات مرة، استجمع فرانكي شجاعته ودلف إلى محل المجوهرات - بعدما ظل واقفًا على الرصيف أمامه لنحو الساعة - فالتفت نحوه السيد جاكوبز صاحب المحل، وأخذ يتفحصه ملياً، وقد أدرك من النظرة الأولى أن الفتى معدم تماماً، ثم بادر : ( كيف أخدمك؟)

(كم تبلغ قيمة تلك؟)قالها فرانكي بصوت مبحوح.

( أيهم؟)(تلك)أجاب الفتى مشيراً إلى الساعة الثمينة.

( أتقصد الساعة؟ خمسون دولاراً، وبالمجسم خمسة وسبعون دولاراً)

فخرج فرانكي من المحل دون أن ينبس بحرف، واتجه إلى الشاطئ الرملي، حيث انسل أسفل إحدى الزوارق المقلوبة على الرمال، وراح يتأمل الأمواج عبر فرجة صغيرة منه.

لقد تملّك ذلك المجسم منه ومن تفكيره وخياله لدرجة أنه قد بات حاضرًا أمام عينيه طوال الوقت، وبدأ شعور رهيب يعتري الفتى، واستولت عليه فكرة واحدة : عليه أن يحصل على ذلك المجسم... وظل ذلك الشعور يتعاظم داخله، وقد اتقدت عيناه في ضراوة مع استغراقه في تلك الفكرة.

بقي فرانكي قابعاً أسفل الزورق طوال ساعات النهار ولم يخرج إلا مع حلول الليل، فعاد أدراجه إلى شارع ألفارادو، وأخذ يذرع الشارع جيئةً وذهاباً دون كلل أو شعور بتعب أو نعاس، بينما الناس من حوله يأتون ويروحون. لقد استحوذ عليه المجسم تمام الاستحواذ واشتعلت الرغبة المحمومة في الحصول عليه ناراً مستعرة تأكل باطنه.

أخيراً قلت حركة الناس في الشارع، ثم انحسرت تدريجياً، حتى اختفى آخر المارة. ثم فجأة، ظهر من مكان ما شرطي ودنا من فرانكي وهو يحدق فيه، ثم قال مباشرة : ( ماالذي تفعله هاهنا في تلك الساعة المتأخرة؟)فما كان من الفتى إلا أن أطلق ساقيه للريح وفر من أمام الرجل، وظل يجري إلى أن انعطف عند زاوية الشارع، فاختبأ خلف برميل قائم في أحد الأزقة.

وعند الساعة الثانية والنصف صباحاً، تسلل فرانكي من مخبأه عائدًا إلى حيث محل جاكوبز، وأخذ يقترب من الباب وأدار المقبض، إلا أنه كان موصداً. فعاد فرانكي أدراجه إلى الزقاق الضيق ، وجلس من جديد خلف البرميل وطفق يفكر... ثم لمحت عيناه قطعة من الحجارة الأسمنتية ملقاة بجانب البرميل، فالتقطها بين يديه...

في اليوم التالي، أفاد الشرطي أنه قد سمع صوت تحطم زجاجي، فهرع إلى حيث مصدر الصوت ليجد واجهة العرض في محل جاكوبز وقد تحطمت، فيما كان فتى صغير يعدو هارباً، فطارده الشرطي؛ ولا يدري كيف استطاع فتى في مثل ذلك العمر أن يركض كل

تلك المسافة الشاسعة بتلك السرعة وهو يحمل ساعة ومجسم يزنان خمسين رطلا كاملاً. وقد كاد الفتى ينجو بفعلته ويفر بمسروقاته لولا أنه قد فوجئ بنفسه وقد دخل إلى شارع مسدود في نهايته، وتمكن الشرطي في نهاية المطاف من إلقاء القبض عليه.

وفي ذلك اليوم تلقى دوك استدعاءً من الشرطة، حيث هاتفه مفوض الشرطة بالمنطقة : ( أريد أن أتحدث معك قليلاً)

وبالفعل توجه دوك إلى مركز الشرطة، حيث قاموا باقتياد فرانكي إلى مكتب المفوض، وهو في حالة يُرثى لها من القذارة، وكانت عيناه حمراوين لكنه لم ينطق بحرف واحد أو ينتحب، فما إن رأى دوك حتى حانت منه ابتسامة واهنة ترحيباً به.

فهتف دوك متسائلاً : ( ما الأمر يا فرانكي؟!)

فرد مفوض الشرطة : ( لقد قام بتحطيم واجهة العرض لمحلات جاكوبز ليلة أمس وسرق بعض المعروضات. وقد تواصلنا مع والدته التي قالت أنها ليس لها علاقة بما حدث وأنه يذهب إلى مختبرك يومياً)

فالتفت دوك نحو فرانكي وقال : ( ماكان ينبغي لك أن تقدم على مثل ذلك الفعل أبدًا)، وفي داخله، كان يستشعر نوعاً من المسؤولية نحو الفتى، فقال للضابط : ( ألا يمكن أن تطلق سراحه على ضمانتي؟)

( لا أظن أن القاضي سيوافق على ذلك... لقد وردنا تقرير الكشف العقلي عليه... هل تعرف علته؟)

(نعم ، أعرف)

( وهل تعرف ما الذي سيصير إليه حينما يصل إلى سن البلوغ؟)

(نعم)أجاب دوك وقد تعاظم بداخله شعور المسؤولية.

( يقول الطبيب إنه من الأفضل أن نعزله عن المجتمع، وهو أمر لم يكن في مقدورنا من قبل، أما الآن وبعد تورطه في ارتكاب تلك الجريمة فقد بات ذلك ممكناً)

(وما الذي سرقه؟)

(ساعة كبيرة ثمينة، ومجسم من البرونز)

( سوف أدفع ثمنهما)

(لقد استعدناهما منه، ثم إن القاضي لن يوافق على شئ من هذا. لو أننا تركناه هذه المرة فسوف يعود إلى ذلك ثانية. أنت تعرف ذلك)

(نعم.... أعلم... لكن، ربما كان لديه سبب لما فعل... فرانكي، لماذا فعلت ذلك؟)

فنظر إليه فرانكي نظرة طويلة، ثم : ( لأنني أحبك..).

خرج دوك من مركز الشرطة وهرع إلى سيارته، ثم انطلق سريعاً إلى حيث كهوف بورت لوبوس ليغرق نفسه في جمع الحيوانات البحرية.

***

# -٢٩-

في الساعة الرابعة من يوم السابع والعشرين من أكتوبر، انتهى دوك من تعبئة مجموعة من قناديل البحر في القوارير، ثم غسل إناء الفورمالدهايد، ونظف الملاقيط التي يستخدمها في أعماله، ثم خلع قفازيه المطاطيين، واتجه صاعدا إلى الطابق العلوي، حيث قام بإطعام الفئران، ثم أخذ مجموعة من أفضل اسطواناته وكذلك المجاهر المعملية، وقام بنقلها إلى الغرفة الخلفية من المختبر، وكذلك أقفاص الأفاعي ذات الجرس، ثم أغلق باب الغرفة جيداً، حيث يحدث أحيانًا أن يرغب بعض الضيوف في مداعبة تلك الأفاعي. وقد كان دوك يأمل من كل قلبه أن تمر تلك الحفلة دون مخاطر وبأقل قدر من الخسائر، لكنه في نفس الوقت لم يكن يرغب في أن يفسدها.

ثم إنه اتجه إلى المطبخ ووضع ابريق القهوة على الموقد، ثم توجه نحو فونوغرافه ليضع أسطوانة «جويس فوج»، ثم ذهب ليغتسل. وبعد لحظات كان دوك قد انتهى من اغتساله فخرج وارتدى ثياباً نظيفة بسرعة، وقبل أن تنتهي الموسيقى كان قد فرغ من تناول قهوته.

ثـم توجـه دوك نحو النافذة، وأخـذ يتطلع عبرها إلى السـاحة الخاوية وقـصر فلوبهـاوس، إلا أنه لم يلحظ أي تحـرك من أي نوع.

ولم يكـن دوك عـلى علـم بمن سـيأتي إلى الحفلة المقامـة لأجله ولا كم سـيبلغ عددهـم، لكنـه كان على يقـين بأنـه مُراقَب، وكان يستشـعر ذلك طـوال النهـار، صحيـح أنـه لم يـرَ أحـد في الجـوار، لكنـه كان يشـعر بأن ثمـة شـخص أو عـدة أشـخاص يراقبونه عـن كثب.

ونظـرًا لأنـه مـن المفـترض أن تلـك الحفلة قد تـم الإعداد لهـا لتكون مفاجئـة لـه، فلا بـأس إذن من إبـداء بعض الدهشـة والتفاجـؤ، فلا داع لأن يفسـد عليهـم الأمـر. لهذا فقـد قـرر دوك أن يـمارس روتينـه المعتاد ليبـدو أمـام مراقبيـه وكأنـه لا يدري بشـئ مما قد تـم تدبـيره، فخرج من المختـبر واتخـذ طريقـه نحو دكان لي شـونج، وابتـاع زجاجتـي جعة، ولم تفتـه بالطبـع نظـرات الحماسـة التـي أطلت من عينـي «لي» والتـي حاول الرجـل كبحهـا ومُداراتهـا قدر الإمـكان، فـأدرك دوك حينهـا أن التاجر الصينـي قادم هـو الآخـر إلى الحفل.

ثـم عـاد إلى المختـبر، وقـام بصـب كأس مـن الجعـة لنفسـه، فـشرب الأول لـيروي ظمـأه، ثـم تنـاول الثـاني ليسـتمتع بمـذاق الجعـة ، وقـد حانـت منـه التفاتـة نحـو النافـذة ليجـد الشـارع لايـزال خاويًـا.

في تلـك الأثنـاء كان مـاك والفتيـة لا يزالـوا في القـصر وقـد أوصدوا بابـه ، وقـد ظـل الموقـد يهـدر طوال سـاعات مـا بعـد الظهيرة لتسـخين مزيـد من المـاء من أجـل اسـتحمامهم، حتى دارلينـج تم تحميمهـا بعناية ثـم وضـع شريط أحمـر حـول عنقها.

( ماهـو الوقـت المناسـب في رأيكـم للانطـلاق إلى الحفل؟)تسـاءل هـازل، فأجابـه مـاك :

( ليـس قبـل السـاعة الثامنـة عـلى مـا أظـن... ولا أرى مايمنـع الآن مـن أن نحتـسي كأسًـا مـن الخمر)

فقـال هيوجـي ( مـا رأيـك لـو ذهبـت إلى دوك الآن حامـلاً زجاجة مـن الخمر ليـس إلا؟)

(لا)قالهـا مـاك ( لقـد ذهب دوك منـذ قليل إلى دكان لي شـونج وابتاع بعضًا مـن الجعة)

فسأله جونز ( هل تظن أنه يشك في شيء؟)

( وكيف يتسنى له ذلك؟ ومن أين سيدري بما نخطط له؟)

وفي قفـص القطـط، أخـذ هِـرّان يتشـاحنان، ثـم سرعـان مـا اهتـاج القفـص بأكملـه، وأخـذت القطـط جميعـاً تصـدر مـواءً مزعجـاً وقـد تقوسـت ظهورها في تحفز. وكان ثمـة واحد وعشرين قطا فقط بالقفص، حيـث لم يسـتطع الفتيـة اصطيـاد العـدد الـذي كانـوا يبتغونـه بالكامل.

التفـت هـازل إلى حيـث القفـص، ثـم قـال : ( إننـي أتسـاءل كيـف سـيمكننا نقـل القطـط إلى المختبر، إننا لن نسـتطيع إخـراج ذلك القفص الضخـم عـبر الباب)

فقـال مـاك ( لـن ننقلهـا، تذكـروا ماحـدث بصنـدوق الضفـادع.. سـوف نخـبر دوك بأمـر القطـط ثم يـأتي هـو لنقلهـا بطريقتـه الخاصة)، ثـم نهـض مـن على كرسـيه وقـام بفتـح أحـد أباريق الخمـر التـي يأتيهم

بهـا إيـدي، وقـال : ( دعونـا نتنـاول القليـل من هـذا كي نُـسْري بعض الــدفء في أوصالنا).

عنـد السـاعة الخامسـة والنصـف، ظهـر الرجـل الصينـي الغامـض عـبر التـل، ومـر مـن أمـام قـصر فلوبهـاوس، ثـم عـبر السـاحة الخاوية والشـارع، إلى أن اختفـى مـا بـين المختـبر البيولوجـي الغـربي ومصنـع هيديونـدو لتعليـب السرديـن.

وفي بيـت دورا كانـت الفتيـات يسـتعدن للحفـل، وقد قمـن بتوزيع أنفسهن على مجموعتين، كما سبق واتفقن، بحيث تقضي كل مجموعة ساعة في الحفـل بينـما تباشر الأخـرى الأعمال في البيـت، ثم تتبـادلان المواقع..

أمـا عـن دورا نفسـها، فقـد كانـت متألقـة رائعـة، يتوهـج شـعرها البرتقـالي المتـماوج المصبوغ وقد تجمع فوق رأسـها، وفي إحـدى أصابعها ارتـدت خاتـم زواجهـا، وثبتت إلى صـدر ثوبها دبوسًـا ماسـيًّا، أما ثوبها نفسـه فـكان مـن الحرير الأبيـض المنقـوش باللون الأسـود.

وفي غـرف النـوم، كان الوضـع مختلفـاً عن المعتـاد، فالفتيـات اللائي سـوف يمكثـن في المنـزل قـد ارتديـن أثـواب السـهرة الطويلـة، أمـا أولئـك اللائـي سـيتوجهن إلى الحفلـة فقد لبسـن فسـاتين قصـيرة ملونة ومزخرفـة، فبديـن في غايـة الجمال؛ وكن قـد قمن بوضع مفـرش السرير في صنـدوق كبـير بالبار.

أمـا ألفـرد فقـد ظـل يرغـي ويزبـد قليـلاً حينـما علـم أنه لـن يتمكن مـن حضـور الحفـل وأنـه ينبغـي أن يبقـى بالبيـت لحمايته.

وبالمخالفة للأوامر، قامت كل فتاة بإخفاء زجاجة من الخمر، وانتظرن جميعًا الفرصة لتناول بعض منها استعداداً للسهرة.

واتجهت دورا في أبهتها المعتادة إلى غرفة مكتبها ، فدخلت ثم أوصدت الباب خلفها، ثم إنها فتحت الدرج الأعلى من مكتبها وأخرجت زجاجة وكأسًا وصبت لنفسها بعض من الخمر، وجلست تتناول شرابها، وكانت إحدى الفتيات تسترق السمع عليها من الخارج، فما إن سمعت صوت رنين الزجاجة والكأس حتى انطلقت إلى الفتيات تخبرهن أن دورا قد شربت بعض من الخمر، ومن ثم فلن يتسن لها أن تلحظ رائحة أنفاسهن إن هن فعلن المثل، فاتجهت كل واحدة منهن فورًا إلى غرفتها وصبت لنفسها جرعة أو اثنتين من زجاجتها المخبأة.

كان الغسق قد أسدل ستائره على شارع السردين المعلب، حيث اللحظات الفاصلة ما بين ضوء النهار الراحل وضوء الشارع الذي لم تتم إضاءته بعد؛ فأخذت فيليس ماي تسترق النظر عبر النافذة نحو المختبر، فسألتها دوريس : ( هل يمكنك رؤيته؟)

( نعم، لقد أضاء أنوار مختبره، إنه يجلس الآن هناك وكأنه على وشك القراءة... يا إلهي، لكم يقرأ هذا الرجل كثيراً، حتى أنني لأظن أنه سيتلف عينيه بسبب القراءة. إنه يمسك كأسًا من الخمر في يده)

(حسنًا)قالت دوريس ( دعينا نحن أيضًا نحتسي بعض من الخمر)

وكانت فيليس ماي لاتزال تعرج، ومع ذلك فقد كانت في خير حال، وقد أخذت تقول في مرح : ( إن الأمر ليبدو مضحكا حقاً، فها هو ذا جالس في سكينة ولا يدري بما سيجري بعد قليل)

فقالت دوريس في شئ من الحزن : ( إنه لا يأتي إلينا أبدًا ها هنا)

( كذلك هم كثير من الرجال ممن لايحبون أن يدفعوا مالاً..)

( ربما هو يحبهن )

(يحب من؟)

(أولئك النسوة اللواتي يترددن عليه)

(اه. نعم، ربما.. لقد عرجت عليه في المختبر من قبل، لكنه لم يتودد إليَّ يومًا)

(نعم، هو لايفعل...)أجابتها دوريس (لكن هذا لايعني أنك كنت لتكسبي وده بسهولة لو أنك لا تعملين هنا في هذا البيت)

( أتقصدين أنه لا يفضل الفتيات ممن يمتهنن مهنتنا؟)

( لا، لم أعن ذلك على الإطلاق. لكنه ربما يتصور أن من تمتهن حرفتنا يكون لها طابع مختلف)

وفي مكتبها، صبت دورا لنفسها كأساً أخرى وشربتها، ثم أغلقت درج الشراب، ووقفت تسوي شعرها أمام المرآة، ثم ألقت نظرة على أظافرها المطلية باللون الأحمر البراق، ثم خرجت من مكتبها باتجاه البار، حيث كان ألفرد يقبع هناك متذمرًا في صمت، فنظرت إليه دورا في برود ثم قالت : ( إن من ينظر إليك يخيل إليه أنك على وشك أن تساق إلى المشنقة، أليس كذلك؟)

( لا)أجابها ألفرد باقتضاب (كل شئ على مايرام)

فاستفز رده دورا، فصاحت: ( كل شيء على مايرام، فعلا... إنك الآن تحظى بعمل، فهل تريد الاحتفاظ به أم لا؟)

فرد ألفرد في برود ( كل شيء على ما يرام ياسيدتي، أنا لم أشكُ من شيء)ثم أنه أسند مرفقيه إلى البار وأخذ يتأمل وجهه في المرأة، ثم قال من جديد ( إذهبي واستمتعي بوقتك ، وسوف أعتني انا بكل شيء هاهنا، اطمئني)

فلانت دورا قليلاً، و رق قلبها لما لمسته من ألم في صوته وكلماته، فقالت ( إسمع، إنني لا أريد ترك البيت بلا رجل يرعاه. أنت تعلم أنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تذهب الخمر بعقل أحد الزبائن ولا تستطيع الفتيات وحدهن كبح جماحه، لذا فأنا أحتاج وجودك هاهنا. ولكن، يمكنك أن تلحق بنا إلى الحفل بعد فترة، على أن تراقب البيت بطريقة أو بأخرى عبر النافذة... فما رأيك؟)

(حسنًا)أجابها ألفرد وقد سكن حزنه إلى حد كبير ( ربما ألحق بكم بعد حين لدقيقة أو دقيقتين. أنت على حق، فقد كان هناك سكير وضيع ليلة أمس.... الحقيقة أنني لم أعد كما كنت يا دورا، لقد فقدت شجاعتي منذ أن ضربت ذلك الرجل، لقد فقدت ثقتي بنفسي حتى أنني بت أخشى أن أكرر ما حدث وأضرب أحدهم مرة ثانية وأخسر كل شيء)

(أنت في حاجة لبعض الراحة.... ربما أمكنني أن أكلف ماك ليحل محلك ريثما يتسن لك الراحة لأسبوعين)

لكم كانت دورا امرأة رائعة حقاً...

وفي المختبر، تناول دوك بعضاً من الويسكي عقب الجعة، وقد بدأ يشعر بشيء من الخفة. لقد كان سعيدًا باهتمام الناس به ورغبتهم في تقديره وإسعاده، فاتجه إلى الفونوغراف وقام بتشغيل بعض من موسيقاه المفضلة، فتناوبت عليه الأحاسيس المرهفة الحزينة نوعاً، حتى إذا ما انتهت الموسيقى، قام ليصب لنفسه كأسًا آخر من الويسكي وهو يفكر في تشغيل مقطوعة موسيقية أخرى، علّها تخرجه من الأجواء الحزينة التي حوطته، لكنه سرعان ما تراجع، فما الضير في الحزن؟! إنه أمر ممتع على كل حال!...

ثم إنه أخذ يردد بصوت عال : ( إنني أستطيع أن أسمع ما يحلو لي من موسيقى... أستطيع أن أشغل أي مقطوعة أشاء.... إنني رجل حر)ثم صبّ لنفسه مزيدًا من الويسكي وأخذ يعبه على صدى نغمات «سوناتا ضوء القمر»، ومن النافذة لاحت له أضواء حانة» لا إيدا « وهي تومض بإيقاع ثابت، قبل أن يُضيء مصباح الشارع الكائن أمام بيت دورا أنواره؛ وسرعان ما تحلقت الدعاسيق تطوف حول ضوء المصباح في حركة محمومة، وقرون استشعارها تتلوى يمينًا ويسارًا. وبالقرب من بالوعة الشارع جاءت قطة تتلمس طريقها، وتتطلع حولها وكأنها تتعجب من اختفاء القطط الذكور.

ومن المرجل أطل السيد مالوي برأسه خارجًا ليتحقق مما إذا كانت الحفلة قد بدأت بعد...

أما في قصر فلوبهاوس، فقد جلس الفتية في ترقب مضطرب وشوق، يتطلعون إلى عقارب الساعة وقد فرغ صبرهم.

# -٣٠-

عـلى مر الأزمـان، لم تحظ الحفـلات وطبائعهـا باهتمام علمـي حقيقي ودراسـة وافيـة، ومـع ذلـك، فلطالما آمنـت طائفة غـير قليلة مـن الناس بـأن الحفـلات تشـابه الإنسـان في عديـد مـن المناحـي، وتماثـل أحوالها، أحوالـه، بـل وإنهـا تكـون في كثير مـن الأحيـان جامحـة كإنسـان متمرد ضـال. كذلـك يعلـم كثـير مـن البـشر أن الحفـلات نـادراً ما تسـير وفق مـاكان مرسـوماً لها...

هـذا بالطبـع ينطبـق عـلى الحفـلات الحـرة النابضـة بالحيـاة، وليـس تلـك المنمقـة المنضبطـة التي يقوم عـلى تنظيمها أربـاب إقامة المناسـبات وترتيـب الحفـلات، فتلـك الأخـيرة لا يمكـن اعتبارهـا كحفـلات بأي حـال مـن الأحـوال، بـل هي أشـبه مـا تكون بعبـد يتـم جلده بالسـياط كـي يسـير وفـق النهـج المحـدد لـه فلايحيـد عنـه أبـدا، ولايخـرج عـن صراطـه... هـي ليسـت بحفـلات، إنـما هـي تمثيـل ومحـض إدعاء.

ولعـل كل إنسـان في شـارع السرديـن المعلـب كانـت لـه خيالاتـه وتصوراتـه الخاصـة لمـا سـتكون عليـه تلـك الحفلـة في مختـبر دوك،

وما ستحويه من دقائق التفاصيل، كالصيحات والتحيات المرحة والصخب والضحكات العالية، والمشاعر الجياشة الطيبة.

إلا أن الحفلة لم تسر وفق أي من تلك التصورات، على الأقل في بدايتها، فعند تمام الساعة الثامنة مساءً، كان ماك والفتية قد صاروا على أهبة الاستعداد للخروج، فحملوا أباريق الخمر ومضوا إلى وجهتهم، عبر حظيرة الدجاج، ثم خط السكك الحديدية، مروراً بالساحة الخاوية، ثم عبروا الشارع وصولاً إلى المختبر.

وكان الإحراج يسيطر على مشاعر الفتية، وقد تملك منهم الارتباك وهم يدلفون عبر الباب الذي تركه دوك مفتوحًا، وما إن دخلوا حتى استهل ماك الحديث بكلمة قصيرة : ( نظراً لأن اليوم هو عيد مولدك، فقد ارتأيت أنا وأصدقائي أن نأتي إليك لنهنئك ونتمنى لك عيدًا سعيداً هانئًا، وقد جلبنا لك واحد وعشرين قطاً كهدية)

ثم صمت ماك، ووقف والفتية على الدرج مترقبين في توتر ماسيكون عليه رد فعل دوك، فصاح الأخير : ( ادخلوا، إنني... إنني متفاجئ، إنني حتى لم أكن أعلم أنك تعرف إن اليوم هو ذكرى مولدي)

فقال هازل ( لقد جلبنا لك قططا ذكورًا، لكننا لم نحضرها معنا ها هنا )

ثم إنهم جلسوا في صمت و تأدب في الغرفة اليسرى، وظلوا على صمتهم لبرهة، إلى أن قطع دوك الصمت قائلاً ( حسنًا، طالما أنكم هاهنا، فما رأيكم في بعض من الشراب؟)

فأجابه ماك ( لقد جئناك ببعض منه معنا)ثم أشار إلى أباريق الخمر الثلاثة التي جلبها إيدي، الذي قال (إنها لاتحتوي ضمن مكوناتها على جعة)

فقال دوك، وهو يحاول إخفاء شعور الخفة والإعياء الذي انتابه مع حلول الليل قبيل مجيئهم ( لا، ينبغي أن تحتسوا معي الويسكي. لقد كنت أحتسي بعضًا منه قبل حضوركم)

وما إن جلسوا يتشاركون كؤوس الويسكي، حتى أتت دورا وفتياتها حاملات معهن غطاء الفراش اللامع، فقام دوك بفرشه على سريره ووجده جميلاً مبهجًا، ثم قدم لهن الشراب. وبعد حين جاء السيد مالوي وزوجته حاملين هداياهما..

(إن الكثير من القوم لايدركون ماستكون عليه قيمة مثل تلك الأشياء..)قالها مالوي وهو يخرج عمود السيارة تشالميرز ١٩١٦ اللامع والمكبس (على الأرجح لم يعد متبق من ذلك الطراز سوى ثلاث قطع لا أكثر في العالم)

ثم أخذ القوم يتوافدون إلى المختبر، أفرادًا وجماعات؛ فجاء هنري ومعه حاشية الدبابيس الملونة الضخمة، وقد أراد أن يلقي كلمة حول الطراز الفني الجديد الذي انتهجه مؤخرا، إلا أن الأجواء الرسمية للحفلة كانت قد تلاشت ولم يعد ثمة مجال لإلقاء كلمات. ثم جاء جاي وزوجته، ثم لي شونج، الذي قدم ألعابه النارية وشتلات الزنبق الصيني. وبحلول الساعة الحادية عشر كان أحدهم قد التهم الشتلات، وبقيت الألعاب النارية فقط لاغير.

ثـم وفـدت مجموعـة مـن الأشـخاص من بـار لا إيـدا، وسرعـان ما أمسـت الحفلـة أكثـر مرحـاً وأريحيـة وأقـل تكلفـاً، وجلسـت دورا على أحـد الكـراسي وكأنهـا ملكـة متربعـة على عرشـها، وقـد توهج شـعرها البرتقـالي، وفي يدهـا اسـتقر كأس مـن الويسـكي في تأنـق، وقـد أخذت تراقـب فتياتها عـن كثب لضمان ألا تخرج تصرفاتهن عـن الحدود اللائقة.

وبعـد فـترة قـام دوك بتشـغيل بعـض مـن الموسـيقى الراقصـة عـلى الفونوغـراف ثـم اتجـه إلى المطبـخ وشرع في قـلي شرائـح اللحـم.

وقـد مـرت أولى مشـاجرات الليلـة دون خسـائر، فقد حـدث أن قام واحـد مـن الحضـور مـن زبائـن «لا ايـدا» بتقديـم عرض غـير أخلاقي عـلى واحـدة مـن فتيـات دورا، فأبـدت احتجاجهـا، واشـتعل الغضب في صـدور مـاك ورفاقه جـراء تلـك الإهانة، فأمسـكوا بتلابيـب الرجل وقامـوا بإلقائـه إلقـاءً خـارج المختـبر دون إتلاف أي شـئ.

وفي المطبـخ كان دوك لايـزال منهمـكاً في إعـداد شرائـح اللحـم وتقطيـع الطماطـم والخبـز، وقـد سرت في قلبـه البهجـة وفي أوصالـه النشـاط والحيويـة.

وقـد تـولى مـاك بنفسـه أمـر الفونوغـراف، حيـث عثر عـلى مجموعة «بينـي جوردمـان» الراقصة، فقام بتشـغيلها، وبدأ الرقـص، وقد أخذت الحفلـة تشـتعل حماسًـا ومرحًـا، وشرع إيـدي يرقـص ويـدق الأرض بقدميـه في إثـارة، في حـين كان دوك واقفًـا في المطبخ ممسـكًا بزجاجة من الويسـكي وقـد أخـذ يعب منهـا مبـاشرة والخفة تتملـك منه أكثـر فأكثر وتعصف برأسـه.

ثـم فـرغ دوك مـن إعـداد الطعـام وعـاد إلى الغرفـة حامـلاً أطبـاق اللحـم والخبـز، فتفاجـأ الجميع، حيـث لم يكن أحـدًا منهم قـد فكر على الإطـلاق في مسـألة الطعـام، كـما لم يكن أي منهم يشـعر بالجـوع، ولكن مـا إن رأوا الأطبـاق الشـهية حتى انقضـوا عليهـا في شره إلى أن أتوا على كل محتوياتهـا، ثـم جلسـوا جميعًـا في خمـول وقـد أثقلهـم الدسـم وعسر الهضم.

وكان الويسـكي قـد فـرغ حتـى آخـر قطـرة، فجـاء دوك بجالونـات الخمـر؛ وبعـد حين قالت دورا : ( دوك، فلتسـمعنا شـيئا من موسـيقاك الأخـاذة، فقـد سـئمت مـن نوعية الموسـيقى التـي أسـمعها عندي)

فقـام دوك بتشـغيل بعـض مـن موسـيقى «مونتفـيردي»، في حـين اسـترخى ضيـوف السـهرة في سـكون وقد أسـبلوا عيونهم قليـلاً، وكان قـد وصـل ضيفـان جديـدان فصعـدا الـدرج في عجلـة ثـم دخـلا إلى الغرفـة وجلسـا في هـدوء.

في تلـك الأجـواء، وفي رحـاب الموسـيقى، كان دوك قـد بـدأ ينتابـه ذلـك الشـعور بالحـزن المرهـف الشـفيف، ومـن حولـه مـن حولـه كان الصمـت المهيـب يلـف ضيوفـه بجلالـه، إلى أن انتهـت الموسـيقى، فقام دوك واتجـه إلى حيـث المكتبـة ، ثـم عـاد حامـلاً كتابـا وجلـس، ثـم إنـه شرع يلقـي عـلى أسـماعهم منـه في صـوت واضـح، عميـق :

( حتى اليوم..

إذا ما رأيت في مخيلتي، تلك الجميلة ذات الصدر الناهد

ووجهها المتألق الخلاّب كنجوم لياليا

وجسدها المشتعل نارًا

المجروح بسهام الحب ونصاله

فإن قلبي يُدفَن حيًّا منغمسا بين ثلوج الشتاء..

حتى اليوم..

لو عادت إلي حبيبتي، ذات العيون اللوتسية

مثقلة بأحمال الحب الفتي

فسوف أحوطها بذراعي المتلهفين إليها

ومن شفتيها سأرشف خمر الحب القوية

كنحلة جائعة

تسرق الشهد من قلب الأزهار

حتى اليوم..

إذا مارأيت حبيبتي تضطجع بعينين مفتوحتين

وخدها شاحب يشكو الظمأ وحمى التنائي

فسوف أجدل من حبي لها حبائل من ورود

حتى اليوم..

لاتزال عيناي المطفأتان ترسمان وجه حبيبتي الضائعة..

يالخصلات الشعر الذهبي، تداعب الخدود البضة، كأوراق شجر الماجنوليا الصغيرة

يالصفحات الشفة الملساء، لكم طبعتُ عليها قبلاتي..

حتى اليوم..

يبعث إليَّ الموت باختلاجات أجفانها.

وصورة جسدها النحيل.

الذي حطمته أثقال النشوى.

إن زهرتي صدرها الحمراوان الصغيرتان كانتا يوماً موضع راحتي وعزائي.

والشفتان الرطبتان القرمزيتان كانتا يوماً ملكاً لي.

حتى اليوم..

يتحدثون عن ضعفها ووهنها في الأسواق..

تلك التي كانت من القوة والجسارة أن أحبتني..

والرجال الضئيلين المترهلين، تجار العبيد.

وأمراء مدن البحر.،

ما من أحد استطاع أن يأخذها إلى فراشه البائس.

لكنك يا فتاتي الصغيرة، كنت تلتصقين بي.

كالثوب إذ يلتصق بالجسد

حتى الآن..

لازلت أعشق العينين السوداوين العميقتين الناعمتين.

العينين الحزينتين الضاحكتين..

إذ تسبغان حلو الظلال ما إن تسبلان جفنيهما.

وذلك الفم البض، الفم المعطر...

إني أحبه.

والشعر المتماوج كدخان متراقص..

إني أحبه.

والأصابع الرشيقة.

والجواهر الخضراء إذ تضحكين.

إني أحبها.

حتى اليوم..

لازلت أذكر كيف استسلمت لي.

كيف صرنا روحًا واحدة.

وأناملك تتخلل شعري.

وشفتاك الدانيتان، لازالت ذكراهما تحرقني.

ولقد رأيت كاهنات «راني» يمارسن الحب في ضوء القمر.

ثم يضطجعن كيفما كان، مستسلمات للنعاس)

انتهى دوك من إلقائه للقصيدة، فران الصمت الحزين على الحضور، في حين كانت فيليس ماي تذرف الدموع مدرارًا، حتى دورا كانت تكفكف دمعها، وهازل كان مأخوذا بإيقاع الكلمات، حتى أنه لم ينتبه لمعانيها... لقد تغلغلت القصيدة في نفوس الحاضرين، مستدعية ذكريات حب ضائع في حياة كل منهم.

وكان ماك أول من كسر حاجز الصمت المهيب ( ياللمسيح... إن تلك القصيدة قد ذكرتني بامرأة...)لكنه لم يقو على استكمال عبارته، فلزم الصمت من جديد.

ثم إنهم أخذوا يملأون الكؤوس بالخمر ويحتسونها في صمت لم يفارقهم بعد... لقد تبدلت أطوار الحفلة فغرقت في حزن عذب، لم يقطعه سوى وقع خطوات على الدرج، ثم جاء صوت يصيح ( أين الفتيات؟)

فخرج ماك إلى حيث الدرج، وقد انتابه شعور بالارتياح والسعادة بسبب التخلص أخيرًا من ذلك الجو الكئيب الذي كاد يعصف بالحفلة، كذلك شاعت ابتسامة على وجهي هيوجي وجونز..

(أي فتيات تقصد؟)سأل ماك الوافد بلهجة هادئة.

( أليس هذا بيت بغاء؟ لقد قال لي السائق أن ثمة بيت للبغاء ها هنا )

(لا يا سيدي لقد أخطأت العنوان)

(فمن أولئك النسوة إذن؟)

وهنا نشبت المعركة الثانية، فقد كان الوافد واحد من طاقم سفينة «سانت بيدرو» لصيد التونة، وكان برفقته عدد من زملائه البحارة، وهم قوم يجيدون القتال والضرب، فما إن احتدم الأمر حتى اقتحموا الحفل جميعاً، فخلعت كل واحدة من فتيات دورا فردة من حذائها في تحفز حتى إذا ما اشتدت المعركة كان في إمكانها استخدام كعبها المستدق كمسمار، كسلاح تهوي به على رؤوس المقتحمين..

وحتى دورا نفسها قررت الانخراط في وطيس المعركة، فهرعت إلى المطبخ ثم عادت وفي يدها أداة فرم اللحم. أما دوك فقد أمسك بعمود الربط الذي أهداه إياه مالوي وشرع يهوي به على هؤلاء البحارة في سعادة وعنفوان بالغين...

لقد كانت معركة حامية فعلاً، حتى أن هازل قد تلقى لكمتين على وجهه فسقط أرضًا ثم هب على قدميه من جديد؛ واستمرت المعركة دائرة والفوضى تضرب أطنابها في المكان، حتى ألفى المقتحمون أنفسهم وقد حوصروا في ركن الغرفة، ولم يجدوا في جعبتهم أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى الكتب التي كانت بجوارهم، فبدأوا في التقاط الكتب الثقيلة وإلقائها بقوة على الجمع، إلا أنها لم تجد نفعًا أمام الجمع الهائج المتحمس، فاضطر البحارة للتقهقر خطوة بعد خطوة، وقد تحطمت النافذتان الأماميتان للمختبر.

إلى أن ظهر ألفرد على حين غرة، وقد سمع دوي المعركة وأصدائها عبر الشارع، فجاء يهرع من بيت دورا، وهجم هجمة ضارية على المعتدين وفي يده كان سلاحه المفضل دوماً : مضرب الكرة الثقيل، فأخذ يقاتل بشراسة عبر الدرج والبحارة يندحرون إلى حيث الشارع، حتى وصلوا إلى الساحة الخاوية. وكما في المرة السابقة، انخلع الباب الأمامي وتدلى على جانبه من أحد مفاصله.

أما دوك فقد تمزق قميصه وجُرح كتفه وأخذت الدماء تنز منه. أما عن الأعداء فقد دُحروا وهُزموا شر هزيمة، وكانوا قد ألقي بهم إلى حيث الساحة الخاوية حينما سُمع دوي صافرات الشرطة تقترب عبر الشارع، فهرع ضيوف الحفل المنتصرون إلى داخل المختبر وقاموا بإغلاق الباب كيفما اتفق ثم أطفأوا الأنوار قُبيل وصول سيارة الشرطة؛ فلما وصلت، لم يجد الضباط أي شئ ذي بال، في حين كان القوم بداخل المختبر قابعين في الظلام يقهقهون في سعادة ومرح ويحتسون كؤوس الخمر.

وبعد حين غادرت المجموعة الأولى من فتيات دورا المكان وحلت محلهن المجموعة الثانية، فأضفين جوًّا جديدًا على الحفل، واستُئْنِفَت السهرة الصاخبة من جديد.

ثم عاد رجال الشرطة مرة أخرى، لكن هذه المرة دخلوا إلى المختبر وانضموا إلى الجمع السعيد للاحتفال، واستعار ماك والفتية سيارة الشرطة للتوجه إلى حانة «جيمي بروشيا» لجلب مزيد من الخمور، ثم عادوا ومعهم الزجاجات وجيمي بروشيا ذاته...

في تلك الليلة الليلاء، كان بإمكان المرء سماع أصداء صخب الجمع الهادر عبر جنبات شارع السردين المعلب بأكمله. لقد كانت حفلة مفعمة بالحياة، وحين عاد بحارة السفينة من جديد، لم يهاجموا الجمع ولم ينشب عراك جديد، بل تم استقبالهم هذه المرة والترحيب بهم، فانضموا إلى القوم ليضفوا بهجة فوق بهجة، ومرح فوق مرح.

وفي أحد المنازل، على بُعد خمسة مبان من المختبر، ضجت واحدة من الجيران وضاقت ذرعاً بالجلبة العارمة التي رجت الشارع رجاً، فاتصلت بمركز الشرطة لتقدم شكوى، لكنها لم تجد أي من رجال البوليس هناك ليجيبها، بل إن سيارة الشرطة ذاتها قد سُرقت، ثم وجدوها بعد حين على شاطئ البحر.

وفي غمرة تلك الأجواء، جلس دوك في سعادة ورضا فوق إحدى الطاولات، عاقداً ساق فوق ساق وقد أخذ يبتسم ويربت بأصابعه فوق ركبتيه، في حين تمرغ ماك وفيليس ماي على الأرض وكأنهما يتصارعان....وعبر زجاج النوافذ المحطم هبت رياح الخليج الباردة المنعشة، وحينها قام أحدهم وانطلق يشعل الألعاب النارية التي أحضرها لي شونج، مُطلِقاً إياها في الفضاء.

***

# -٣١-

بين الأعشاب الكثيفة في الساحة الخاوية بشارع السردين المعلب، كان سنجابًا أمريكياً بديناً قد اتخذ مخبأً ممتازًا له، حيث الحشائش النامية تستطيل فتتدلى مغطيةً جحره الصغير في الأرض. كان سنجابا سمينا يحشو خديه دوماً بالطعام، وكانت له أذنان صغيرتان منتصبتان وعينان كبيرتان سوداوان ، ويدان دقيقتان تساعدانه على الحفر في الأرض.

وكان فراؤه غزيراً بنياً لامعاً ، فاتح اللون على صدره كجلد الظبي. أما أسنانه فكانت طويلة صفراء مقوسة قليلاً، وكان له ذيل قصير .

باختصار، كان ذلك السنجاب آية في الجمال والصحة وريعان الشباب.

وحينما وفد إلى شارع السردين المعلب لأول مرة، وجده ملائماً للعيش به، فطفق يحفر جحراً له فوق تبة صغيرة في الأرض بين الأعشاب، حيث يكون في مستطاعه دومًا أن يطل منه على الشارع،

فـيرى السـيارات تمر جيئـة وذهابـاً، وأقـدام مـاك والفتية وهـم يعبرون السـاحة الخاويـة إلى حيـث قـصر فلوبهاوس.

ومـع توغلـه في الحفـر ازداد تمسـكًا بالمـكان، حيث الأحجـار الصلبة أسـفل الجحر تمثـل أرضيـة ملائمة.

وفي جحـره الجديـد، أقـام السـنجاب البديـن حجرة كـبرى لتخزين مـا يتيـسر له مـن الطعام، أسـفل صخرة تليـدة، بحيث لا تنهـار الأرض فـوق الحجـرة ولا يتسرب إليهـا الماء مهـما كان المطـر غزيرًا.

ولكـم كان صباحـاً جميلاً حين أطلَّ برأسـه لأول مرة خـارج الجحر، حيـث انسربـت إليه أشـعة الشـمس عبر العشـب الأخضر الـذي يغطي جحـره، فأشـاعت الـدفء والبهجـة بـين جنباتـه وأضـاءت أركانـه، واضطجـع السِّـنجاب الأمريكـي الفتـي في رضـا وحبور داخـل الجحر مسـتمتعًا بالضـوء والحرارة.

وبمـرور الوقـت أتـم السـنجاب حفـر الجحـر بالكامـل، وأقـام لـه مخـارج أربعـة للطـوارئ، ثـم شرع يخـزن الطعـام في الغرفـة المخصصـة لذلـك، في عنايـة وترتيـب ونظافـة، بحيـث لايفسـد ولاتصيبـه رطوبة. لقـد كان السـنجاب سـعيداً هانئـاً بحـق، فقـد اختـار لنفسـه المـكان الأمثـل للحيـاة، فلم تكن ثمـة حدائق في الجـوار وبالتالي مـاكان ليخطر في بـال أحـد أن يقيـم فخاخـاً للسـناجب هاهنا، ومـن ثم فهـو في مأمن مـن الوقـوع في شِرك.

صحيـح أنـه كان هنـاك العديـد مـن القطـط في المـكان، لكنهـا جميعًا كانـت متخمـة بـرؤوس وبقايـا الأسـماك الناتجة عـن مصانـع التعليب،

لدرجة جعلتها تتقاعس عن القنص منذ زمن مكتفية بنصيبها من الأسماك..

وظل السنجاب يكد ويعمل على جمع الطعام وتقطيعه وترتيبه وحفظه، حتى غصت الغرفة بما فيها من مؤن ، وفاضت، وما عاد بها متسع للمزيد.

ثم إنه شرع يحفر غرفاً جانبية لصغاره المستقبلين، وقد بدأت تراوده أحلام التزاوج والتناسل، وكيف أنه في بضع سنوات فقط، سوف تملأ ذريته الأرض انطلاقاً من هذا الجحر السعيد...

ومرت الأيام، وبدأ صبر السنجاب الشاب ينفد، فما من سنجاب أنثى واحدة قد ظهرت له؛ ففي الصباحات، كان يقف أمام مدخل جحره ويطلق صيحات التزاوج، تلك التي لاتلتقطها أذن الإنسان، لكنها تتردد عميقا عبر الأرض إلى حيث السناجب الأخرى.... ولكن، دونما استجابة، إلى أن نفذ صبره عن بكرة أبيه، فانطلق يعدو عبر السكة الحديدية علّه يجد أنثاه المنشودة.

وأخيرًا، وجد جحرًا آخر للسناجب الأمريكية، وسمع صوت حفيف، ثم التقط رائحة سنجاب أنثى فدبت فيه الحماسة، ولكن، لم تمر لحظة واحدة حتى خرج إليه من فتحة الجحر سنجاب ذكر متمرس على القتال، فأوسعه ضرباً وخمشاً حتى هزمه وكسر له اثنين من مخالبه من إحدى قدميه الأماميتين، فعاد خائر القوى يجر جسده وإحباطه جراً إلى أن وصل إلى جحره، فانقلب في غرفته الكبيرة في إعياء مدة ثلاثة أيام، حتى استرد عافيته.

ثـم عـاد مـن جديـد يقبـع أمـام جحـره الجميـل، في ذلـك المـكان الآمـن، ويطلـق صيحـات التـزاوج، مـرة بعـد مـرة، ويومًـا بعـد يـوم، لكــن دون جـدوى....

وبعـد حين، لم يجد السـنجاب الشـاب بُـدًا من أن يهجر منزلـه البهي، والسـاحة الآمنـة، ليصعـد عبر التـل إلى حيث الحدائق، ليؤسـس لنفسـه حيـاة ويحفـر جحـرًا مـن جديـد ، وسـط الفخـاخ والـشراك المنصوبة في كل حـدب وصوب.

***

# -٣٢-

أفاق دوك من حالة السُكْر التي عصفت به في الليلة السابقة ببطء شديد، كرجل سمين مثقل بالدهون يخرج من حمام للسباحة، وقد ظل عقله يتأرجح ما بين صحو ونوم لفترة لابأس بها، وعلى لحيته كانت آثار من أحمر شفاه لاتزال مطبوعة.

ثم تمكن أخيرًا من تحريك جفنيه، ففتح عين واحدة، فالتمعت الألوان الزاهية البراقة لغطاء السرير الجديد في عينه المجهدة، فأغمضها من جديد.

وبعد حين استطاع فتح كلتا عينيه، فأخذ يقلب بصره في أرجاء الحجرة، مابين غطاء الفراش، والأرضية، والصحن المهشم هناك في الركن، والكؤوس على الطاولة المقلوبة رأسًا على عقب، والخمر المسفوح على الأرض، والكتب الملقاة في كل حدب وصوب، كفراشات تساقطت صرعى....

حتى الهواء نفسه كان مفعمًا بمزيج عجيب من رائحة البارود والألعاب النارية والخمر والويسكي والعطور؛ ثم إنه اتجه ببصره

الكليل من أثر السهر والشرب إلى حيث باب المطبخ المفتوح، فكان في مقدوره أن يرى أطباق اللحم مكدسة فوق بعضها البعض، وأواني القلي غارقة في الشحوم والدهن، وعلى الأرض تناثرت المئات من أعقاب السجائر.

ثم عاد ببصره من جديد إلى الغرفة، فوقعت عيناه على عدد من دبابيس الشعر ملقاة على الأرضية وسط الغرفة.

وأخيرًا استطاع أن يرفع رأسه الثقيل قليلاً، مستندًا إلى أحد مرفقيه، وألقى نظرة عبر النافذة على الشارع، فوجد كل شئ هادئًا، والشمس ترسل بأشعتها تبعث الدفء بين جنباته، وكان باب المرجل مفتوحًا، في حين كانت بوابة قصر فلوبهاوس مغلقة، وكذلك كان باب بيت دورا موصدًا.

وعلى العشب النامي في الساحة الخاوية استلقى رجل وقد غطَّ في نوم هادئ عميق.

نهض دوك، وسار مترنحاً إلى حيث المطبخ، فأشعل سخان المياه، ثم عاد إلى غرفته فجلس على حافة سريره وأخذ يحرك أصابع قدميه فيما هو يجول بناظريه عبر الفوضى العارمة التي التي أطاحت بكل شئ، حتى إذا ماسمع صوت غليان الماء، اتجه من فوره إلى الحمام ليغتسل من آثار الليلة الماضية.

ثم خرج وقام بارتداء بنطالاً أزرق وقميصًا؛ وبعد لحظات كان أمام باب دكان لي شونج الذي كان لايزال موصدًا هو الآخر، إلا أن «لي» قد عرف أن دوك هو من يقف أمام الباب ففتح له خصيصاً، ثم

اتجه دون كلمة واحدة إلى ثلاجة الجعة فأخرج منها زجاجة وناولها لدوك الذي نقده ثمنها في صمت تام، إلى أن بادره « لي» : ( كانت حفلة طيبة، أليس كذلك؟)

وقد كانت عينيه الداكنتين متورمتان قليلاً من أثر السهر المفرط، فأجابه دوك في اقتضاب : ( نعم... حفلة طيبة)، ثم آب راجعًا إلى المختبر وبحوزته الزجاجة المثلجة، فصعد إلى المطبخ وصنع لنفسه شطيرة من زبدة الفول السوداني ثم جلس ليأكلها مع كأس الجعة، وكان الشارع لم يزل بعد هادئًا وما من أحد يأتي أو يذهب بعد.

أخذ دوك يتناول طعامه وشرابه، وفي رأسه كانت الموسيقى تدور... عزف هادئ سائغ، على الآلات الوترية، تضوع نغماته الوادعة في سموات خياله، فظل يأكل ويشرب على وقع الموسيقى الناعمة، حتى إذا ما فرغ من كأسه حتى الثمالة، قام إلى المطبخ ثانية، فأزاح الصحون المتسخة من الحوض، ثم فتح صنبور الماء الساخن وصب بعضا من مسحوق التنظيف، حتى إذا ماتكونت الرغوة البيضاء العالية جاء بكل الكؤوس المتسخة التي نجت من التحطم، فوضعها جميعا في حوض المياه الساخنة والصابون تمهيدًا لغسلها، وقد قام بإخلاء موضع نظيف على طاولة المطبخ لوضع الكؤوس بعد تنظيفها عليها، كما راكم الأطباق اللزجة بالدهون وبقايا المرق في كومة عالية فوق الموقد.

ثم اتجه دوك إلى الغرفة الخلفية الموصدة وفتحها، فانتقى واحدة من أسطوانات موسيقاه الكنسية المفضلة وعاد إلى غرفته. وهناك قام

بتشغيل الأسطوانة، فتصاعدت الأصوات الملائكية المتسامية للجوقة، تصدح في أرجاء الغرفة بل والمختبر كله، عذبة، حلوة، نقية إلى حدود مذهلة. ثم توجه من جديد إلى المطبخ، وطفق يغسل الكؤوس بهدوء على وقع أصداء الموسيقى الخلاّبة، وقد حرص على ألا يرتطم الزجاج بعضه ببعض في الحوض كي لا تشوش عليه استمتاعه.

ومن الفونوغراف ظلت أصوات غلمان الجوقة تتصاعد نحو السموات ثم تهبط عائدة إلى الأرض.... حتى إذا ما وصلت المقطوعة إلى نهايتها، جفف دوك يديه بمنشفة وعاد إلى الغرفة ليطفئ الفونوغراف. وهناك، لمح كتاباً ملقى أسفل سريره، فالتقطه وجلس على حافة سريره يقلِّب فيه.

وللحظات كانت عيناه تجريان في صمت عبر السطور، ثم مالبث أن بدأت شفتاه تتمددان بما تقرأه عيناه، وفي غضون لحظة، صار يتلو بصوت عال، وفي بطء وأناة، الأبيات، بأسلوب شعري متمهل عند نهاية كل بيت...

( حتى اليوم..

لازلت أذكر أحاديث الحكماء في أبراجهم العالية

حيث أمضوا شبابهم

ولقد ظللت أرهف السمع لأحاديثهم

لكنني أبدًا لم أجد في كلامهم حلو حديث حبيبتي

وهمسها الأخّاذ

وهمهماتها المتنوعة، ونحن مضطجعان

وكلماتها الحكيمة الرشيقة

المغوية كخرير الماء

المفعمة بشهد الرغبة وشوقها)

وفي المطبخ، كانت الرغوة البيضاء قد خمدت، وفقاعات الصابون قد تفجرت. وعند الميناء ارتفع المد من جديد، وأخذت أمواج البحر تتكسر على أعتاب صخور قصية نائية، لم تصل إليها المياه منذ عهود بعيدة...

( حتى اليوم..

لازلت أذكر كم أحببت الزهور، وأشجار السرو

والجبال الزرقاء الشاهقات

والتلال الرمادية الصغيرة

وهدير البحر..

وذات يوم،

رأيت عينين غريبتين

وأنامل ترفرف كالفراشات..

ومن أجلي، حلّقت العصافير من على أشجار الزعتر

وأقبل الأطفال يسبحون في جداول المياه الرقيقة)

أغلـق دوك الكتـاب، ومـن ناحيـة الميناء أتـاه صـوت الأمـواج المتلاطمـة.. ومـن أقفـاص الفئـران البيضـاء في الغرفـة الخلفيـة، أتـاه صـوت تقافزهـا وتسـلقها أعمـدة الأقفـاص المعدنيـة.

ثـم عـاد إلى المطبـخ، وجس الماء في الحـوض فوجده قد بـرد، فأضاف إليـه بعـض مـن المـاء السـاخن مـن جديـد، ثـم وقـف يستأنف غسـل الكـؤوس، وهـو يلقـي عـلى الحـوض، والفئـران البيضـاء في أقفاصهـا، وعـلى نفسـه أبيـات القصيـدة الحزينة :

( حتى اليوم..

أعلم أنني قد ذقت طعم الحياة الحار

وشربت كؤوس الخمر، ورفعت نخب الأعياد

لكنني، ما نلت من عمر الزمان سوى لحظة قصيرة، منسية

اغتَرَفَت فيها عيناي من نبع حبيبتي

و تَمَلَّت بها

فغَرِقتُ في بحار نورها النقي الأبدي)

وبظهـر كفه مسـح دوك عيناه المغرورقتـين بالدمـوع... وفي أقفاصها المعدنيـة أخـدت الفئـران تتقافـز... ومـن خلـف زجاج حوضهـا كانت الأفاعـي ذات الجـرس لازالـت تقبـع كـما هـي، ملتفـة حول نفسـها، في سـكون، تحدق نحو الأفق بعينين حكيمتين عابسـتين قد غبرتهما السـنين.

***

## أعمال جون شتاينبك :

### الأعمال الأدبية :

كأس من ذهب

مراعي الفردوس

البحث عن إله مجهول

تورتيللا فلات

معركة مشكوك بها

القديسة كيتي العذراء

فئران ورجال

المهر الأحمر

الوادي الطويل

عناقيد الغضب

أفول القمر

شارع السردين المعلب

الأتوبيس الجامح

اللؤلؤة

الحتراق الساطع

شرق عدن

خميس عذب

شتاء سخطنا

العهد القصير لبيبين الرابع

***

**الأعمال غير الروائية :**

بحر كورتس (بالتعاون مع إدوارد. ف. ريكيتس)

القنابل بعيدًا (قصة فريق قاذفي القنابل)

يوميات روسية

حطام من بحر كورتس

يوم ما كان هناك حرب

رحلات مع شارلي بحثا عن أمريكا

أمريكا والأمريكان

صفحات من رواية شرق عدن

***

**أعمال درامية :**

فئران ورجال

أفول القمر

***

**الروايات القصيرة :**

حياة في حروف

***

**أعمال أخرى :**

القرية المنسية (وثائقي)

فيفا زاباتا (عمل درامي)

عناقيد الغضب.

***

الكنزي
ALKANZY